أمــــــل

التاريخ . الثقافة . المجتمع

العدد 25-26 ○ السنة التاسعة ○ 2002

تصدر ثلاث مرات في السنة

ملف الصحافة
ص 85 ردمد 113
الايداع القانوني

92 -48

dafali maarouf@
hotamil.com

العنوان :ص ب 14910
البريد المركزي البيضاء
الهــاتــف :
(02)50-61-46
الفاكس : 46-61-50

تم طبع هذا العدد بدعم
من وزارة الثقافة والاتصال

المحتوى

تقديم

نقترح على قراء أمل في هذا العدد موضوعا سبق أن أنجزناه في إطار ندوة علميـــة منذ حوالي سبع سنوات خلت ، في موضـــوع **" المقاومة والاستقلال خلال القرن العشرين : الرموز والدلالات "**.

فبتاريخ 24 –25 نونبر من سنة 1995 نظمت المجلة بتعاون مـــع مجلـــس عمالـــة بنمسيك سيدي عثمان ، بالمركب الثقافي مولاي رشيد بالدار البيضاء هذه النـــدوة ، بمساهمة مجموعة هامة من الباحثين المتخصصين ، الذين رصدوا الموضوع مـــن جوانب متعددة ، يسرنا أن يطلع القراء عليها.

ورغم أن الموضوع سيصل القراء متأخرا مقارنة مع التاريخ الذي عقدت فيه النـدوة فإننا ما زلنا معتقدين في راهنيته ، وأهمية ما طرح فيه من إشكالات ، واجتـــهادات من طرف المساهمين ، وإذ نعتذر على هذا التأخير الخارج عن إرادتنا في إيصـــال هذا الموضوع إلى القراء الأعزاء ، نعتذر لهم كذلك عن التأخير الـــذي وقـــع فـــي صدور هذا العدد من المجلة ، ونطلب مزيدا من التفهم الذي يضع في الاعتبار عددا من العراقيل والمعيقات التي تفاجئ مثل هذا العمل بين الفينة والأخرى.

أمـــل

المقاومة والهوية

- مراحل مقاومة الشعب المغربي للاستعمار
- الشيخ مربيه ربه العالم المجاهد
- الفكر السلفي والحركة الوطنية
- تأصيل الهوية الثقافية في مدينة وجدة

مراحل مقاومة الشعب المغربي للإستعمار

عبد الله العياشي*

في رأيي ، أن حـــركة الـــمقاومة التي انطلقت في بداية القرن العشرين ضد المستعمرين الفرنسيين والإسبان والتي توجت في نهاية مطافها بـــإعلان الاســـتقلال وضم منطقة الشمال بمنطقة الجنوب واسترجاع صحرائنا الغربية، إن هذه المقاومـــة لـــم تنطلق من عدم ــ فلـــم تكن في الواقع، ســـوى حلقة مـــن حلقـــات مسلســـل طويل انطلق منذ قرون عديدة استطاع شعبنا أثناءها أن يكدس تقـــاليد ســـقت روح نضاليته ــ وذلك في خضم الدفاع عن الأرض عن الكرامة عن الحرية عن العقيـــدة ضد حملات الاستعمار التي كانت تستهدف استعباده كشعب واستعمار بلاده كوطـــن وكرحم تكوين أمته فأثناء هذه الممارسة الجهادية العريقة في المجد والقدم تكون عند شعبنا ، رويدا رويدا ، ما يمكن أن نسميه بالحس الوطني قبل أن يصير هذا الحـــس فيما بعد وفي خضم النضال، ما نعرفه اليوم بالوعي الوطني .فمن انتفاضة القبـــائل أولا بكيفية منفردة ، ثم في تحالف بين قبيلة مع أخرى أو مع جماعـــة قبـــائل إلـــى إبراز مفاهيم سياسية عصرية على الصعيد الوطني وتنصيب الـــهياكل التنظيميـــة المناسبة لها. وهكذا ومنذ قرب نهاية المقاومة المسلحة الأولى، صارت الأمور

* أستاذ باحث من الدار البيضاء،عضو قيادة حزب التقدم والاشتراكية

تتطور من حركة اللطيف في بداية الثلاثينات من هذا القرن وتكوين أول تنظيم سياسي " كتلة العمل الوطني" وصياغة أول برنامج مطلبي في مرحلتين ، "مطالب الشعب" ثم "المطالب المستعجلة " وبروز أحزاب متعددة ونقابات عمالية. ففي سياق هذا التسلسل المتطور على الدوام ، نشأت ونمت حركتنا الوطنية بمفهومها العصري. وبسرعة وقع الانتقال من مرحلة المطالبة بالإصلاحات في نطاق نظام الحماية إلى مرحلة الإلحاح على الاعتراف بالاستقلال كشرط مسبق لكل تغيير ليصل المطاف إلى العودة إلى الكفاح المسلح الذي انتهى بإعلان الاستقلال وفتح آفاق استرجاع الوحدة الترابية.

هذه المسيرة الطويلة والمليئة بالبطولات المجيدة التي سلكتها مقاومتنا مدة قرون دفاعا عن الوطن ضد كل غازي أجنبي ، لابد لنا أن نجعلها نصب أعيننا كلما تطرقنا بالدرس والتحليل إلى تاريخ مقاومتنا.

أجل ففي خضم هذه المسيرة تألف كياننا القومي وترسخ في وجداننا تعلقنا به إلى درجة الاستشهاد للدفاع عنه والحفاظ عليه.

وفي هذا الصدد ، يتجلى أنه ليس من باب العبث ولا لمجرد فضول فكري التحدث عن تحديد تاريخ البداية ، بداية هذه المقاومة ــ في ذلك ، أولا إنصاف للحقيقة التاريخية ، وهذا لا أحد يمكن أن يجادل فيه ــ ولكن ما هو أعظم وأعمق هو أن لنا في معرفة هذه البداية ، بالتدقيق العلمي الموضوعي ، مجالا للتأمل والاستلهام ــ فمن أصالة تاريخ نضالنا ومن طابعه العريق تستطيع الأجيال المتلاحقة أن تستمد القوة المتجددة والإيمان الوطني المترسخ ، لأن نتواصل المسيرة الجهادية للدفاع عن ما هو أعز شيء عند الشعوب وعند شعبنا بالذات : الوطن المقدس ــ إن شعبنا واعيا ومدركا أن أجداده وآباءه وأمهاته ناضلوا منذ القدم وطيلة قرون للحفاظ على وطنهم من كل أذى وانتفضوا باستمرار ضد كل معتدي ومحتل ، إن مثل هذا الشعب لم يقهر ولا يغلب ــ وحتى إذا قهر وغلب سرعان ما ينهض ليتحرر ويعتق نفسه بنفسه . هذه سمة يتسم بها شعبنا وهي حقيقة

تاريخية تتحلى بها أمتنا ـ وهذا ما يجب أن نعرفه ونلقنه لأبنائنا وبناتنا حتى تستمر تقاليدنا النضالية المجيدة على أصالتها ونتمكن من تغذيتها على الدوام ـ.

في هذا الصدد تختلف الآراء والمواقف عند المهتمين بدراسة تاريخ حركتنا الوطنية. فمنهم من يرجع هذه البداية إلى معركة وادي إسلي سنة 1844 ، ربما لأن جيش الدولة العلوية الذي كان قد أتى لنجدة المجاهدين الجزائريين ضد الاحتلال الفرنسي ، كان قد مني في هذه المعركة بأفظع هزيمة كان قد عرفها في تاريخه. وقد كانت لتلك الكارثة العسكرية لجيش مولاي عبد الرحمان وكان قائده ابنه سيدي محمد ، عواقب سياسية ومالية وخيمة أدخلت المغرب في مرحلة المسلسل الذي انتهى بضياع سيادته واستقلاله وتفكيك وحدة ترابه.

ورأي ثاني يربط بداية الحركة الوطنية بالحرب الغادرة التي شنتها إسبانيا على مدينة تطوان واحتلالها سنة 1860 وما ترتب عن هذه الحرب وهذا الاحتلال من غرامات مالية خارقة وشروط سياسية مخجلة مست بكيفية جد خطيرة وحدة ترابنا الوطني على وجه الخصوص.

ولكن الرأي الأكثر انتشارا عند بعض من يهتم بتاريخ الحركة الوطنية هو القائل بأن البداية كانت مع حركة اللطيف التي انطلقت في مستهل الثلاثينات للاحتجاج على ما يسمى ب "الظهير البربري" المؤرخ في 16 ماي 1930 أصحاب هذا الرأي، ومنهم وطنيون تاريخيون مرموقون ، يقولون به لأنهم يحصرون مفهوم الحركة الوطنية في شكلها السياسي وفيما رافق ذلك من وسائل التعبير وأشكال النضال والهياكل التنظيمية ، أي المناشير والصحف والكتابة على الجدران والمظاهرات في المساجد أولا ، ثم في الشوارع، وتأسيس أحزاب ونقابات عمالية تماما ، كما هو الأمر في المجتمعات الأوربية وباقي الأقطار المتطورة.

الحقيقة في رأيي ، أن المقاومة في بلادنا التي كتب لها ، في ظروف تاريخية معينة، أن تصبح حركة وطنية مهيكلة على نمط عصري بدأت مع بداية قدوم المستعمر لاحتلال المغرب.

في هذا الصدد ، واقعتان تاريخيتان أثرتا بكيفية عميقة على مصير بلادنا وجعلتا سكانها يدركون ، أكثر من الماضي ، مدى خطر الاحتلال الأجنبي.
الواقعة الأولى تجسدت في العدوان الغادر الذي اقترفته إسبانيا على مدينة تطوان عام 1399 أي 93 سنة قبل سقوط غرناطة. ولقد سجل التاريخ أن مدينة تطوان خربت إثر هذا العدوان ، على أتمها، ونبح مجموع سكانها تقريبا وشرد الأحياء منهم خارج مدينتهم التي صارت خربة خالية. وكانت علة عدوانهم أنهم أرادوا "تأديب القراصنة" المغاربة على أفعالهم في البحر الأبيض المتوسط. على أن ما كان البحارة المغاربة يقومون به كان يدخل في مجال حماية شواطئنا من غزوهم بالذات.

والحدث الثاني تمثل في احتلال البرتغاليين لمدينتنا سبتة سنة 1415 فاتحين بذلك الطريق لتعزيز وجودهم الاستعماري ووجود حلفائهم الإسبان على شواطئنا. ولقد تحقق ذلك فعلا وبكيفية متوازية مع تكثيف الإسبان لعمليات احتلالهم لمواقع عديدة من وطننا . وتطورت الأمور إلى أن تبين بأن هذه الحملات الاحتلالية لم تكن محدودة ولا عابرة. فسرعان ما تجلى أنها كانت تدخل في نطاق مخطط محكم يستهدف استعمار وطننا بأجمعه بل والقضاء على عقيدتنا الإسلامية الحنيفة.

ولما توغل الاحتلال البرتغالي والإسباني في بلادنا ، عقد الاستعماران تحت إشراف البابا الفاجر أليسكندر السادس ، حلفا ليتقاسما شواطئنا فيما بينهما. فكان شاطئ المحيط الأطلسي من حظ البرتغال وشاطئ البحر الأبيض المتوسط من سعد الإسبان . إلا أنه ، ومنذ البداية اصطدم هذا الغزو بمقاومة القبائل ولاسيما منها المجاورة لأماكن الاحتلال. ومما يدل على شراسة هذه المقاومة كون البرتغاليين كانوا محبوسين داخل قلاع محصنة ومغلقة عليهم.

وكان منفذهم الوحيد وسبيلهم الأوحد هو البحر لاستيراد حتى تموينهم الغذائي بما فيه الماء الصالح للشرب من البرتغال. ولا تزال شاهدة على ذلك بقايا القلاع وخزانات الماء المحفورة داخلها كما يمكن مشاهدة ذلك في مدينة الجديدة

وأزمور. ولقد تطورت مقاومة هذا الاحتلال إلى أن وصل المطاف إلى حـوب وادي المخازن سنة 1578م . ونذكر بأن هذه المعركة قادها، من الجانب المغربي ، عبـــد المالك السعدي الذي نصب نفسه ملكا مكان وضد ابن أخيه الملك الخـــائن المتوكـــل المتحالف مع العدو البرتغالي . وتعتبر هذه المعركة التي أنزلت الضربـــة القاضيـــة على الاحتلال البرتغالي في المغرب ، صفحة مجيدة من أمجـــد صفحـــات تـــاريخ مقاومتنا، حيث كان قد التف حول زعيمها عبد المالك القبائل والعلماء وأعيان البلاد.

يتبين لنا إذن ، أن الحركة الوطنية المعاصرة والتي انطلقت منذ أواخـــر القـــرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، هي امتداد ومواصلة للتقاليد النضاليـــة التـــي رسخها شعبنا، وأساسا قبائل باديتنا ، الأمازيغية والعربية ، عبر قرون من التصـــدي لكل مستعمر حاول غزو بلادنا واستعباد شعبنا. ولقد كانت إحدى الســـمات لـــهذه المقاومة المسلحة، الشمولية ، بحيث عمت جميع مناطق المغرب، شـــمالا وجنوبـــا شرقا وغربا.

والجدير بالذكر كذلك أن مسلسل هذه المقاومة انطلق من حيث قدر له أن ينتـــهي أي من صحرائنا التي حررناها ولا نزال نعمل جادين لإضفاء التزكية الدولية علـــى استرجاعها.

نعم ، فمنذ أواخر القرن التاسع عشر وبعد أن تمكنت من السيطرة بالنـــار والحديد، أولا على الجزائر ثم على تونس ، شرعت فرنسا في مساعيها للاســـتيلاء على المغرب. فمن صحرائنا الشرقية والجنوبية دشنت فرنسا ، بتحالف مع إســـبانيا إنجاز مخططها الماكر الرامي إلى استعمار وطننا وتجزئ ترابه وتوزيـــع أطـــراف الوزيعة بينهما . ولقد تصدى بإيمان راسخ وبطولـــة نـــادرة الصحراويـــون لـــهذا المخطط الاستعماري الفرنسي ــ الإسباني بالتنسيق مع السلطة المركزية المغربيـــة وهكذا ، لقد سجل التاريخ أن المجاهد ماء العينين، وهو أبرز وجه لهذه المقاومـــة جاء إلى مدينة فاس العاصمة حينذاك ليجدد بيعة سكان الصحـــراء للســـلطان عبـــد

العزيز ويتسلم منه السلاح والذخيرة والزاد ثم يعود إلى إقليم الصحراء ليتابع على رأس قبائلها المتكتلة مقاومة الغزاة الاستعماريين الفرنسيين والإسبان.

وبعد وفاة المجاهد ماء العينين خلفه ابنه أحمد الهيبة الذي واصل المقاومة بالصحراء بل وساهم في الجهاد مع إخوانه بشمالها، ولاسيما في أحواز مدينة مراكش. واستمر يقاوم الجيش الفرنسي في المنطقة إلى أن وافاه الأجل في سنة 1919 بعد أن سلم مشعل الجهاد إلى أخيه الذي واصل المعركة إلى حدود 1934.

ومثل هذه المعارك الملحمية شملت، كما سبقنا أن قلنا، جميع مناطق باديتنا. فبالإضافة إلى الصحراء ، كما ذكرنا ، كانت نار المقاومة ملتهبة على الحدود المغربية الجزائرية لصد تسربات الجيش الفرنسي ، وعلى شاطئ المحيط الأطلسي ولاسيما بعد قصف مدينة الدار البيضاء سنة 1907 ونفس المقاومة كانت تجري في جبال الأطلس الكبير والمتوسط والصغير. ولا تزال ذاكرة شعبنا تحتفظ بملاحم مجيدة وقادة أبطال مثل موحى أوحمو الزياني وذكرى ملحمة الريف بقيادة البطل المغوار محمد بن عبد الكريم الخطابي ...الخ.

هذه الأمجاد لم تنبت من لاشيء مثل الفطر بل لها جذور مغروسة في التربة التي أخصبتها، أمجاد مماثلة سبقتها وتراكمت عبر قرون من النضال والمقاومة والاستشهاد. وهي ذاتها التي ورثتها وواصلت تقاليدها مرحلة الحركة الوطنية العصرية السياسية، ثم المسلحة التي توجت المسيرة الطويلة بإنجاز الاستقلال واسترجاع جل أجزاء ترابنا الوطني.

أجل ، إن المقاومة المسلحة الأولى التي لم تتوقف رسميا إلا سنة 1934 لم تحقق هدفها أي الحفاظ على الاستقلال ، وهذا شيء طبيعي ، تاريخيا وذلك لأسباب عديدة . إن العهد كان عهد زحف وامتداد الإمبريالية والكولونيالية، والمغرب كان يفتقر إلى حكم مركزي قوي ، بل كان هذا الحكم يعيش أزمة حادة كانت تنذر بقرب نهايته وأفله.

كانت المقاومة المسلحة ، حقا ، تشمل المغرب بأجمعه ، وكـــانت لـــها قيـــادات مقتدرة وبطلة. ولكنها كانت مقاومة فلاحين غير منسجمين طبقيا. كانوا ينـــاضلون لوحدهم في غياب قيادة مركزية توحدهم وتنسق فيما بينهم في نطــاق اســتراتيجية مدروسة ومحكمة. كان من المستحيل ، تاريخيا التغلب على هذه العوائق.

وهذا لا يعني أن سكان المدن كانوا في غيبة كاملة عن المقاومة التي كان يقــوم بها في وجه الدخيل الأجنبي سكان البوادي . كان المجتمع الحضري يتركب أساســا من أصحاب الحرف و"الطلبة" والفقهاء والمثقفين والتجار ... كان هـؤلاء يعــبرون عن استيائهم أمام عمليات الغزو التي كانت بلادهم عرضة لها، ويندددون بــهذه العمليات. لكن الإمكانيات التي كانوا يتوفرون عليها لم تكن في مســتوى غيرتــهم الوطنية . ومع ذلك ، إن ما كانوا يقومون به من نشاط فكري وإيديولوجي للدعـوة الوطنية ساعد ، بالتأكيد ، على تهيئ المدن على خلافة البادية لها لــم تبـق هـذه الأخيرة قادرة حينذاك ، على مواصلة مقاومتها المسلحة ، ولما توفــرت الظـروف الملائمة لذلك.

وهكذا بالضبط جرت الأمور. ففي مستهل الثلاثينات كانت المقاومـــة المســلحة تقترب من توقفها قسرا ، والجيوش الفرنسية كانت منتشرة في أغلـــب المنــاطق المغربية. فظن المستعمر، في غرور وعجرفة ، أن المجال قد أصبح معبدا أمامـــه لأن يبسط سيطرته المطلقة على المغرب بكامله . ولاسيما والمدن كانت تظهر لــــه "هادئة " إذن"عاجزة وغير خطيرة."...

نعم ، لقد استطاع أن يغصب استقلالنا ويمزق ترابنا الوطني ويهزم مقاومتنا فلـم يبق أمامه سوى شعبنا الذي توحده عقيدته الإســلامية وبيعتــه لســلطان البــلاد والشعور بأنه ينتمي لوطن واحد : المغرب ــ فوعى المســتعمر أن شــعبا توثــق وحدته مثل هذه الرموز يبقى دائما مؤهلا للنضال من أجل تحرره ، طال الزمــن أو قصر . وبما أن شعبنا هو من هذا النوع، ولقد أعطى للعدو برهان ذلــك ، فيجــب تكسيره وتفريقه عملا بالمقولة الشهيرة "فرق تسود."

فانطلاقا من خاصيات وعادات وتقاليد تجعل إقليم يتميز عن آخر ، كما هو الأمر في جميع المجتمعات بما فيها المنعوتة ب "الراقية" ومنها فرنسا نفسها ، ظهر للإدارة الفرنسية أن هذا كافي لجعل من الشعب المغربي الواحد ، شعبين اثنين . الأول الشعب العربي خاضع للشريعة الإسلامية ولسلطانه . والشعب البربري الذي يجب أن يبعد عنه الشريعة والقضاء وممثلي المخزن وتترك له "الحرية" في ممارسة تقاليده وأعرافه ويكون المراقب الفرنسي المدني والعسكري هو القائم مقام القاضي. فمن أجل كل هذا ، استنبط ما سمي فيما بعد ،"الظهير البربري" بتاريخ 16 ماي 1930 إلا أن ما حدث ، إثر ذلك ، لم يكن في حسبان العدو ولا في مخططات مفكريه . فبمجرد إعلان الظهير المشؤوم ، استيقظ الشعب ونهض كرجل واحد، لينطلق في حملة احتجاجية عارمة بشعار واحد بسيط في صياغته عميق في أبعاده: " اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير لا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر".!

وبالطبع ، واجهت السلطات الفرنسية هذه الاحتجاجات ، التي انطلقت أولا ، من المساجد قبل أن تكتسح الأزقة والشوارع ، واجهتها بالاضطهاد الهمجي فكانت الاعتقالات الجماعية والتعذيب والأحكام بالسجن وبالنفي....

لكن ، هذا القمع لم يزد حركة "اللطيف" إلا قوة وانتشارا. ففي حين كان المستعمر يتوخى من ظهير16 ماي تحكيم سيطرته على أمتنا ، فشعبنا رأى فيه على عكس ذلك ، الظرف المناسب ليجعل منه بداية نهاية نظام الحماية ذاته.

فعلا ، فمن حركة اللطيف، انطلق مسلسل تصاعدي ، تجلى في تسابق بين النضال وبين القمع. فكلما تصاعد مكر المستعمر إلا وتولد من ذلك تصعيد النضال ضد هذا المكر. فيجابه المستعمر هذا النضال بتشديد قمعه مما يزيد بدوره في ارتفاع مستوى الكفاح لمجابهة وقهر الاضطهاد ، وهكذا دواليك.

وكـــان مـــن نتائج هـــذا الصراع ، بين القمع والنضال وبين النضال والقـــمع أن ازدادت سرعة المسيرة التحـــررية إلى أن حقق شـــعبنا اســتقلاله واســترجع وحدته الترابية.

نعم ، ففي سياق مظاهرات اللطيف والمجابهات التي ترتبت عنها مع العـــدو خرج إلى الوجود أول تنظيم سياسي للحركة الوطنية تمثل في تكوين " كتلة العمـــل الوطني" ثم سرعان ما تبنت هذه الأخيرة أول برنامج في مرحلتين ، أولا "مطـــالب الشعب" في سنة 1934 ثم " المطالب المستعجلة " عام 1936 . وبعد انشـــطار كتلـــة العمل الوطني تكون أول حزب سياسي " الحزب الوطني " بزعامة علال الفاســـي وتأسست بجانبه، "الحركة القومية" برئاسة محمد حسن الوزاني.

أما الاتجاه والبرامج لكلا الحزبين فاستمرت محصورة على المطالب الإصلاحيـــة في نطاق نظام الحماية.

بقي الأمر على هذا المنهاج إلى أن وصل المطاف إلـــى بدايـــة ســـنة 1944 وكانت الأفق تنبئ بقرب نهاية الحرب العالمية الثانية بانتصار الحلفاء على المحـــور النازي ــ الفاشستي. كما كانت تبشر ببزوغ عهد جديد ، عـــهد تحـــرر الشـــعوب المستعمرة ومنها بالطبع شعبنا.

في هذه الظروف بالذات، تجرأ الحزب الوطني الذي كان قد تحول بالمناسبة إلـــى حزب الاستقلال بتقديم وثيقة 11 يناير 1944 للمطالبة ، لأول مرة في تاريخ حركتنـــا الوطنية العصرية بالاستقلال. وهذا كان يعنـــي القطيعـــة مـــع مرحلـــة المطالبـــة بالإصلاحات ، للدخول في عهد العمل الجدي والعنيد لتحقيق الاســـتقلال، كشـــرط مسبق لأي تغيير.

حدث هذا التحول الجذري الذي زاد في تطور مسار الحركة الوطنية تحت تـــأثير وعي جديد صار يتحلى به شعبنا بحكم تجربة نضال دام إحدى عشرة عاما . ووقـــع هذا التطور كذلك تحت وقع نتائج الحرب العالمية الثانية التي ساهم فيها شعبنا علـــى غرار الشعوب المستعمرة الأخرى ، بكثافة ونجاعة.

والحركة الوطنية المغربية عرفت كيف تستثمر هذه المساهمة لفائدة قضية وطننا وقد وجدت ، في هذا المضمار ، تجاوبا كاملا وفي منتهى الحماس عند شعبنا.

واستمرت الأمور ، نضال ، اضطهاد ثم نضال واضطهاد ، إلى أن وصل المطاف إلى حوادث دجنبر 1952 . وكان الجديد في هذه الحوادث ، بالإضافة إلى ارتفاع وعي شعبنا واشتداد روح نضاليته بكيفية يصعب تصورها اليوم، أنها سجلت تحولا تاريخيا جديدا في مسار الحركة الوطنية. ولقد تبلور هذا التحول في انتقال محور هذه الأخيرة من المدن التقليدية إلى المراكز العمالية ولاسيما إلى عاصمة البروليتارية : الدار البيضاء. فكانت مناسبة أظهرت دخول الطبقة العاملة بكل ثقلها وكطبقة اجتماعية طلائعية في معركة الاستقلال. فتوضح ، منذ البداية ، أن هذا التحول سيكون له التأثير الديناميكي الفعال على طابع الحركة الوطنية، وفيما بعد على المقاومة المسلحة ، مما سيضمن الفوز في تحقيق شعارها المركزي أي الاستقلال.

في هذا الصدد ، تفرض الموضوعية والنزاهة التاريخية، التذكير بالدور الذي قام به الحزب الشيوعي المغربي في تنظيم الطبقة العاملة في نقابات مستقلة " الاتحاد العام للنقابات الكنفدرالية بالمغرب" متحديا في ذلك القانون الذي كان يحرم على المغربي الحق النقابي.

شرع الحزب الشيوعي المغربي في هذا العمل منذ نشأته يوم 14 نونبر 1943 وزاد في تقوية هذا النشاط منذ أن تمغرب وصار حزبا عماليا وطنيا مغربيا بعد أن تبنى بيانه المطالب بالاستقلال في شهر غشت 1946.

ولقد اعتنى بتنظيم العمال المغاربة في أول نقابات عمالية عرفها مجتمعنا وداخلها تمرنوا على التنظيم المستقل وعلى النضال الطبقي والوطني المنظم والفاعل . ولقد ساعد كل هذا على تحضير طبقتنا العمالية على أن تقوم بالدور البطولي في حوادث دجنبر 1952 وأن تقوم، منذ ذلك الحين، بالدور الطلائعي للحركة الوطنية وللمقاومة المسلحة التي تولدت عنها.

واتسمت هذه المرحلة الجديدة بتفاقم الاضطهاد وبارتفاع مستوى النضـــال إلـــى درجة جعلت العدو يفقد رشده ورباطة جأشه . ففي هذا الظرف الجد محرج بالنسبة إليه ارتكب مؤامرته الدنيئة على العرش المغربي. فخلع ملك البلاد الشرعي محمـد الخامس مع عائلته، ثم أطلق عنان إرهابه ضد الحركة الوطنية وجمـــاهير الشـعب بالمدن أساسا ، ولكن كذلك بالبادية. لكن ، لم تكن نتيجة هذا الإرهاب سوى تجذيـر النضال وذلك ما تجلى في العودة إلى المقاومة المسلحة في المدن أولا وخصوصـا في الدار البيضاء ثم في جبال الشمال وفي الصحراء.

وبسرعة ، وصل الصراع إلى أسمى قمته. فتغيرت الأوضاع رأسا على عقـب وجاء الانتصار المبين بعودة محمد الخامس إلى بـــلاده وإلـــى عرشـــه، وإعـــلان الاستقلال. وفورا توحد الشمال بالجنوب ورفع النظام الدولي على طنجة الخ.

فلقد جاءت كل هذه الانتصارات في أعقاب مقاومة قبلتلنا طيلة قرون عديدة كمـا كانت تتويجا للمقاومة المسلحة المعاصرة التي انطلقت أواخر القرن التاسـع عشـر وبداية القرن العشرين. والتي لم تتوقف قهرا إلا في عام 1934، هذه المقاومة ذاتـها التي تواصلت بالنضال السياسي الذي انطلق في بداية الثلاثينـات وتـوج بالنضـال المسلح الفدائي.

هذا ، في رأيي ، هو أصل ومحطات الحركـــة الوطنيـــة المغربيـــة ، التـــي تواصل تقاليدها اليوم الكتلة الديمقراطية التي نتمنى لها كل التوفيق في الحفاظ علـى وحدتها وفي إنجاز مهامها.

الشيخ مربيه ربه العالم المجاهد

ماء العينين النعمة علي
بومزكو أحمد *

تقديـــــم :

يتناول هذا البحث موضوع الجهاد وهو ممارسة فكرية عملية كـــانت منبعـــا لمجموعة من الحركات التعبوية التي عرفها المغرب منذ القرن السادس عشر (1).

وقد طرح هذا المفهوم بحدة خلال القرن التاسع عشر وبداية القــرن العشـــرين مع تزايد الضغوط الأجنبية الأوربية .

وللإشارة فإن مصطلح الجهاد لم يعد فقط محاربة ومقاومة الأجنبي المتكـــالب على البلاد بل أصبح يحمل شحنة فكرية تنظيرية حماسية بالأساس.

ومن أجل الكشف عن حيثيات هذا المفهوم في مجال جغرافي محدد حصرنا مـــوضوع هـــذا الـــبحث فـــي جهاد الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين

* ـــ أستاذان باحثان من تيزنيت

(1879–1942) (2) ، الذي أولى اهتماما خاصا لهذا الموضوع ضمن إنتاجه الفكري والأدبي. ويبدو أن هذا الاهتمام أملته الصبغة الحادة التي كان يطرحها موضوع الجهاد في تلك الظرفية التي تمر بها المقاومة المسلحة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي وكذا ما وفره له جهاده من خبرة وحنكة وتجربة.

السياق التاريخي لجهاد الشيخ مربيه ربه (1912–1931) :

أدى تزايد التهافت الاستعماري على منطقة سوس إلى اشتداد الحمية الجهادية لدى القبائل السوسية وفي هذا الإطار تمثل حركة الشيخ أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين(1876–1919) مناسبة للتعبئة العامة بمنطقة الجنوب المغربي (3) ومن باب حرصه ، على إشراك جميع القبائل في تأسيس جيش للمجاهدين ليتجه به نحو مراكش فقد أسهم في توثيق روابط التضامن بين هذه القبائل باسم الجهاد ضد الاحتلال الأجنبي وفوق الاعتبارات القبلية الضيقة (4).

وبالرغم من التراجع الواضح الذي أبدته القبائل السوسية في مواجهة الضغط الفرنسي الغير مباشر خاصة بعد نكسة "سيدي بوعثمان "1912"(5) التي كانت ضربة قاسية لقدرات القبائل الحربية فإنها ظلت على تأييدها للشيخ أحمد الهيبة ولازالت تعيش على صدى تحركات أنصاره(6).

وفي سياق هذه الحمية الجهادية يمثل الشيخ مربيه ربه أحد الوجوه البارزة في حركة أخيه الشيخ أحمد الهيبة فقد كان خليفته ونائبه المفوض له في أمره وعضده الأيمن المرافق له في تنقلاته وتحركاته والمحرك الرئيسي لمختلف عملياته ومعاركه العسكرية الحربية لما كان يتصف به من شجاعة وجرأة وإقدام .

وقد استطاع في خضم هذه الظروف أن يجمع بعض القبائل التي لازالت تساند الشيخ أحمد الهيبة " آيت باعمران إيداو بعقيل ماسة " لإخضاع مدينة " تزنيت " التي كانت تآزرها وتساندها قبائل " أكلو الأخصاص، السيحل " وهكذا تمت محاصرة البلدة لمدة شهرين (7) كما قطعت المؤونة عن قائدها محمد بن دحان

من طرف القائدين يرعى السباعي والناجم الخصـــاصي -(8) إلا أن مسلســل هـذا الحصار انتهى بتراجع أنصاره في وقعة " تيغانيمين" .

بعد وفاة الشيخ أحمد الهيبة سنة 1919م قام مقامه الشيخ مربيه ربه في تعبئــة القبائل بعد إجماع علماء وقواد سوس على تعيينه رئيسا للمجاهدين (9) ونظرا لشــدة الضغط الفرنسي على المقاومين من خلال حملة الجنرال " دولاموط " على " ويجان وإسك " سنة 1917م(10) ثم محاولات الطبيب الكنتــافي إخــتراق مســالك الأطلــس الصغير إنطلاقا من "آيت واد ريم"(11) فقد أسرعت القبائل السهلية إلـــى اســتعطاف الأجانب والاستسلام لحامياتها العسكرية ، بينما لازالت المناطق الجبلية تتحكم فيـــها القبائل الموالية للشيخ مربيه ربه، ولم تكن سلطات الاحتلال تبحث عـــن خضـــوع اسمي لهذه المناطق وإنما كانت ترغب في الاستحواذ الفعلي عليها ، وهذا ما دفعـها إلى استعمال مختلف الوسائل لتحقيق مسعاها، بما في ذلك تكثيف العمليات الحربيـــة وإنشاء مراكز عسكرية للمراقبة وتجميع المعلومات " بونعمان ، مـــيرغت، ويجـــان آقا ، إيغرم "(12). وأمام هذه الأحداث ظل الشيخ مربيه ربه يقاوم ويجاهد ويشـــرف بنفسه على العمليات العسكرية وكثف من تنقلاته بين قبائل الأطلس الصغير التـــي دعمتها قبائل آيت خباش وآيت حمـــر بالرجـــال والعتـــاد إلا أن رد فعـــل القبـــائل المجاهدة عامة لم يكن موحدا وكان يفتقد إلى التنسيق والتنظيم (13).

وبعد اشتداد الحملات العسكرية الفرنسية التي قادها الجنرال "كـــاترو Katroux" حاكم المنطقة الجنوبية(14) استسلمت جميع القبائل السوسية ســـنة 1934م واضطـــر الشيخ مربيه ربه إلى مغادرة " كرودس "(15) متجـــها نحـــو طرفايـــة بـــالصحراء المغربية ليستقر بها . وهذا الاستقرار لا يعني نهاية حركته الجهادية ، بل واصـــل جهاده ومقاومته ولكن في شكل جديد يتماشى مع التغيرات التي شهدتها البلاد بعـــد نهاية العمل المسلح وظهور العمل السياسي. وقد كان على اتصـــال دائـــم بالخليفـــة السلطاني مولاي الحسن بلمهدي الذي التقى به في مدينة تطوان خلال زيارته لـــها وهو في طريقه لأداء فريضة الحج ، وبمختلف زعماء الحركة الوطنية في الشـــمال

"عبدالخالق الطريس ، عبد السلام بنونة، علال الفاسي، المكي الناصري، معنينو السلاوي أحمد ، عبد السلام بن المقدم الحاج التمسماني".

توفي رحمه الله سنة "1361هـ / 1942م" ودفن بقرية " تافودارت " التي تقع شرق مدينة العيون.

إنتاجه الفكري والأدبي :

كان الشيخ مربيه ربه جهبذة من جهابذة الفكر والعلم والأدب فهو شاعر وكاتب وناثر وعالم ومصنف في علوم شتى. خلف أعمالا أدبية تصل إلى مائة وعشرين كتابا في الفقه والتصوف والطب والرحلات والنحو والبلاغة والتوحيد والأسرار والتاريخ ، ضاع بعضها ولا يزال البعض منها مخطوطا في بعض الخزانات (16) نذكر منها :

في التصوف :

ــ إغاثة اللهفان . ــ تيجان المحامد وزينة كل حامد. ــ جامع الحمد. ــ حمد الأيام السبعة. ــ خواص الأوفاق لنيل مقام الأخلاق . ــ خواص أسماء الله الحسنى. ــ دعوة الفاتحة في الحمد بالفاتحة. ــ دعوة الإجابة من معطي الإجابة. ــ ربيع الأسرار في سر الأسرار. ــ عدة الفئين في أسرار وفق المئين . ــ فيض المجيد ودوام المزيد . ــ قرة العينين في كرامات شيخنا الشيخ ماء العينين. - كتاب الحمد . ــ المتربع في أسرار المربع. ــ الأدعية القدسية بأسماء الله الإدريسية . ــ الفيضان فيما اختص به رمضان. ــ القربان فيما اختص به شعبان. ــ الفرائض المجتمعة في الأوراد بالجمعة. ــ مفيض الإعانة.
ــ منيل فضل الله ونعمته في الحمد لكل اسم على حدته. ــ محامد الوارد الصادر.
ــ مغناطيس النعم. ــ محمد اللسان والفكر فيما يتعلق بالحمد والشكر. ــ واهب الزيادة الأسنى في أسماء الله الحسنى. ــ حمد ليس فيه حرف إلا من حروف الحمد. ــ واهب المعالي.

فــي الفقــــــــه :

ــ أخلاق النساء. ــ إظهار المكنون في كشف الظنون. ــ الترغيب في بعض مــا أعده الله للمجاهدين في سبيل الله. ــ تسلية المؤمنين فــي عــدم قبــول المنــافقين والكافرين. ــ خطبه في الحث على الجهاد . ــ دعامة المتيمم أكل متيمم. ــ دافعة الباطل الذابة عن تحريف أوصاف الذابة. ــ الرضـــاب فــي بعــض مــا يتعلــق بالخضاب. ــ صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفـــار. ــ صــادق الفجر في الكلام على ركعتي الفجر. ــ فصوص الحكم. ــ فكاهة الصباح والمســاء في نعوت أوصاف النساء. ــ فريضة الجهاد في هذا الزمن على العبـــاد. ــ لبانــة المجاهدين وبغية الطالبين. ــ الفرائض القرآنية في التركة الإســـلامية. ــ منطقــة العزائم. ــ محمدى السكينة في الاعتدال والطمأنينة. ــ موافق ذي الحجـــة فيمــا يفعل في الحجة. ــ نشر فلاح الدارين في الكلام على بر الوالدين.

فــي التاريـــــــخ :

ــ جولات في سوس أعاذنا الله من كل بؤس. ــ الترجمـــان العـــام. ــ العســل المصفى في عدد من استشهد زمن المصطفى. ــ وجه الحــق الصحيــح فــي أن إسماعيل هو الذبيح.

فــي الطـــــــب :

ــ ترياق الأبدان في تدبير الأسنان . ــ كتاب السل. ــ نفع الوبري والمدري فــي الكلام على الجدري.

فــي الفلـــــك :

ــ الكلام على انقضاض النجوم.

فــي الرحـــــلات :

ــ رحلة الشيخ ماء العينين . ــ رحلة الشيخ مربيه ربه.

فــي الأحزاب والشرح والدعوات :

ــ حزب السير والسلامة في الدين والدنيا والقيامة.

ـ حزب يتوسل فيه بما في القرآن من لفظة رب. ـ حزب سعادة الدارين والكفاية من الهمين. ـ حزب العافية والكمال محمود الحال والمال. ـ حزب إلهام المؤمن من فضل السلام المؤمن. ـ حزب الغنى وكهف العناية الأسنى في أسماء الله الحسنى. ـ حزب النصر والحمد والشكر. ـ حزب السعادتين . ـ حزب ليس فيه حرف إلا من حروف "وإن يردك بخير فلا راد لفضله". ـ حزب ليس فيه حرف إلا من حروف الحمد لله حمدا يوافي نعمه و يكافيء مزيده. ـ حزب اعملوا آل داود شكرا. ـ الدعوات النثرية والأحزاب الشكرية. ـ دعوة ولئن شكرتم لأزيدنكم. ـ شرح آية وأما بنعمة ربك فحدث.

وله ديوان شعري في مختلف الأغراض الشعرية من مدح وغزل ووصف ورثاء وتضرعات إلاهية ومحامد ربانية إلى غير ذلك وقد جمعه وبوبه الشاعر والأديب ماء العينين بن العتيق في مؤلف سماه " بحور البدائع المحتوية على درر الأشعار المصطفوية " ويتضمن مقدمة وثمانية أبواب :

ـ المقدمة : في مدحح الشعر وما قيل فيه .

ـ الباب الأول : في المحامد والثناء على الله.

ـ الباب الثاني : في أمداحه النبوية.

ـ الباب الثالث : في مدحه لوالده الشيخ ماء العينين.

ـ الباب الرابع : في محاوراته لإخوته.

ـ الباب الخامس : في مخاطبته لمعاصريه.

ـ الباب السادس : في الغزل والنسيب.

ـ الباب السابع : في أقواله المختلفة في القواعد والحكم وغيرها.

ـ الباب الثامن : في التضرع إلى الله.

ـ الخاتمة : في قصائد الذين مدحوه من الشعراء.

ويلاحظ أن الاهتمام الذي أبداه هذا الشيخ لعملية الجهاد كمعطى فاعل في تلك الظرفية ، جعلت أفكاره في هذا السياق متميزة وتعتبر مدخلا لفهم الإطار

النظري العام الذي يؤطر حركته الجهادية وللإقتراب أكثر من هذا المعطى سنقدم صورة مختصرة عن بعض كتاباته حول الجهاد، وذلك بالشكل الذي يسمح لنا الإلمام بأبعاد الكتابة في موضوع الجهاد كنوع من المجاهدة والمقاومة بالفكر والقلم وهذه الكتب هي :

1 ـ " لبانة المجاهدين وبغية الطالبين " .

2 ـ " الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله " .

3 ـ " صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار".

وصـف الكتـب :

1 ـ " لبانة المجاهدين وبغية الطالبين "

ـ يقع الكتاب في ثلاثين ورقة من الحجم المتوسط ، خط مغربي واضح مقروء بخزانة الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه. تاريخ الكتابة ضحوة الثلاثاء الحادي عشر من رجب الفرد عام واحد وأربعين بعد ثلاثمائة وألف (1341هـ/1922م). ويشتمل على مقدمة وأربعة فصول :

* المقدمة : يبين فيها أسباب تأليف الكتاب وتسميته فيقول : " يقول عبيد ربه محمد مصطفى مربيه ربه أناله الله بشكره ما يحب بن شيخه الشيخ محمد فاضل بن مامين غفر الله لهم وللمسلمين : الحمد لله الذي فضل الجهاد وجعله حرفة أفضل العباد فدل على أنه أفضل الأعمال حيث اختاره الله لخيرته من الرجال عليه الصلاة والسلام وعلى آله وأصحابه الكرام.

أما بعد : فمن أجل ما يتنافس فيه المتنافسون الجهاد في سبيل الله ولمثل هذا فليعمل العاملون ولقد عن لي غفر الله لي قولي وعملي أن أجمع فيه نصوصا عموما وخصوصا واقتصرت فيها على بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وحذفت إسنادها ترغيبا لمن أرادها كي تسهل مناولتها وتتيسر مداولتها وسميتها "لبانة المجاهدين وبغية الطالبين" تذكرة لي وترغيبا للمومنين " وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين"(18) جعلها الله بفضله العميم خالصة لوجه الكريم(19)..

• الفصل الأول : يتحدث فيه عن الجهاد الذي يعتبره " في هذا الزمن فرض عين وحق على كل مسلم أن يجعله نصب العين ولو كانت عينيته لا تحتاج إلى تبيين لفجإ العدو وجميع بلاد المسلمين "(20) حتى أنه " يتعين على كل واحد وإن لم يكن من أهل الجهاد "(21) وعلى الإمام أن يقوم بتعيين " طائفة تخرج للقتال ولا يسعها أن تخالف سواء كانت ممن تلي العدو أم كانت ممن تخاطب بفرض الجهاد "(22).

• الفصل الثاني : يتحدث فيه عن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام التي تعتبر هي بدورها " فريضة إلى يوم القيامة "(23) ويستدل على ذلك بآيات قرآنية وأحاديث نبوية كقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً"(24) ويشير إلى أن ظالمي أنفسهم في هذه الآية : "هم التاركون للهجرة مع القدرة عليها "(25) وكقول الرسول "ص" لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها "(26)، ويبين في ختام هذا الفصل بأن " الخوف على المال والأهل لا يبيح ترك الهجرة ومن رضي بالمقام مع الكافرين فهو مارق من الدين منخرط في سلك الملحدين ومن هاجر عنهم وحصل له ندم لضيق معاش أو عدم انتعاش فلا رخصة له في الرجوع ولا عذر(...) فلم يبق إلا اغتنام جهادهم والهجرة من بلادهم نصرة لدين الله ورسوله وامتثالا لأمره "(27).

• الفصل الثالث : يستعرض فيه بعض الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تحث على الجهاد وترغب فيه.

• الفصل الرابع : خصصه لشرح ثلاثة آيات قرآنية هي :

ـ الأولى : قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَتَّخِذُوا آبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ "(28) فالله تبارك وتعالى وكما يقول ابن عباس يريد في هذه الآية " مشركا مثلهم لأنه رضي بشركهم والرضى بالكفر كفر كما أن الرضى بالفسق فسق "(29).

ــ الثانية : قوله تعالى : " قل إن كـــان آبـــاؤكم وأبنـــاؤكم وإخوانكـــم وأزواجكـــم وعشيرتكم وأموال إقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القـــوم الفاسقين "(30). فالله تبارك وتعالى يبين في هذه الآية " أنه يجب تحمل جميـــع هـــذه المضار الدنيوية ليبقى الدين سليما "(31). أما إذا " كـــانت رعايـــة هـــذه المصـــالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة رسوله ومن المجاهدة في سبيل الله فـــتربصوا بمـــا تحبون حتى يأتي الله بأمره أي بعقوبة عاجلة أو آجلة والمقصود منه الوعيـــد "(32) ثم قال : " والله لا يهدي القوم الفاسقين " أي الخارجين عن طاعته إلـــى معصيتـــه وهذا أيضا تهديد "(33) وعموما فالآية " تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحـــة واحدة من مصالح الدين وبين جميع مهمات الدنيا وجب على المسلم ترجيح الديـــن على الدنيا "(34) لذلك يجب " الإعراض عن مخالطة الآبـــاء والأبنـــاء والإخـــوان والعشائر وعن الأموال والتجارات والمساكن رعاية لمصالح الدين ولمـــا علـــم الله تعالى أن هذا يشق جدا على النفوس والقلوب ذكر ما يدل على أن من ترك الدنيـــا لأجل الدين فإنه يوصله إلى مطلوبه من الدنيا ــ وذلك يدل على أن الإنسان متـــى اعتمد على الدنيا فاته الدين والدنيا ومتى أطاع الله ورجح الدين على الدنيا أتـــاه الله الدين والدنيا على أحسن الوجوه "(35).

ــ الثالثة : قوله تعالى " لاتجد قوما يؤمنون بالله والـــيوم الآخر يوادون من حـــاد الله ورسوله ولو كانوا أباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وايدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي اللـــه عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون "(36) فهذه الآيـــة تبين " أن المؤمنين المتصلبين في الدين لا يوالون هؤلاء الأقربـــاء بعـــد أن كـــانوا محادين لله ورسوله فكيف بغيرهم فإن قضية الإيمان أن يهجر الجميع بالكلية بـــل أن يقتلهم ويقصدهم بالسوء "(37) ويستشهد على ذلك بأسماء بعض الصحابة رضـــوان الله عليهم الذين قتلوا آباءهم أو أقرباءهم نصرة لدين الله. فقد " روي أن أبا عبيـــدة

قتل أباه الجراح يوم بدر وأن أبا قحافة قبل أن يسلم سب النبي عليه السلام فصكه أبو بكر رضي الله عنه صكة سقط منها وأنه أيضا رضي الله عنه دعا ابنه عبد الرحمان إلى البراز يوم بدر فأمره عليه السلام أن يقعد قال : يا رسول الله : دعني أكن في الرعلة الأولى وهي القطعة من الفرسان فقال عليه السلام : متعنا بنفسك يا أبا بكر. وأن مصعبا رضي الله عنه قتل أخاه عبيد بن عمير بأحد وأن عمر رضي الله قتل خاله العاصي بن هشام بن المغيرة يوم بدر وأن عليا وحمزة وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم قتلوا يوم بدر عتبة وشيبة ابن أبي ربيعة والوليد بن عتبة وكانوا من عشيرتهم وقرابتهم "(38).

2) ـ "الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله

ـ يقع الكتاب في سبعين ورقة من الحجم المتوسط . خط مغربي واضح مقروء بخزانة الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه ، تاريخ الكتاب صحوة الأربعاء المكمل عشرين من ذي الحجة عام اثنين وأربعين بعد ثلاثمائة وألف(1342هـ/1923م). يشتمل على مقدمة وثلاثة فصول :

* المقدمة : يبين فيها أسباب تأليف الكتاب وتسميته فيقول : يقول عبيد ربه محمد مصطفى بن شيخه الشيخ ماء العينين بن شيخه محمد فاضل بن مامين غفر الله لهم وللمسلمين آمين : الحمد لله القائل :" وفضل الله المجاهدين على القاعدين "(39) والصلاة والسلام على من قال : " السيوف أردية المجاهدين "(40) وقال : نضر الله امرء أسمع منا شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع "(41) نسأل الله تعالى أن يكسونا من تلك النضارة أحسنها وأبهجها وأسرها في الأفراد والمجامع أما بعد : فهذه أحاديث جمعتها تسر الناظر والسامع رتبتها على حروف المعجم(...) لخصتها بجد واجتهاد ترغيبا في الهجرة والجهاد ولأجل ذلك وأخذ تلك المسالك سميتها " الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله" جعلنا الله من أعلاهم ومن بالله وبما عنده أولاهم "(42).

* الفصل الأول : خصصه لشرح الآية القرآنية الكريمة التالية وهي : " وَأَعِدُّوا لَـهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْـلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِـنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُـمْ وَأَنْتُـمْ لاَتُظْلَمُونَ "(43) التي تدل على أن " الاستعداد للجهاد بالنبل والسلاح وتعليم الفروسية والرمي فريضة إلا أنه من فروض الكفايات (...) أما في زماننا هذا الذي هو عـام اثنين وأربعين من القرن الرابع عشر فلاشك أنـه فـرض عيـن بسـبب احتـلال النصارى الصليبيين قاتلهم الله بلاد المسلمين "(44) فذكر أولا أسباب نزولها وتتجلـى في أن " أصحاب النبي "ص" في قصة بدر لما قصدوا الكفار بلا آلة ولا عدة أمرهـم الله أو لا يعودوا لمثله وأن يعدوا للكفار ما يمكنهم من آلة وعدة وقوة "(45) ثم بـدأ في شرح مقاطعها ، فبين أن المراد بالقوة هو " ما يكون سببا لحصولها وذكروا فيـه وجوها:

الأول : المراد بالقوة السلاح .

الثاني : روي أنه " صلى الله عليه وسلم " قرأ هذه الآية على المنـبر وقـال ألا إن القوة الرمي قالها ثلاثا.

الثالث: قال بعضهم القوة هي الحصون .

الرابع: قال أصحاب المعاني الأولى أن يقال هذا عام في كل ما يتقوى بـه علـى حرب العدو وكل ما هو آية للغزو والجهاد فهو من جملة القوة (46).

ثم ينتقل للحديث عن العدة والعتاد من خلال قوله تعالى " وأعـدوا لـهم " أي لقتال الكفار، وهيئوا لحربهم ما استطعتموه من قوة (...) ومن كل ما يتقوى به فـي الحرب كائنا ما كان من خيل وسلاح وقسي وغيرها "(47). وعـن فضيلـة الرمـي ويعتبره من أحسن " ما يتقوى به في الحرب" (48) ويستدل على ذلك بأحاديث نبويـة كقول الرسول"ص" من شاب شيبة في الإسلام كانت له نورا يوم القيامة ومن رمـى بسهم في سبيل الله فبلغ العدو أو لم يبلغ كان له كعتق رقبة مومنة. كانت لـه فـداء من النار عضوا بعضو "(49). بعد ذلك يتحدث عن الخيل من خـلال قولـه تعـالى

"رباط الخيل ويعتبرها من " أقوى آلات الجهاد "(50) ويبين الاختلافات الموجودة حول هذا المقطع فالبعض يرى أن "رباط الخيل الإناث وفسر الإناث لأنها أولى ما يربط "(51) والبعض الآخر يرى أن هذا اللفظ يدل " على الفحول لأن المقصود من رباط الخيل المحاربة عليها ولاشك أن الفحول أقوى على الكر والفر والعدو"(52) ولكي ينتفي هذا التعارض يشير إلى انه يجب " حمل اللفظ على مفهومه الأصلي وهو كونه خيلا مربوطا سواء كان من الفحول أو الإناث "(53).

ويقول أن الله تبارك وتعالى " لما أمر بإعداد هذه الأشياء قال جل من قال قائل " ترهبون به عدو الله وعدوكم " وذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له مستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم والمراد أن تكثر آلات الجهاد وأدواتها "(55)و"كما يرهب الأعداء الذين نعلم(56) كذلك يرهب العداء الذين لا نعلم كاليهود والمنافقين "(57) ثم " قال تعالى : " وما تنفقوا من شيء في سبيل الله " وهو عام في الجهاد وفي سائر وجوه الخيرات" يوف إليكم" أي لايضيع في الآخرة أجره ويجعل الله عوضه في الدنيا " وأنتم لا تظلمون" أي لا تنقصون من الثواب "(58).

* الفصل الثاني : خصصه لذكر الأحاديث الشريفة المتعلقة بالجهاد ورتبها كما أشار في المقدمة على حروف المعجم وعددها ثلاثمائة حديث(300).

* الفصل الثالث: يتحدث فيه عن فضيلة الجهاد وأهميته فيقول : " واعلم أن الجهاد من أفاضل المكاسب وأماثل الحرف فلا ينبغي للعاقل أن يتركه أو يترك التحدث به فإن من مات ولم يغزو ولم يحدث به نفسه فقد مات ميتة جاهلية، ومعنى التحدث طلب الغزو وإخطاره بالبال "(59) ويختم هذا الفصل بالآية القرآنية الكريمة وهي قوله تعالى: " خذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا "(60) التي تبين أن هذا " وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد الأمر بالحزم ليقوي قلوبهم وليعلموا أن الأمر بالحزم ليس لضعفهم وغلبة عدوهم بل لأن الواجب أن يحافظوا في الأمور على مراسم التيقظ والتدبر فيتوكلوا على الله "(61).

3) ـ "صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار"

ـ يقع الكتاب في ثلاثين ورقة من الحجم الكبير. خط مغربـــــي واضـــح مقـــروء بخزانة الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربــــه ـ تــاريخ الكتابـــة ضحـــوة الأربعاء العاشر من ربيع النبوي عام ستة وأربعين بعـــــــــد ثلاثمائة وألـــــف (1346هـ/1927م). يشتمل على مقدمة وثلاثة فصول :

* المقدمة : يشرح فيها أسباب تأليف الكتاب وتسميته فيقول : " يقــول عبيــد ربــه محمد مصطفى مربيه ربه أناله الله بشكره ما يحب شيخه الشيخ ماء العينيــن غفــر الله لهما وللمسلمين آمين الحمد لله القائل: " الحمد لله رب العالمين "(62) والقائل جل من قائل " إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَــولَّى الصَّالِحِينَ "(63) والصــــلاة والسلام على النبي القدسي القائل حاكيا عن ربه في الحديـــث القدســـي :لاتدخلــوا مداخل أعدائي ولا تلبسوا ملابس أعدائي ولا تركبوا مراكب أعدائي ولا تطعمــــوا مطاعم أعدائي فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي "(64) أما بعد : فقد سألني من ســـأله بعض المسافرين أن يظهر له ما حرمت به الإقامة مع الكـــافرين فأجبتــه بـــالقرآن والحديث والدليل ولو كان النهار لا يحتاج إلى دليل وسميته " صولة الكـــار وملجــأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار" والله أسأله الـــكريم أن يجعله خالصــــا لوجهــه الكريم وأن يجعلنا من أوليائه الذين لا يخافون عليهم ولا هم يحزنـــون المحفوظيــن الوارثين لأنبيائه المعصومين راجين منه أن يجعل فينا منافع المسلمين وأن يحفظنــا من بأس المسلمين والكافرين "(65).

* الفصل الأول : يدعو فيه إلى التحفظ من الكـــافرين وأعــداء المســلمين وعـــدم مخالطتهم أو الإقامة معهم " أبد الآبدين وقد حذر الله من ذلك في القـــرآن الكريـــم وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم "(66). ويســــتدل ببعــض الآيـــات القرآنيــة والأحاديث النبوية التي تؤكد ذلك كقوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَــتَّــخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّـــهُمْ مِنكُـــمْ فَإِنَّهُ مِنْـــهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي اَلْــقَوْمَ الظَّالِمِينَ "(67) ويشير إلى أن هذه الآية "ما أبقت متعلقا إلـــى

التطرق لهذا التحريم "(68) فهي نص صريح في تحريم موالاة الكافرين. وقوله تعالى : " ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزؤا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مومنين "(69). وقوله تعالى : " ياأيها الذين آمنوا ل اتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون "(70). فتكرار هذه الآيات في هذا المعنى وجريها على نسق واحد مؤكد للتحريم ورافع للاحتمال المتطرق إليه فإن المعنى إذا نص عليه وأكد بالتكرار فقد ارتفع الاحتمال لاشك (71). وكقول الرسول "ص" أنا بريء من كل مسلم مقيم بين أظهر المشركين قالوا : يا رسول الله لم قال لا تتراءى ناراهما "(72) وقوله "ص" : " لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم فمن ساكنهم أو جامعهم فهو منهم "(73) وقوله "ص" :" لا ترافقوهم في الأسفار ولا تساكنوهم في الأمصار واضربوا بينكم وبينهم بسور البعاد "(74). كما يستدل بأقوال بعض الأئمة والعلماء في تحريم الإقامة مع الكفار والمشركين وجميع أعداء المسلمين .

ويختم هذا الفصل مشيرا إلى أن هذه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والاجماعات القطعية صريحة وواضحة في تحريم الموالاة الكفرانية ولا تجد في تحريمها " مخالفا من أهل القبلة المتمسكين بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. فهو تحريم مقطوع به من الدين كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل النفس بغير حق وأخواته من الكليات الخمس التي أطبق أرباب الملل و الأديان على تحريمها ومن خالف الآن في ذلك أو رام الخلاف من المقيمين معهم الراكنين إليهم فجوز هذه الإقامة واستخف أمرها واستسهل حكمها فهو مارق من الدين مفارق لجماعة المسلمين ومحجوج بما لامدفع فيه لمسلم ومسبوق بالإجماع الذي لا سبيل إلى مخالفته وخرق سبيله "(75).

* الفصل الثاني : يذكر فيه الأسباب التي تصير بها دار الإسلام دار حرب ويورد اختلاف العلماء والأئمة في ذلك، فمالك مثلا يرى أنه " بظهور أحكام الكفر في بلدة تصير دار حرب "(76) وهو مذهب الشافعي وأحمد، وقال أبو حنيفة " لو ارتد أهل بلد لم تصر دارهم دار حرب حتى تجتمع فيها ثلاثة أشياء : ظهور أحكام الكفر وأن لا يبقى فيها مسلم ولا ذمي بالأمان الأصلي وأن تكون متاخمة لدار الحرب واتفقوا على أنه تغنم أموالهم "(77).

* الفصل الثالث : يتحدث فيه عن الذين يخالطون الأعداء ويتعاملون معهم ويعيشون تحت ولايتهم ويحذر منهم ، ويستدل على ذلك بالآية القرآنية التالية وهي قوله تعالى : لاَ يَتَّخِذِ اَلْمُومِنُونَ الكافرين أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اَلْمُومِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ اَلْمَصِيرُ"(78) فهذه الآية تشير إلى أن المومنين نهوا عن موالاة الكافرين " لقرابة أو صداقة وعن الاستعانة بهم لأن المومنين هم الأحقاء بالموالاة وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة، ومن يتخذ الكافرين أولياء فليس من ولاية الله في شيء يصح أن يسمى ولاية فتتأكد مجانبة أعداء الله ومباعدتهم و التحرز عن مخالطتهم ومعاشرتهم والمومن أولى بموالاة المومن فإذا والى الكافر دل على تداعي ضعف إيمانه فزجر الشارع عن مخالطته بهذا التغليظ العظيم حسما لمادة الفساد "(79). يختم هذا الفصل بنص اقتبسه من كتاب "بغية المساعد في أحكام المجاهد " يتعلق بالجهاد وفيه ما يكفي ويشفي في بعض نصائحه زاجرا عن الإصغاء لهم أو الاستماع لآرائهم وأفكارهم. يقول : " فاحذروا أيها المسلمون تغرير أولئك المتسمين بسمة الإسلام وليسوا منه في شيء احذروا أن تسمعوا لهدرهم وخرفهم احذروا ماينفثونه من سمومهم احذروا دعوتهم إلى الاستسلام للعدو والخضوع له فإنهم منافقون يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون خضعوا للعدو وباعوا دينهم بدنياهم وصاروا من أعوانهم يقودونهم ليمكنوهم من أراضي إخوانهم أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين فعليهم لعنة الله

والملائكة والناس أجمعين يسعون لهم في تمهيد البلاد وتملك رقاب العباد ليتركوا قتالهم وتكون كلمتهم العليا ومعاذ الله. إن القوم الذين يعاضدون الكفار على المؤمنين ويقاتلونهم لاشك في كفرهم وارتدادهم والعياذ بالله تعالى من قوم يعملون على إذلال الإسلام وأهله وإعزاز الكفر وأهله وأي كفر أكبر من هذا وإن لم يكن هؤلاء مرتدين فمن هم المرتدون؟ "(80).

قراءة في أفكار الشيخ مربيه ربه الجهادية

إن تأليفه في هذا الموضوع يشكل محاولة لإضفاء الطابع الشرعي على مساره الجهادي.ومما يزيد من قيمة ما كتبه هو أنه طرح الجهاد في ظرفية دقيقة عرفت فيها المنطقة تفرقا قبليا وضغطا استعماريا كبيرا كأنه يحاول البحث عن سبب الداء الكامن في التراجع الواضح للقدرات الحربية للقبائل ، فوجده في عدم الالتزام بقاعدة الجهاد وركونها إلى التفرقة والاختلاف.

يعتمد في مفهومه للجهاد على طريقة الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الفقهاء والأئمة والعلماء حتى يعطي لكتاباته صبغة شرعية دينية. وقد تناول ذلك بمضامين جديدة لكي يستوعب الظرفية التاريخية التي تبلور فيها.

الجهاد في نظره"حرفة أفضل العباد "(81).و" أفضلا الأعمال"(82). التي دعا إليها الإسلام وينطبق على كل الأعمال التي تتم في سبيل الله بما فيها بذل الجهد في الحرب أو السلم . ومن خلال فحصنا لما كتبه هذا الشيخ عن الجهاد يتبين أنه يراد به ما يلي :

ــ نوع من الوازع الديني الضروري للدفاع عن دار الإسلام. ــ نوع من الحرب المقدسة ضد أهل الشرك والعدو المتكالب على البلاد. ــ محاربة ومقاطعة العدو والتحرز منه. ــ مرادف للقتال. ــ مقياس لصدق إيمان المسلم.

ما يستوقفنا في هذا التعريف هو إلحاحه وتأكيده على ضرورة التمسك بالجهاد كواجب على كل مسلم خاصة في تلك الظرفية الدقيقة التي كانت تمر بها المقاومة

المسلحة الوطنية. يقول : " إن الجهاد في هــذا الزمن فرض عين وحق على كـــل مسلم أن يجعله نصب العين ولو كانت عينيته لا تحتاج إلى تبيين "(83) وليس الجـهاد عنده شعارا يلوح به وإنما هــو ممارسة عملية فعلية حققها وجسدها علـــى أرض الواقع مــن خلال جهاده ومقاومته للمستعمر الفرنسي وهــذا ما جعله ينبـــه إلـــى حالات التقاعس والتغاضي عنه مبينا ما يترتب عن ذلـك مـــن مخـاطر علـــى جماعة المسلمين. بالإضافة إلى هــذا يدعو إلى محاربة العنـاصر التـي تصـول وتجول في بلاد الكفر خاصة بعد تـزايد ظاهرة الاختلاط بيــن المسـلمين وغـير المسلمين ، وهــو هنا يعلن بوضوح مخالفته ومعارضته لجميع أشكال التعاون مـع العدو الأجنبي ومخالطته أو التعامل معه. وفي هــذا الصدد يشيد بالمجاهدين مـــن المسلمين الذين أبانوا عــن وعي جهادي مــن خـــلال رفضـهم مسـالمة العـدو واستماتتهم في الدفاع عن بلادهم (84).

إجمالا فالجهاد عند الشيخ ليس تكرارا لما بلـوره فقـهاء وعلمـاء الإسـلام السابقين ولكنه صدى للوضعية التي انتهى إليها المسلمون في بداية هذا القرن حيـث ازداد التمسك بتلك الروح الجهادية بازدياد الضغط الأجنبي . وقد حـاول اسـتجلاء طبيعة العلاقة التي تربط بين الجهاد كمعطى ضروري لتعميـــق تقـاليد وطـرق المقاومة وبين الغلبة والقوة التي يكتسبها المسلمون من ذلك(85).

أركان ومقومات الجهـاد : إن الجهاد من حيث كونه حرب مقدسة لابـد لـه مـن ركنين أساسيين لتهيىء المجاهدين حتى يكونوا في مستوى مجاهدة ومقاومة العـدو الكافر وهما :

1) ـــ القوة المعنوية : وهي : الإيمان الكامل بالله والاستعداد النفسي والروحي.

2) ـــ القوة المادية : فالجهاد إلى جانب الوازع الديني الذي يفرضه ويحث عليـه فهو يحتاج إلى مجهود وتنظيم محكم كالتأهب والمرابطة والمجاهدة والعتاد والرجـال والإنفاق وكل ما يتقوى به في الحرب.

بالإضافة إلى هذين الركنين الأساسيين هناك مقومات أخرى لابد أن تتوفر في المجاهدين منها : وحدة الصف، عدم التنازع، الصبر على الشدة، الحذر والحيطة الثبات عند لقاء العدو.

الغايات والأهداف من الجهاد : يقرر الشيخ مربيه ربه أن الهدف الأسمى من الجهاد هو حماية جماعة المسلمين من براثن الكفر والمحافظة على وجودها وتقوية نفوذها. وتتحدد الغايات الأسمى من الجهاد عنده فيما يلي :
ـ ردع وإرهاب العدو. ـ إعلاء كلمة الله . ـ إعادة الثقة إلى النفوس. ـ الغلبة والقوة للمسلمين . ـ أداة للتكتل والوحدة وتجميع الجهود وبدونه تسقط الأمة في الإختلاف والتمزق. ـ عدم موالاة العدو الكافر المستعمر بأي شكل من الأشكال وحمل المتعاونين معه على التوبة والرجوع. ـ حماية جماعة المسلمين من تبعات السقوط تحت أحكام العدو لأن في ذلك "إذلال للإسلام وأهله وإعزاز للكفر وأهله"(86).

خاتمة :

لم تكن هذه الكتابات إلا نموذجا من تراث زاخر خصصه الشيخ مربيه ربه لموضوع الجهاد سواء على المستوى النثري أو الشعري. ومما يزيد هذا الرصيد تنوعا وغنى وأصالة هو مشاركته الفعالة في العمليات العسكرية التي استهدفت الطلائع الأولى للحاميات الفرنسية بمنطقة سوس وإصراره على إفشال مخططات المحتل رغم المساومات والضغوط التي تعرض لها . كما تبرز هذه الكتابات مدى الوعي الذي وصلته الحركات الجهادية في مواجهة التدخل الأجنبي من خلال فهم واستيعاب روادها للأخطار التي كانت تحدق بالبلاد.

وإذا كان لابد من إطار لتصنيف مكانة الشيخ مربيه ربه فهو يمثل نموذج العالم المجاهد لأنه جمع بين التنظير الفكري والممارسة العملية. من هنا أصبح من الضروري الالتفات إليه كشخصية وطنية من خلال التعريف به بالرجوع إلى آثاره الضخمة المتنوعة أو اعتمادا على المصادر المعاصرة له وكذا تقارير الأجانب عنه حتى ندرك حقيقة وأبعاد وشمولية حركته الجهادية .

الـهـوامـش :

1 ـــ: Abdellah Laroui : « Les origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocain (1830-1912) » Paris A, 1980 , P : 306.

2 ـــ ماء العينين النعمة علي : « الشيخ مربيه ربه الوطني الوحدوي زعيم الجهاد والمقاومة في الجنوب المغربي » صحيفة أنوال ـــ 1332ـــ 11 ماي 1994.

3 ـــ محمد الأكراري: « روضة الأفنان في وفيات الأعيان » تحقيق حمدي أنوش ـــ بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا كلية الآداب ـــ الرباط ـــ 1989 ـــ ص : 39-40.

4 ـــ محمد المختار السوسي : المعسول ج 4 ـــ ص : 126-127.

5 ـــ الكراري : المصدر السابق ـــ ص : 43.

6 ـــ Elhiba : Fils de Malainin » in Resnseignements Coloniaux » N° 3 – Mars 1916- P : 66

7 - ـــ الأكراري : المصدر السابق ـــ ص : 52.

8 ـــ المختار السوسي : المعسول ج 8 ـــ ص : 124.

9 ـــ المرجع نفسه : ج 4 ـــ ص : 248. نتوفر على نص الاتفاق للنسخة الخاصة .

10 ـــ – Dugard (H) : La colonne du Sous 1917 - Paris 1918.

11 – : Justinard L « Notes Sur L'histoire et Litterature berbères » in Hesp 1925 - P : 350-354

12 – Voino (L) : Sur les traces glorieuses des Pacificateurs du Maroc. Paris 1939, P : 478.

13 – Ibid , P :476.

14 – Ibid - P : 478.

15 ـــ "المعسول" ج 4 ـــ ص : 267-268.

16 ـــ الخزانة العامة ـــ الرباط . ـــ الخزانة الحسنية ـــ الرباط ـــ الخزانات الخاصة.

17 ـــ توجد معظم هذه المخطوطات في خزانة ابنه الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه ـــ أكادير.

18 ـــ سورة الذاريات ، الآية : 55.

19 ـــ "لبانة المجاهدين وبغية الطالبين" الشيخ مربيه ربه مخطوط ، خزانة الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه ، ص : 1-2.

20 ـــ المرجع نفسه ، ص :2.

21 ــ المرجع نفسه ، ص : 2.

22 ــ المرجع نفسه ، ص :.2

23 ــ المرجع نفسه ، ص :.3

24 ــ سورة النساء : الآية : 97.

25 ــ لبانة المجاهدين ، ص :.3

26 ــ رواه أبا داود والدارمي وأحمد بن حنبل .

27 ــ لبانة المجاهدين ، ص : 4.-3

28 ــ سورة التوبة ، الآية : 23.

29 ــ لبانة المجاهدين ، ص :.15

30 ــ سورة التوبة ، الآية : 24.

31 ــ لبانة المجاهدين ، ص : 15.

32 ــ المرجع نفسه ، ص : 16. - 15

33 ــ المرجع نفسه ، ص : 16.

34 ــ المرجع نفسه ، ص : 16.

35 ــ المرجع نفسه ، ص : 16.

36 ــ سورة المجادلة ، الآية : 22.

37 ــ لبانة المجاهدين ، ص : 17.

38 ــ لبانة المجاهدين ، ص : 17.

39 ــ سورة النساء ، الآية : 95.

40 ــ رواه الترمذي "باب السير" .

41 ــ رواه ابن ماجة .

42 ــ " الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله ".
الشيخ مربيه ربه ــ مخطوط ــ خزانة الأستاذ علي مربيه ربه ماء العينين ص : 2. - 1

43 ــ سورة الأنفال ، الآية : 60.

44 ــ الترغيب ، ص : 3.

45 ــ الترغيب ، ص : 3.

46 ــ الترغيب ، ص : 3.

47 ــ الترغيب ، ص : 4.

48 – الترغيب ، ص : 4.

49 – الترميذي باب السير .

50 – الترغيب ، ص :.5

51 – الترغيب ، ص : 6.

52 – الترغيب ، ص : 6.

53 – الترغيب ، ص : 6.

54 – لأنها كانت مركب الحرب في زمن الرسول "ص" وحتى في الزمن الـــذي كـــان فيـــه الكاتب يخوض الجهاد هو وأصحابه فإذا تغير الزمان وجب على المسلمين أن يعدو كل ما يساعدهم في تقوية صفوفهم ضد العدو كالطائرات والدبابات والسفـــــن الحربيـــة والأسلحة الثقيلة وغير ذلك.

55 – الترغيب ، ص : 9.

56 – يقصد العدو الفرنسي .

57 – الترغيب ، ص :.9

58 – المرجع نفسه ، ص : 10.

59 – المرجع نفسه ، ص : 58.

60 – سورة النساء ، الآية : 102.
السورة تبتديء بقوله تعالى "وإذا كنت فيهم إلى مهينا" .

61 – الترغيب ، ص : 59.

62 – سورة الفاتحة ، الآية : 62.

63 – سورة الأعراف ، الآية :.196

64 – رواه الترمدي "باب السير".

65 – "صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار".
الشيخ مربيه ربه – مخطوط – خزانة الأستاذ المحترم "ماء العينين علي مربيه ربـــه" – أكادير – ص :.1

66 – المرجع نفسه ، ص : 1.

67 – سورة المائدة ، الآية : 51.

68 – " صولة الكار " ص : 1.

69 – سورة المائدة ، الآية : 57.

70 ــ سورة آل عمران ، الآية : 118.

71 ــ " صولة الكار " ص : 5.

72 ــ رواه أبا داود ــ باب الجهاد ص : 95. / الترمدي ــ باب السير ص : 41.

73 ــ رواه الترمدي ــ باب السير ، ص : 41.

74 ــ رواه الترمدي ــ باب السير .

75 ــ صولة الكار ، ص : 6. – 5

76 ــ صولة الكار ، ص : 7.

77 ــ صولة الكار ، ص : 7.

78 ــ سورة آل عمران ، الآية 28.

79 ــ صولة الكار ، ص : 8.

80 ــ المرجع نفسه ، ص : 11.

81 ــ لبانة المجاهدين ، ص : 1.

82 ــ لبانة المجاهدين ، ص : 1.

83 ــ المرجع نفسه ، ص :2.

84 ــ صولة الكار ، ص : 15.

85 ــ المرجع نفسه ، ص : 17.

86 ــ المرجع نفسه ، ص : 18.

الفكر السلفي والحركة الوطنية في المغرب مطلع القرن العشرين

محمد الفلاح العلوي*

تقديم : مرجعيات الفكر السلفي في المغرب

قبل الحديث عن الارتباط الدقيق الذي ميز الحركة الوطنية بالفكر السلفي في بداياتها بعد عقد الحماية لابد من تحديد ملخص لمرجعيات الفكر السلفي في المغرب.

إن ظهور حركات الإصلاح الديني لم يكن حكرا على بلاد المشرق لوحدها بل إن الغرب الإسلامي بدوره ساهم على امتداد تاريخه الطويل بنماذج إصلاحية نادت بالعودة إلى الأصول الإسلامية الأولى، وقد جاءت السلفية المغربية منذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر متأثرة بعمق بهذه الدعوات الإصلاحية القديمة خصوصا عند زعمائها الأوائل مثل الشيخ محمد بن المدني كنون الذي كان اتجاهه ديني صرف منطلقا ونتيجة داعيا للارتباط بالسنة والأصول في السلوك

---

*أستاذ باحث بكلية الآداب – بن مسيك –

والمعاملات، فكان بذلك من الرواد الأوائل للفكر السلفي في مغرب القرن التاسع عشر من داخل جامع القرويين (1) أما من خارجه فقد كان لمجددي العدوتين الرباط وسلا دور أساسي في نقل المؤثرات المشرقية في الموضوع وربطها بما هو داخلي في محاولة للإصلاح الاجتماعي المرتبط بالإصلاح الديني والمفكر في واقع البلاد من معاينة مباشرة في إطار العمل المخزني وقد مثل أحمد بن خالد الناصري بداية هذا الاتجاه أصدق تمثيل، رابطا السلفية بالسياسة وإن بصورة غير مباشر_(2).

لقد ساهمت عدة عوامل في تطوير الفكر السلفي في المغرب وجعله يعايش مستجدات أحداث البلاد. يمكن أن نجملها في ما يلي:

1 – تأثير الطباعة والصحافة على المجال الثقافي داخل القرويين وخارجها.

2 – السياسة الدينية للسلاطين ودعمها للسلفية في معالجة نفس القضايا بنفس المنطلق والوسائل وصولا لنفس الحلول مع اختلاف الدوافع وتكاملها.

3 – تفاعلات التدخل الأجنبي كحافز للدفع بالسلفية لمواجهته والوقوف ضده مع محاولة الاستفادة مما يصاحبه من تحديث .

4 – دور جامع القرويين كمجال لتنافس تياري التقليد والتجديد مما أدى إلى حصول تطورات في البنية الثقافية للجامع حصلت بصورة تدريجية في صراع مع بقايا عناصر الجمود وتتجلى هذه التطورات فيما يلي:

- زيادة أهمية الحديث إلى جانب الفقه.

- إضعاف تدريجي لموقف الطرقيين بفسح المجال لإلقاء دروس السلفية وإعادة مادة التفسير

- محاولات عدة لإصلاح التعليم داخل الجامع وخارجه بدأت مع أبي شعيب الدكالي وأخذت بعدا رسميا مع محمد بن الحسن الحجوي وبعدا عمليا نضاليا مع محمد بن العربي العلوي وإنشاء المدارس الحرة.

وهكذا يمكن القول أن السلفية المغربية ليست فقط وليدة تأثير النهضة العربية في المشرق بل لها خصوصياتها المحلية التي تميزها عن السلفية في المشرق رغم

اجتماعهما حول نفس المبادئ العامة. وهذه الخصوصيات ترجع إلى اختلاف المنطلقات رغم وحدة الأصول التي يعود إليها الجميع فالمنطلق في المشرق كان سياسيا، وكان دينيا صرفا بالنسبة للمغرب كما أن تطور هذا التيار في كل من المشرق والمغرب يختلف حسب اختلاف الأوضاع الداخلية في المنطقتين التي أثرت في مسار الفكر السلفي في كليهما ، فهو في المغرب تطور ليصبح الخطاب الفكري الوطني الذي سيقاوم الأجانب من جهة ويقاوم تدهور الأوضاع الداخلية من جهة أخرى، وهو في المشرق تيار فكري إلى جانب تيارات أخرى كل منها حاولت الإصلاح حسب ما رأته مناسبا لذلك.

مظاهر علاقة الفكر السلفي بالحركة الوطنية:

إن ما يميز الفكر السلفي في المغرب أنه صادف واقعا اجتماعيا وسياسيا جعل زعماءه يتبنون هذا الفكر ليس فقط كفكر إصلاح ديني ولكن كخلفية فكرية لعمل سياسي فرض نفسه خصوصا بعد فشل حركة المقاومة الأولى في نهاية العشرينيات وبروز مقاومة من نوع آخر هي : العمل الوطني السياسي وقد تمثل هذا التساوق بين الفكر السلفي والعمل الوطني في عدة مظاهر عملية منها:

1 - إصلاح التعليم ويتضمن :

ا - إصلاح التعليم في القرويين

ب - التعليم الحر

2 - إصلاح المجتمع والتمهيد لعمل سياسي وطني

1 - إصلاح التعليم

شكل التعليم أهم ميدان حضي بعناية السلفيين والنخبة المغربية بشكل عام وقد توزعت جهود هؤلاء في اتجاهين أساسيين أولهما يهم محاولة إصلاح التعليم التقليدي في جامع القرويين وما يرتبط به من مساجد جامعة كانت تسير في نفس اتجاهه ، والثاني تعلق بخلق تعليم جديد ينافس ويحاول أن يظاهي التعليم الفرنسي

الرسمي وذلـــك في إطار مـــا عرف بالتعليم الحر، فما هي أهم الانجـــازات فـــي هذين الاتجاهين :

أ – إصلاح القرويين

لقد كانت القرويين كمؤسسة تعليمية تقليدية تحتضن علماء البلاد محط عناية حذرة من طرف الحماية الفرنسية مما جعلها تولي قضية إصلاح التعليم بالجامعـــة لأبعاد استعمارية محضة عناية خاصة استغلها بعض السلفيين العاملين بالمخزن مثل محمد بن الحسن الحجوي الذي كلف بهذا الأمر للقيام بإصلاح حقيقي منبثـــق مـــن الأفكار السلفية التي آمن بها في حدود ما تسمح به المراقبة الفرنسية، لذلك وهكـــذا ظهر أول مشروع للإصلاح خاص بالتعليم داخل القرويين والجوامع التابعة لها يهتم بإصلاحات مادية وأخرى في أسلوب التعليم، وإحياء بعض العلوم المندثرة : ويمكـــن إجمال بعض هذه الإصلاحات كالتالي:

- إحداث نظام العالمية وتحديد قائمة العلماء في 154 عالم ومقرئ.
- إحداث نظام للامتحانات.
- إحداث منصب شيخ القرويين وتحديد اختصاصاته.
- إحداث نظام للدروس والمراقبة وتوزيع الطلبة على مستويات معينة.
- إحداث تنظيمات خاصة بالعطل والرخـــص والمكافأة علـــى التـــأليف والتقـــاعد ونظام العقوبة .

هذا المشروع بما احتوى عليه من تحديد وتقنين للنظام داخل القروييـــن لـــم يـــرق أغلبية العلماء المقلدين، ولهذا عطل البث فيه والحث في الزيـــادة فـــي مـــا يمنـــح للمدرسين من مكافآت وتحويلها إلى رواتب وبقي الأمر على ذلك إلى حـــدود ســـنة 1930 حيث صدر ظهير جديد بإدخال النظام للقرويين خلاصته:

- توزيع الزمن الدراسي – تحديد المواد المدرسة – تقييم مراحل التعليم – رفـــع رواتب العلماء.

وقد ووجهت هذه المبادرات الإصلاحية في القرويين بمعارضة العلماء التقليديين الذين رأوا فيها إذا ما طبقت إنقاصا من وضعيتهم العلمية وتحقيرا لهم على حساب غيرهم من المجددين الذين قد ينتفعوا من حسنات هذا النظام ، فألبوا بعض الطلبة لرفض هذه الإصلاحات، فانبثق صراع واسع بين المقلدين والمجددين داخل القرويين(3). بالإضافة إلى ذلك أضيفت إلى حلقات التدريس دروس خارج إطار الدروس الرسمية خصوا بين العشائين ، يؤطرها أقطاب السلفية ويبثون فيها مبادئ الوطنية ومنها حلقات علال الفاسي .ولم تستطع سلطات الحماية الوقوف مباشرة في وجه هذه الحلقات ، فاكتفت بمراقبتها بواسطة جواسيسها المنبثين داخل هذه الدروس(4).

التعليم الحر

تعتبر ظاهرة التعليم الحر في عمقها رد فعل أساسي على سياسة الحماية في ميدان التعليم للمحافظة على الثقافة العربية الإسلامية وضمان استمرارها أمام وجود التعليم الرسمي الذي تشرف عليه سلطات الحماية (وقد اشترك المغرب في هذه الظاهرة مع كل من الجزائر وتونس التي ظهرت بهما مؤسسات مماثلة وإن بطرق مختلفة سواء فيما يتعلق بالمدارس القرآنية الحديثة بتونس، أو المدارس الحرة بالجزائر التي بلغت إلى حدود 20/1931 مدرسة وقاربت المائة بعد إنشاء جمعية علماء الجزائر المسلمين في أواسط الثلاثينات . وقد كان التعليم الحر بمثابة جواب عملي على سياسة الحماية الفرنسية في ميدان التعليم التي يلخصها التقرير التالي :

" لا ينبغي تعميم التعليم وفرضه بسخاء على كل من هب ونب .... بل يتعين توفيره ووضعه رهن إشارة المسلمين في جرعات صغيرة، مكافأة وتشريفا للارستقراطية المحلية، حيث أن من المسلم به في نظر الأمة الغازية، أن شباب المدارس المنتقون من بين أبناء الأعيان ينبغي أن يكونوا منبتا (حقل تكويني) لإعداد موظفي الإدارة المحلية وصغار الأعوان بإدارتها "(5).

وهكذا كانت سنة 1919 بداية التجارب الأولى للمدارس الحرة في كـــل مـــن فـــاس والرباط وتطوان ثم تلتها أخرى في العشرينيات في كل من سلا والـــــدار البيضـــاء ومراكش والجديدة وأسفي والصويرة، وقد كانت سنة 1930 سنة بداية انتشـــار هـــذا النوع من التعليم حيث فاق عدد المدارس الحرة 30 مدرسة في مختلف مدن البـــلاد وقد أشرفت هذه المدارس على تكوين ما يتراوح بين 1500 و 2000 تلميذ أواســـط العشرينيات مقابل تمدرس حوالي 6000 تلميذ في التعليم الفرنسي الرســـمي خـــلال نفس الفترة.

هذه المدارس الحرة كانت مهمتها بالإضافة إلى الجانب التعليمي:

– تعزيز دور اللغة العربية – التركيز على التاريخ المغربي – التركيز على التربيـة الاسلامية – بث الوعي الوطني المبكر بين المتمدرسين – تبنـــي الفكـــر السـلفي كإديولوجية تعليمية ومحاولة التجديد في أفق التعليم التقليدي بإدخال بعـــض المـــواد العصرية إليه.

وبذلك ساهمت هذه الخطوات في تكوين الجيل الأول لرواد الحركة الوطنيـــة التـــي سيتطور عملها في الثلاثينات ليزاوج بين الإصلاح الاجتماعي والمطلب السياســـي. فكيف كانت انطلاقة العمل السياسي في علاقته بالعلماء؟.

إصلاح المجتمع والتمهيد لعمل سياسي وطني:

إن علاقة علماء القرويين بالسياسة ناتجة عن التقاليد العريقة التـــي تربـــط بينهم وبين المخزن، وتتجلى هذه العلاقة في جانبين أساسيين: اعتبارهم فئة من أهـل الحل والربط الذين تتوقف عليهم بيعة السلطان وشرعية تنفيذ السلطة، وبهذه الصفـة يساهم العلماء في تعيين السلطان وإضفاء الشرعية على سلطته ولا تنعقد البيعة لـــه من طرف العامة إلا إذا كان الخاصة ومنهم العلماء قد ساهموا في ذلك، ومن هنـــا جـــاءت أهمية بيعة مدينة فاس التي تتضمن بيعة علماء جـــامع القروييـــن، وبـــهذا المعنى يكون العلماء في طليعة العمل السياسي منـــذ أن أصبحـــت البيعـــة نظامـــا للمخزن في المغرب(6).

تبرز كذلك هذه العلاقة في إطار السند الشرعي الذي يبدأ السلطان في البحث عليه فور مبايعته وذلك من خلال الاستشارات المختلفة والمتعددة التي يوجهها للعلماء قصد توضيح رأي الشريعة فيما يعرض للمخزن من مسائل ومشاكل عويصة لها اعتبارها عند السلطان. فهم من أهم الفئات التي يبرر السلطان إزاءها مواقفه وقراراته السياسية المختلفة، هذا بالإضافة إلى أن العلماء بدورهم لا يمكنهم فرض نفوذهم إلا بدعم السلطان لهم، فهناك إذن نوع من الترابط والجدلية في علاقة العلماء بالسياسة وتمشيا مع هذا الاتجاه عبر العلماء عن آرائهم إزاء الأحداث المختلفة التي عرفها المغرب في حقب مختلفة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مساهمتهم في مختلف بيعات السلاطين أو حالات خلع بعضهم(7)، معارضتهم لسياسة تمليك الحراطين في عهد السلطان مولاي اسماعيل، حينما كان بصدد تشكيل جيش البخاري(8).

ومع حلول سنة 1900 سيبرز العلماء كمدافعين عن البلاد وموضحين للأخطار التي تحدق بها، وسأحاول أن أوضح هذا الدور من خلال ثلاث نماذج وهي: محمد بن عبد الكبير الكتاني؛ أبو شعيب الدكالي، ومحمد بن العربي العلوي. فبخصوص النموذج الأول محمد بن عبد الكبير الكتاني، فقد شكل هذا الاسم ابرز شخصية في فئة العلماء، ولعب دورا مهما في الأحداث السياسية في بداية القرن ويمكن تلخيص بعض مواقفه كالتالي:

- لقد كان واحدا من العلماء الذين وقعوا على وثيقة الدعوة لمناهضة بوحمارة.
- تعبيره أكثر من مرة على معارضته لأفكار فرنسا لإدخال إصلاحات إلى المغرب تمهيدا لاحتلاله خصوصا بعد حوادث وجدة والدار البيضاء.
- محاربته للمحميين ممن تمتعوا بامتيازات أجنبية من أصحاب الحماية الشخصية.
- مقاومته لموقف فرنسا القاضي باقتطاع مناطق مغربية على الحدود الجزائرية بحجة أنها أراضي جزائرية تابعة لفرنسا.

– موقفه عموما من تدويل القضية المغربية في مؤتمر الجزيرة الخضراء وانتقـــاده لسياسة المخزن اتجاه هذا المؤتمر(9).

وبغض النظر عن تفاصيل علاقته بالسلطان مولاي عبد الحفيــظ ممــا أدى إلى تصفيته على يده، يبقى ان مواقفه الصادقة تدل على تحركه السياسي أكثر مـــن غيره من العلماء وتدل كذلك على اعتباره من أوائل الممهدين للتيــــارات الوطنيــة المغربية.

إن موقف محمد الكتاني من التفسير يختلف عن موقف عموم العلمـــاء فـــي هذه المرحلة، فهو القائل بخصوصه : " فكيف ينبغي لعاقل أن يتجنبـــه ولا يشــغل عمره كله به، وإنما بالخوض فيه، يطلع على وجه إعجازه وبه يعلم صدق الرســول دلالة عقلية فيكون أهون على الاستسلام والانقياد لكل ما أتى به"(10).

أما موقفه من السنة والحديث فيستخلص من قوله: " أما علم الحديث فـــلا نجد قائلا به، إذا استدللـــت بحديث لأحد على جزئية من الجزئيات، اتضـــح أنــك أثيت في الدين بما ما لم يأت به أحد وعارضك هو بكلام حكيم من العلماء أو أمـــام من الائمة " (11).

– محاولة الكتاني التفكير في أسباب تفوق الغرب والبحث في أصل تلــك الأســباب في الاسلام مثلا في قوله: "وقد علمتم ما وصل إليه الأجانب اليوم من النفـــوذ فــي العالم، فانما وصلوا لذلك بأمور ومنها الحرية التي عبر عنها الشرع الكريم بالقســط والعدل والنصح وعدم المحاباة"(12).

لكن بالمقابل لا يجب علينا أن نغفل بعض المعطيات بخصوص الكتاني فهو :

* متزعم التيار المنادي بالجهاد مهما كانت العواقب، دون الدعوة لتأجيل ذلك إلـــى حين تحقيق أسباب حصول الانتصار الداخلية بالاستعداد وإصلاح النفس.

- تزعمه كذلك في نفس مرحلة كفاحه السياسية للطريقة الصوفيـــة المنســوبة إليه وإن كان يقول بتأسيسها على أسس الكتاب والسنة إلا أنه لا ينكـــر عليـــها الرقص والذكر والحضرات.

- اختلافه مع السلطان مولاي عبد الحفيظ المعروف باتجاهه السلفي في قضايا مختلفة لا علاقة لها بالسياسة كقوله بحياد الأنبياء.

هذه المعطيات المختلفة كلها تجعلنا نتساءل عن الحد الذي يمكننا عنده اعتبار محمد عبد الكبير الكتاني مصلحا سلفيا باعتبار أن السلفية كحركة تدعو إلى الرجوع للكتاب والسنة ، كانت تحارب الطرق وهو يعتبر زعيما لطريقة دينية وعلى اعتبار مواقفه الأخرى التي تساير التطور الذي سارت فيه السلفية حينما ارتبطت بالإصلاح والسياسة.

النموذج الثاني هو أبو شعيب الدكالي الذي ربط بين العمل الفكري المرتبط بالتدريس وإشاعة الحديث والسنة وبين ما كان يعايشه من أحداث سياسية هامة خصوصا قبيل الحماية وبعدها، وبذلك ساهم في إبراز ملامح السلفية الجديدة المرتبطة بالسياسة، أما موقفه المتميز من الجهاد فهو منبثق من موقفه العام من حركة الهيبة، فالدكالي عبر عن أفكاره في الموضوع حينما قابل الهيبة في مراكش الذي استمع إلى حوار بينه وبين القاضي ابن عبد العزيز بحضور أخيه الشيخ مربيه ربه حيث عبر أثناءه عن موقفه الرافض للمقاومين الذين يقدمون للأوربيين مبررا لاحتلال الأراضي الإسلامية.

يمكن أن نستنتج من هذا الحوار الأفكار التالية:

- عدم قبول الدكالي الدخول في حركة الهيبة الذي أعلن نفسه سلطانا(13).
- عدم خروجه عن الشرعية الممثلة في الملوك العلويين(14).
- اعتبار موقفه من المقاومين استمرار لموقف الناصري حول مقاومة الأجنبي ولعل لهذا الاعتبار ارتباط بما كان معروفا عن الهيبة من ربطه للجهاد بالإيمان بالخوارق الشيء الذي يتنافى ومقاصد الفكر السلفي الواقعي البعيد عن تصديق الخرافات المتعلقة بالخوارق. فقد حكى الناس أن الهيبة أشاع قبيل تعيينه قائدا للجهاد أنه قادرعلى إبطال ضرب مدافع الغزاة.

ومن هنا سنستنتج أن الدكالي كمتزعم للتيار السلفي في بداية القرن استطاع أن يعبر عن ذلك الارتباط الذي حصل ما بين السلفية كفكر والسياسة كممارسة، حينما اتخذ هذا الموقف من الهيبة وحركته في انسجام مع أفكاره السلفية التي ترى ضرورة الإصلاح الاجتماعي والفكري لنجاح أي إصلاح سياسي، فهو يتنكر للحركة التي تدعو إلى الجهاد بالاعتماد على الإيمان بالخوارق والخرافات الشيء الذي عبر عنه الهيبة وأتباعه.

النموذج الثالث هو الشيخ محمد بن العربي العلوي ويمكن حصر توجهات عمله السلفي فيما يلي:

على المستوى الفكري ارتبط اتجاهه الفكري بجانبين أساسيين: توضيح الإسلام الصحيح واستخلاصه من البدع والخرافات التي ألصقت به وذلك عن طريق:

- الدعوة للاعتماد على الكتاب والسنة.
- التنديد بالطرق وفكرها اليومي الغيبي وممارستها الخاصة.
- محاربة كل فكر غيبي من سحر وشعوذة وتجاوز كتب الفروع إلى كتب الأصول في التدليس.
- الاستمرار في نهج النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مختلف أطوار عمله.
- الجانب الثاني وهو التعريف بالثقافة العربية الإسلامية وإبراز قدرتها على مواكبة العصر وذلك عن طريق:
- التأكيد على أن الإسلام دين حركة وتقدم لا دين جمود وتأخر.
- استلهام ماضي الأمة الإسلامية في عصور قوتها.
- الدعوة إلى الرجوع إلى المقومات الدينية مع التفتح على العصر ومواكبته بالتعرف على الثقافات الأخرى.
- محاولة إصلاح التعليم عن طريق تطوير العلوم التقليدية وإدخال العلوم الحديثة وتعلم اللغات.

- اعتبار التعارض بين الشرق والغرب حقيقة تاريخية عبر مختلف العصور مع اختلاف أشكالها فقط.

أما على صعيد الممارسة والتطبيق فتتعدد أمثلة ونماذج هذا الجانب في حياة بن العربي العلوي ويمكن الوقوف فقط عند بعض النماذج مثلا إيمانه القوي بضرورة الجهاد والثورة ضد المستعمر، وهذا ما جعله يحاول الانخراط في جيش موحا وحمو الزياني ويحاول الالتحاق بحركة محمد بن عبد الكريم ويراسل كذلك في الأربعينات زعماء الجيش العربي في فلسطين لقبوله كمتطوع كما ساهم كذلك من موقعه المخزني في إصدار مجموعة من التشريعات المانعة لبعض ممارسات الطرق وبالأخص ممارسات الطريقة العيساوية.

أما على مستوى المواقف، فتتعدد مواقفه الشجاعة النابعة من الفكر السلفي وتتوزع في مناسبات متعددة طيلة حياته، وقد أدت به إلى النفي مرارا والتضييق على حريته. ومن أمثلة ذلك :

- أنه كان يبكي في دروسه بالقرويين عند صدور ظهير 16 ماي 1930 (الظهير البربري) معلنا أن الاستعمار قد أعلن الحرب ضد القرويين وعلومها في هذا الظرف وبالتالي ضد الإسلام والعرب.

- تقديمه استقالته من الوزارة سنة 1944 احتجاجا على تخاذل الوزراء وجبنهم وتواطئهم مع الاستعمار اثر تقديم عريضة المطالبة بالاستقلال.

- موقفه أثناء إرغام العلماء على مبايعة محمد بن عرفة وجوابه للقبطان المكلف بذلك: "أنني لن أمضي البيعة وفي استطاعتك ان تفعل ما تشاء وتأكد أنني لن احقد عليك".

إن المتمعن في هذه الأمثلة وفي غيرها فكرا وممارسة ومواقفا، يمكن أن يخرج بخلاصة أساسية حول سلفية شيخ الإسلام وفي تطورها التدريجي من الاصلاح الديني إلى الإصلاح الاجتماعي إلى الإصلاح السياسي إلى الموقف الثوري مع احتواء الباعث الديني الروحي لها جميعا سواء في دروس السلفية أو

السخرية من الطرق أو التعريض بنظام الحماية وممارساته وبذلك تحققت فعلا عند بن العربي العلوي صفة الداعية الديني الوطني الذي مزج بين السلفية والوطنية وكان من نتائج هذا المزج تكوين الرعيل الأول من الوطنيين الشباب وتزعمهم للخلايا السياسية وبدايات الاصطدام بالحماية، يقول عنه شارل اندري جوليان مثلا: " لا أحد يمكن له أن يفصل من جديد بين العقيدة والوطنية حيث أن وطنية هذا السلفي أصبحت رمز التفكير لدى الشبيبة المغربية " (15).

هوامش

1 – محمد الفلاح العلوي :جامع القرويين والفكر السلفي، ص ص 82-101

2 – نفسه ، ص ص 104-123

3 – نفسه ، ص ص 126-146

4 – قدور الورطاسي : ذكريات الدراسة بالقرويين، وبالخصوص في معرض حديثه عن الشيخ مولاي رشيد الدرقاوي.

5 – Plan d'étude des programmes de l'enseignement des indigences ; Bulletin de l'enseignement Public du Maroc ; v 7 n° 24 ;30 octobre 1920 P394.

6 – Laroui ; les origines sociales et culturelles du Nationalisme Marocain 1830-1912 ; C C A P 71.

7 – مثل خلع السلطان السعدي محمد بن عبد الله المسلوخ ، وقد أثبت الناصري في الاستقصا تفاصيل ذلك في الجزء الخامس ص ص 70-78.

8 – محمد المهناوي : الفصل الأخير في معارضة علماء فاس سياسة تمليك الحراطين الملحق الثقافي للاتحاد الاشتراكي، رقم 367، بتاريخ فاتح غشت 1993.

9 – الباقر الكتاني : ترجمة الشيخ الشهيد محمد الكتاني، ص 187.

10 – نفسه ص 190.

11 – نفسه ص 26.

12 - محمد المنوني :مظاهر يقظة المغرب الحديث،ج 2 ص 374-375.

13 - عبد الرحمان الدكالي : ترجمة الشيخ أبي شعيب الدكالي، مقال مرقون على الآلة الكاتبة نسخة خاصة.

14 - عبد الله العروي : احمد الهيبة ، مذكرات من التراث المغربي م 5 ص 124.

15 - كل المعطيات المتعلقة بمحمد بن العربي العلوي مستمدة من كتاب ، عبد القادر الصحراوي ، شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي : مطبعة دار النشر المغربية الدار البيضاء 1965.

تأصيل الهوية الثقافية الوطنية في مدينة وجدة(1907 – 1950)

مساهمة في دراسة الجذور والامتدادات.

بدر المقري *

تقديـم:

حري بي التنبيه بداهة على أن المقصد الأسمى لهذه المساهمة المتواضعة هـــو مد باع تقعيد الهوية الثقافية الوطنية بوجدة بين سنة 1907 وسنة 1950 مـــن خـلال معلمتين رئيستين: المعلمة السلفية والمعلمة الوطنية . وأما المقصود بالجذور فـــهو لفت الأنظار إلى استحصاف وثائق عرى القاعدة السلفية والوطنية من خلال إطـــار زمني محدد يمثل خطين متوازيين : فأما الخـــط الأول فيمثـــل احتـــلال الجيــش الفرنسي لمدينة وجدة في أبريل 1907، وأما الخط الثاني فيمثـــل اشـــتعال جـــذوة العمل السياسي والعسكري الوطني ضد الحماية الفرنسية سنة 1950.

ومن الطبيعي أن نعضد دراسة الجذور بدراسة الامتدادات حتى يكون أخـــذ موضوع تأصيل الهوية الثقافية الوطنية على عهد الحماية بأصلـــه وفصلـــه. وقـــد خصصت هذا العرض بالمباحث التالية :

• أستاذ باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ــ وجدة .

1) ــ المبحث الأول : الأدوات المنهاجية والحدود المعرفية .

2) ــ المبحث الثاني : خطاب تحديد الانتماء / نماذج من الحركة السلفية بوجدة .

3) ــ المبحث الثالث : خطاب تحديد الهوية / قناة المدارس الحرة .

4) ــ خاتمـــــة .

المبحث الأول : الأدوات المنهاجية والحدود المعرفية .

لا تستقيم دعائم سبر أغوار الهوية الثقافية الوطنية على عهد الحمايـــة دون توضيح الأدوات والتعريفات الكاشفة. فإذا كنا قد أردفنا دراسة الجـــذور بدراســة الامتدادات فلأن الفضاء السلفي هو الفضاء الأس والرئيس للعمل الوطنـــي الثقــافي وبعبارة أخرى فإنه ليس هناك أدنى التباس أو استبهام في اعتبـــار الســلفية ســندا للحركة الوطنية. ومن ثم يمكن تفكيك الجذور والامتدادات المؤصلة للهوية الثقافيـــة الوطنية على عهد الحماية من خلال جملة من المسلمات التي أخذناها من كتـــب. فالباحث لا يكون في أمر مريج إذا استنتج بأن الســـلفية المغربيـــة كـــانت أحاديـــة المقصد في تأصيل الهوية الوطنية وأما الحركة الوطنية فكانت ثنائيـــة المقصـــد . وهكذا فإن الخطاب السلفي كان في المقام الأول خطابا لتحديد الانتماء حتى تكـــون المسؤوليات والواجبات سهلة المجنب، قريبة المتنـــاول. أمـــا خطـــاب الحركـــة الوطنية فكان خطابا لتحديد الهوية . ولذلك فإن الحركة الوطنية بـــالمغرب تمتـــاز بخاصية مزدوجة : حركة تحرير وطني تـــزاوج بين المقاومة المسلحة والنضـــال السياسي مـــن جهة ، وحركة تنوير فكري (1) . وقـــد وضح علال الفاســـي تلـــك الثنائية في كتابه " النقد الذاتي " بقوله : " ظلت الوطنية المغربية منذ عهد بعيد شـــيئا غامضا إلا فيما يرجع لمقاومة الأجنبي . ولقد كنا نرى في هـــذا الغموض سرا مـــن أسرار قوتها ، وقـــد يكون ذلك صحيحا فيما مضى ، أما اليوم فيجـــب أن تمتـــاز الوطنية المغربية ببرنامجها المدقق المفصل وتجمعها من حوله وأن يكون للوطنيين قادتهم الاجتماعيون والاقتصاديون والروحيون إلى جانب قادتهم السياسيين "(2).

إن استشراف خطاب الانتماء السلفي وخطاب الهوية الوطنـــي والحــرص على درك كــل واحد منهما يمكننا من استنباط نتيجة مهمة وهي أن تحديد الانتمــاء جدير بـــأن يكون مفتتح المواجهة مع المؤسسة الاستعمارية وهي مواجهة ثقافيـــة كلية ، أما تحديد الهوية فيمثل طفرة لافتة للنظر في إعداد العدة لمواجهـــة الحمايـــة الفرنسية وتقعيد مقولات " الأمة المغربية " أو " القوميـــة المغربيـــة " أو " الــروح المغربية "(3) . وفي ضوء ذلــك تكون المساهمة في دراسة جـــــذور وامتـدادات تأصيل الهوية الثقافية الوطنية في مدينة وجدة بيـــن 1907 و1950 قريبـــة المقتبـس وسهلة الملتمس.

المبحث الثاني : خطاب تحديد الانتماء / نماذج من الحركة السلفية بوجدة .

فضلت انتقاء بعض أعلام الحركة السلفية بوجدة حتى يكون تفكيك الخطـــاب السلفي سهل الارتياد ، لين المأخذ. ونموذجنا الأول هو سيدي محمد بــــن الحســن الحجوي الثعالبي (ت 1956م) الذي سنكون ضليعين به إذا أثرنا جملة مـــن معـــالم سيرته. يقول الحجوي في ترجمة نفسه : " مسقط رأسي فاس، بها قــرأت وتعلمـت وبأدب أهلها تأدبت ،وسكنت مكناسة الزيتون سنتين ونيفا ، ثم وجدة ثلاث سـنين ... وأما عقيدتي فسنية سلفية. أعتقد عن دليل قرآني برهاني ما كان عليه النبي صلـــى الله عليه وسلم وأصحابه الراشدون. مالكي المذهب ما قام دليل .... ربيت في حجـر سيدي الوالد والوالدة الصالحة القانتة ، وكان لهما الاعتناء التام بـــتربيتي وتـــهذيبي وإصلاح شؤوني ... واستعانت الأم في ذلك بجدتي من قبل الأب ... كانت أفعالـــها وأخلاقها كلها دروسا عملية علمية تهذيبية ... أتلقاها عنها والفكر فارغ من غيرهـــا ... إن تأثير هذه التربية الأولى على حياتي هي التـــي أوضحـــت لـــي أن تربيـــة الأمهات لها دخل كبير في تهيئة الرجال النافعين ، وإعداد الأمم للنـــهوض، لذلــك أرى وجوب تعليمهن وتهذيبهن تعليما يليـــق بديننـــا ، ويزيـــن مســتقبل أولادنـــا ويصيرهن عضوا نافعا في هيئتنا الاجتماعية، فلا غنى لنا عن إعانتهن في تربيـــة رجال المستقبل الذين عليهم مدار حياة البلاد ..."(4) . وستتاح لســيدي محمـــد بـــن

الحسن الحجوي الفرصة المواتية للسمو بمثل تلك الأفكار الغريبة على زمنه وأهله وهو الأقوى عليها عندما رقي سنة 1900 من وظيف العدل في صوائر دار المخزن بمكناس على عهد السلطان عبد العزيز إلى وظيف أمين ديوانة مدينة وجدة. وزيد له على ذلك وظيف مفتش الجيش الذي كان مرابطا هناك لصيانة الحضرة الوجدية من هجوم أبي حمارة سنة 1901 ، فكان بهذه الصفة نائبا عن وزير المالية في أمور الجيش المالية، وعن وزير الحرب فيما يرجع إلى الأسلحة والذخائر، ثم أضيف إليه وظيف نائب الملك في الحدود، وفي فصل دعاوى الإيالتين هناك مع تكليفه بتنظيم جيش لحراسة الحدود المغربية(5). ولم تكن لهذه الخطط والوظائف السياسية أن تمنع الحجوي من القيام بالواجبات العلمية أتم قيام. فقد اضطلع بنشر العلم وتوضيح تصوراته السلفية منذ الوهلة الأولى لإقامته بوجدة. ولا خلاف في أن إقامة جلة من العلماء السلفيين بوجدة من المهاجرين من المراكز العلمية الرئيسية بالجزائر بعيد احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 ، كان له بالغ الأثر في الدعوة السلفية للحجوي بوجدة. وقد سطع نور وضياء خطاب تحديد الانتماء بوجدة في بداية القرن العشرين في الجامع الأعظم الذي يرجع تاريخ بناءه إلى العصر المريني .

لقد حاز الحجوي قصب السبق بمدينة وجدة في إقراء "المرشد المعين " و"تحفة" ابن عاصم الأندلسي و"الربع المجيب" برسالة المارديني(6) . وفي طيات تلك الدروس لمع سناء دعوته " إلى إزالة غشاوة الجهل بالدين الحنيف عن العقول حتى يقف الناس على معنى الدين الحنيفي، وينبذوا كل الأوهام التي خلطت به من أعدائه. فكل نهضة لاتؤسس على مبادئ الدين الصحيح والأخلاق الفاضلة تكون خلوا من الفضيلة، وخطرا عاما على البلاد ..."(7) .

وقد لقي الحجوي سؤله لعوامل ذاتية وموضوعية جمة وأهمها أن معنويات المغاربة أهل وجدة كانت منهارة لوجود الاستعمار الفرنسي على العتبات ومعاناتهم من فتنة أبي حمارة وضعف الإدارة المركزية. ووجدت دعوته السلفية صدى لها

في وجدة لأنها كانت بمثابة أداة لتحصين الشخصية المغربية أمام الأمـــواج العاتيـــة التي تهدد كيانه ووجوده.

وإلى الحجوي كان مفضى الإلحاح على ضرورة امتلاك علماء وجدة للفقـــه لإيمانه العميق بأن الأمة الإسلامية لا حياة لها بدون الفقه ولا رابطـــة ولا جامعـــة تجمعها سوى رابطة الفقه وعقائد الإسلام. فمهما وجد أهل الفقه واتبعوا كانت الأمـــة إسلامية، ومهما انعدم الفقه والفقهاء لم يبق للأمة اسم الإســـلام(8) . ولطالمـــا رددت الشفاه بمدينة وجدة ربط الحجوي بين خلاص الأمة الإسلامية وتلك المبادئ حفظـــا للجامعة الإسلامية. ومن تلاميذ الحجوي بوجدة الذين بنوا وتقدموا في حمـــل لـــواء دعوته السلفية أذكر على سبيل المثال أبا زيد عبد الرحمن بن المير خطيب وجـــدة وجنيدها . وقد كان ملازما للحجوي لا يفارقه مع فضله وسنه العالية وعلمه وتوفـــي رحمه الله سنة 1930(9) . والتلميذ الثاني هو أبو عبد الله محمد الحنفـــي بـــن محمـــد الناصري، توفي سنة 1905(10) .

وكانت الاستدامة على أمر الدعوة السلفية مع جلة من علماء وجدة من أقـــران الحجوي . وفي مقدمتهم سيدي أبو بكر بن زكري الفاسي الوجدي وســـيدي الحـــاج العربي بن الحبيب بن المصطفى سيناصر المعسكري الوجدي. فقـــد تصـــدى هـــذا الثلاثي واشرأب لرقي الفقه بوجدة بتأصيل مستتبعاته وخاصة اللغة العربية ومبـــادئ الدين من توحيد وفقه وأخلاق. فكان تأسيس المعهد الإســـلامي الملحـــق بالجـــامع الأعظم بوجدة بعيد سنة 1907 تاريخ احتلال المدينة. واختير الشيخ العلامة ســـيدي أبو بكر بن زكري الفاسي الوجدي ـــ الذي توفي حوالي سنة 1932 ـــ مديرا له(11) . وكان الهم الأكبر لأبي بكر ابن زكري نشر وعي تهذيبي تربوي تعليمـــــي للحفـــاظ على مقومات الشخصية الإسلامية والذي طالما ردد قول الشاعر :

خذ الشوك واغرسه على النهر يا فتى ... واسقه ماء الورد مع عسل النحل

فو الله ما تجني إلا الشوك خالصا ... فإن رديء الأصل يرجع للأصل(12)

ومن أقران الحجوي الحاملين لواء السلفية بوجدة الشيخ العلامة سيدي الحاج العربي بن الحبيب بن المصطفى سيناصر الحسيني المعسكري الوجدي الذي توفي سنة 1931 أو 1932(13) .

وإذا كان ديدن الحجوي هو المناداة بإصلاح التعليم للارتقاء إلى مستوى بناء الشخصية الإسلامية القادرة على مواجهة التحديات، فلأن مثله الأسمى هو إصلاح الأزهر. وهنا تثار المنزلة الرفيعة لدعوة الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا عند علماء وجدة وأصدائها الحسنة التي كانت سببا في إدراك السلفية آمالها بصورة جلية. فقد كانت هناك متابعة دقيقة لتواليف الشيخ محمد عبده ولمجلة " المنار". وقد ذاع صيت سيدي الحاج العربي المعسكري الوجدي بنشرها بين العلماء وطلاب المعرفة. وقد بلغت الدعوة السلفية العنان حتى نهاية الثلاثينات مع جلة أخرى من العلماء المتشبعين بخطاب تحديد الانتماء من أمثال : الشيخ العلامة سيدي محمد المازوني(ت 1932) ، والشيخ العلامة سيدي الحاج أحمد بن الحبيب الحسيني سيناصر المعسكري الوجدي (ت 1932) ، والشيخ العلامة سيدي بنسعيد الخالدي الوجدي (ت1976) ، والشيخ العلامة سيدي محمد النكادي الوجدي (ت 1932) والشيخ العلامة سيدي عبد القادر بن الكندوز المستغانمي الوجدي (ت حوالي 1936) ، والشيخ العلامة سيدي إسماعيل الإدريسي القيطوني وشيخ الشيوخ سيدي عبد الرحمن الشفشاوني وغيرهم .

وحتى لا نكون في أمر مريج فإنه يحسن بنا التنبيه على أن خطاب تحديد الانتماء كان يختلف أحيانا عن خطاب تحديد الهوية اختلافا جذريا ولذلك نقول بأن الخطاب السلفي كان عاما غير مرتبط غالبا بالإطار الموضوعي للمغرب آنذاك أما الخطاب الوطني فهو خاص لإحاطته بكل آليات الواقع المغربي في ظل الحماية الفرنسية. فلا غرابة إذا كان الحجوي يثني على LYAUTEY لشغفه بإحياء مآثر الإسلام بمكان رفيع لائق بماله من سعة المدارك ونزاهة الأفكار الإصلاحية(14) حسب زعمه .

المبحث الثالث : خطاب تحديد الهوية / قناة المدارس الحرة.

قوى خطاب تحديد الانتماء خطاب تحديد الهوية وأعلى ذكـــره لأن مرجعيـــة الخطاب الوطني تقوم بداهة على لبنة الخطاب السلفي وهو ما حدا ببعض الدارســين لاعتبار خطاب تحديد الهوية سلفية جديدة (15) . وقد رسا طود خطاب تحديد الهويـــة بوجدة منذ 1930، وحقيق بنا في هذا المقام التأكيد على أن مما قوم أود ذلك الخطاب تأثر الوطنيين بالنضال السياسي في الجزائر وقد كانت وجدة على مر قرن ونصـــف من الاستعمار الفرنسي للجزائر، قاعدة خلفية للشعب الجزائري. وقد رسخ الإخـــاء المغربي الجزائري أركان الخطاب الوطني بصورة لافتة للأنظار في مدينة وجـــدة. وليس غريبا البتة التنبيه على تشجيعات الشيخ البشير الإبراهيمي عندما كان مديـــرا لدار الحديث بتلمسان لتأسيس المدارس والمؤسسات التعليميـــة الوطنيـــة لمواجهـــة الأخطار المحدقة بالهوية الوطنية(16) . وليس غريبا كذلـــك الإشـــارة إلـــى أن رواد العمل الوطني بوجدة كانوا جزائريين ، وكانت لهم مساهمات جليلة في توطيد قواعد رواق خطاب تأصيل الهوية الثقافية الوطنية بوجدة منــــذ منتصــف الثلاثينـــات . وهناك إجماع على أن أهم معلمة ثقافية لتأصيل الهوية الثقافية بمدينة وجــــدة هـــي مدرسة العروبة التي اقترح الأستاذ علال الفاسي تأسيسها قرب الجامع الأعظم ســنة 1934، وكلف الأستاذ عبد السلام الوزاني بإدارتها (17).

واشتدت أعناق العمل الوطني التعليمي بوجدة ســـنة 1937 بتأســيس مدرســـة بزنقة الخياطين بإدارة الحاج محمد مكوار ثم عبد القادر العرابي في مـــنزل حبســه التاجر محمد بوغانم وأصبحت المدرسة تحمل اسم مدرسة القرآن الكريم (18).

وتصعد سنة 1946 بوجدة بنيان مدرسة زيري بن عطية التي فـــاح عطرهـــا بإدارة أحد المعسكريين الأفذاذ وهو سيدي المصطفـــــى المشـــرفي (ت 1959) (19). وهناك مؤسسات تعليمية أخرى ساهمت في تأصيل الهوية الثقافية الوطنيـــة بوجـــدة على عهد الحماية مثل مدرسة الجندي نسبة إلى مؤسسها سيدي محمد (فتحـــا) بـــن محمد بن غالي الفاسي أطال الله عمره .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن تلك المدارس الوطنية كونت فرقا كشفية سرية تقوم بتداريب شبه عسكرية في ضواحي وجدة. والهدف المقصود بذلك هو عجم عود الشاب المغربي . ولم يكن لنعائم العمل التعليمي أن تترسخ لولا تجريد الوطنيين الوافدين من الجزائر وخاصة من تلمسان وندرومة ومستغانم ووهران ومعسكر والوافدين من فاس خاصة وأهل وجدة العناية في تمويلها ومساعدتها وتوجيهها أو تأطيرها تربويا.

خاتمة .

إن إسار المساهمة في دراسة جذور وامتدادات تأصيل الهوية الثقافية بمدينة وجدة في فترة خطيرة من تاريخ المغرب ، لا يوثق إلا باعتبار خطاب تحديد الهوية تخصيصا وتدقيقا وتطويرا موضوعيا للخطاب السلفي الذي يهتم بتحديد الانتماء . وتكاد مدينة وجدة تنفرد ــ بموقعها الاستراتيجي وتواصل أهلها مع الشعب الجزائري ــ بكون برى وقوى خطاب تحديد الانتماء وتحديد الهوية تتأكد وتستحكم محليا ووطنيا وكذلك جهويا .

الهوامش :

1) ــ " في النهضة والتراكم" ص :99 / دار توبقال للنشر ــ البيضاء 1986 .
2) ــ المرجع نفسه ، ص : 100.
3) ــ المرجع نفسه ، ص : 106.
4) ــ "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي" / محمد بن الحسن الحجوي / مكتبة دار التراث ــ القاهرة (دون تاريخ):ج 4 / 379. – 378 – 377
5) ــ المصدر نفسه : ج 4 / 385. – 384
6) ــ المصدر نفسه : ج 4 / 387.
7) ــ المصدر نفسه : ج 4 / 388.
8) ــ المصدر نفسه : ج 1 / 14.
9) ــ "مختصر العروة الوثقى " / الحجوي / مطبعة الثقافة ــ سلا / 1357هـ / 1938م / ص : 15.

10) ـ المصدر نفسه : ص .16.

11) ـ " بين ظلال الأصالة " / قدور الورطاسي الحسني / مطبعة الأمنية ـ الرباط / 1409هـ ـ 1989م / ص : 67.

12) ـ المرجع نفسه : 66.

13) ـ المرجع نفسه : 86.

14) ـ "الفكر السامي " : ج 4 / 199.

15) ـ "في النهضة والتراكم" : ص .119.

16) ـ "معالم من تاريخ وجدة " / قدور الورطاسي / مطبعة الرسالة ـ الرباط /1392هـ ـ 1972م ، ص .65.

17) ـ "معالم من تاريخ وجدة " / الورطاسي : ص 68 – 67 – 66 وأنظر : تاريخ وجدة وأنكاد" / إسماعيلي عبدالحميد العلوي/ 1408هـ ـ 1988م ، ج2 .24 –23 .

18) ـ " تاريخ وجدة وأنكاد " / إسماعيلي عبدالحميد العلوي ، ص : .25

19) ـ " ترجمة المجاهد سيدي المصطفى المشرفي " / قدور الورطاسي : رسالة مرقونة في بضع وعشرين صفحة في خزانة خاصة .

انعكاس المقاومة في الشعر المغربي

- المقاومة في الشعر المغربي الحديث
- الشعر المغربي والمقاومة إبان الحماية
- المقاومة في الشعر الملحون

المقاومة في الشعر المغربي الحديث

إبراهيم السولامي *

وجدت نفسي في حيرة وأنا أسهم في هذه الندوة بموضـــوع أدبـــي ، لأن موقع الأدب في ندوة عصبها الحي هو التاريخ بكل مميزات التاريخ من حقـــائق وأحداث وأسماء رجال وتحولات اقتصادية واجتماعية وحروب، هو موقـــع يبعـــث على التساؤل ، أين يقع سجع الحمام من قرقعات الحديد ؟ وأين ســـيوضع الخيـــال المجنح من الوثائق المدروسة والعهود والمواثيق المدموغة بحجـــة العقـــل البـــارد والمنطق المحسوب ؟.

لكننا ، نحن الأدباء المولعون بالبحث عـــن منـــافذ النجـــاة، والجـــري وراء الأساليب المنقذة بالتستر وراء المنهج تارة ، وطبيعة المناســـبة تـــارة ، ونوعيـــة الجمهور المتتبع تارة، نحن الأدباء إذن لا نعدم التنقيب عن مسالك الخلاص التـــي تؤدي هدفها بطرق الموضوع المطلوب وتعميقه بالأسئلة المتشابكة المثيرة للجـــدل وفتح الآفاق . وإني أعتبر هذا العرض حول انعكاس المقاومة المغربية على الأدب

• أستاذ باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ــ القنيطرة .

والشعر منه بخاصة ، محاولة لإثارة جملة من الملاحظات المستخلصة بعد طول مران وتدبر في موضوع كنت اتخذته لبحث جامعي قدمته بجامعة الجزائر منذ أكثر من عشرين سنة . ولن يكون هذا العرض مرتكزا على خصائص فن الأدب إلا في عموميتها لأن مكان حديث أدبي محض هو البحث المكتوب للمختصين لذلك فلن أثير " فنيات " الأدب إن صح التعبير، وسأكتفي بالوقوف عند ملاحظات رئيسية أملا في أن تكمل الصورة المستقاة من عروض زملائي أساتذة التاريخ. وهي تكملة لا تعني مطلقا دونية الأدب في المقاومة والحفاظ على كيان الأمة أرضا وحضارة وإنسانا . ولعل أول سؤال يستدعي الاستجابة والتحديد هو : ما الذي نقصده بالمقاومة في الكتابات الأدبية ؟ أكانت هذه الكتابات نثرا أم كانت شعرا وهو ما نرومه في هذا العرض ؟ .

المقاومة في الكتابات الأدبية ذات معنى شاسع ، ومظاهر متعددة، وإن كانت في جوهرها تتفق في الدفاع عن أسس الأمة بغية صيانتها من الانحلال والتشتت وذلك بالتأكيد على الوحدة السياسية ، والخصوصية الثقافية ، والتميز اللغوي والتاريخ الحضاري. لذلك صاحبت الكتابة الأدبية تاريخ المغرب الحديث منذ بداية القرن إلى يومنا هذا حيث تتخذ المقاومة الأدبية صورة المنافح عن الوحدة الترابية في الجنوب والشمال.

وبديهي أننا لو أردنا الوقوف عند كل الكتابات الأدبية عن المقاومة المغربية منذ بداية القرن حتى الآن لطال بنا الحديث. وإن كان تراكم الكتابات وكثرتها لا تعني أنها جميعا ذات قيمة أدبية راقية.

وكما ذكرت في مستهل هذا العرض فسأقتصر على ملامح هذه الكتابات والشعرية منها خاصة عسى أن يعمق النقاش ما بها من ثغرات . أول ملامح هذه الكتابات الأدبية عن المقاومة المغربية أنها غزيرة في النثر وفي الشعر جميعا . فهي مئات المقالات والخطب ، وهي عشرات القصص والروايات خاصة في ما كتب عن المقاومة بعد استقلال المغرب.

والخصوبة نفسها نجدها في الأشعار وقد تمثلت في القصائد والمسرحيات والأناشيد، بل إن الشاعر محمد بنشقرون كتب قصيدة طويلة عن حركة تحرير البطل عبد الكريم الخطابي سماها ملحمة، وإن لم تتوفر على شروط الملاحم كما عرفت عند اليونان والرومان أقصد الإليادة والأوديسة لهوميروس ، والإنيادة لفرجيل ... وفي كتابي " الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية " توجد هذه القصيدة ضمن الملاحق.

الملمح الثاني هو أن هذه الكتابات صورت المقاومة في مراحلها المتنوعة ، إذ قاومت عن طريق الدعوة الإصلاحية السلفية الداعية للحفاظ على كيان الأمة المتمثل في لغتها ودينها ، وأخلاقها ووحدتها العائلية ، وفي انفتاحها على التعليم المتطور والأخذ بأسباب الحضارة العلمية الغازية دون الذوبان التام فيها وتضييع الهوية الوطنية .

كما قاومت عن طريق تصوير الأحداث الوطنية كقضية بوفكران والظهير البربري ومظاهرات البيضاء وفاس والرباط ، وزيارة المغفور له محمد الخامس لطنجة ، وانتفاضة آيت عطة في بوكافر، وانتفاضة آيت باعمران الخ...

ولكنها تجاوزت هذا النوع من المقاومة إلى تصوير الثورات التحريرية الكبرى وهي : حركة أحمد الهيبة، وحركة حمو الزياني ، وحركة محمد عبد الكريم الخطابي ، وحركة جيش التحرير التي قادت إلى استقلال المغرب. بل إن الأدباء احتفلوا كل المناسبات للمقاومة حتى التي تبدو بعيدة عن الصراع مع الأجنبي، مثل أعياد المولد فقد كان الشعراء يستحضرون سيرة الرسول عليه السلام ، وكفاحه من أجل تأسيس الدولة ونصرة الدين ليخلصوا إلى واقع الوطن وما يغوص فيه من تخلف بعيدا عن أيام الإسلام الزاهرة وبعيدا عن القولة المأثورة : ليس للكافرين على المؤمنين سبيلا.

وقد يفزع الشعراء إلى الطبيعة فيصورون الليل الشبيه بليل الوطن ويبشرون بالصباح الذي لن يغيب وإن طال الأمد ، ملمحين للحرية المنشودة . هذه الأشعار الرمزية تكثر حين يدلهم الواقع ويسود القمع والتنكيل بالأحرار.

الملمح الثالث هو أن أصحاب هذه الكتابات لم يكونوا رسامين للأحداث دائما، فكثير منهم كانوا مناضلين سجنوا وعذبوا ونفوا ، ومنهم من استشهد في سجنه كالشاعر محمد القري عام 1937 ، وهؤلاء كثيرون منهم : عبد القادر حسن وعلال الفاسي والمختار السوسي ، ومحمد الحلوي ، ومحمد الوديع الأسفي الخ ...

والملمح الرابع هو أن الكتابات الأدبية محور المقاومة لا تكتمل إلا بالإطلاع عليها لا في الفصحى وحدها ، بل في الأمازيغية والريفية وكذلك في اللغة الوسطى وأقصد بها لغة الملحون. وقد بدأت إماطة اللثام عن كتابات أدبية أمازيغية في الأغاني والمقطوعات .الشعرية التي نقلت إلى اللغة العربية من قبل أساتذة دارسين في الجامعات وخارج الجامعات إذ قدمت رسائل جامعية وأطروحات عن المقاومة في الصحراء المغربية من قبل الأستاذين أحمد مفدي ومحمد الظريف وقدمت رسالة عن المناضل الشاعر الطيب العلوي لمحمد المنصوري وأطروحة عن الجهاد في الشعر المغربي للأستاذ عبد الحق المريني عضو التشريفات الملكية

الملمح الخامس هو أن هذه الكتابات عن المقاومة المغربية كانت أحيانا بأقلام غير مغربية، فقد ناصر المقاومة المغربية واستلهم حركتها المجيدة أدباء من المشرق منهم : علي محمود طه ، وأبو شادي من مصر ، وإبراهيم طوقان من فلسطين ، ومعروف الرصافي من العراق . وقد كان نشيد إبراهيم طوقان الفلسطيني عن حرب الريف شائعا في الأربعينيات وبعدها ومطلعه :

في ثنايا العجاج والتحام السيوف
بينما الجوداج والمنايا تطوف
يتهادى نسيم فيه أزكى السلام
نحو عبد الكريم الأمير الهمام

ريفنا كالعرين نحن فيه أسود

ريفنا نحميه

ولئن كانت هذه الملامح تبرز خصوصية الكتابات الأدبية والشعرية عن المقاومة المغربية ، كما تجلي شساعة الموضوع وغناه ، وهو ما يشكل عائقا هاما في رسم صورة وافية ، فإن عوائق أخرى تنبثق من خصوصية الأدب نفسه يمكن أن تحدد أهم سماتها في ما يلي :

أولا : الحديث عن المقاومة تاريخيا مثير لأنه قصص واقعية نابضة تلذ للأسماع فهي تستهوينا بما فيها من بطولات وأمجاد وإعزاز يدفع إلى الأمل في المستقبل أما الحديث عن المقاومة أدبيا فذو طبيعة خاصة لأنه تصوير إبداعي يجمع بين الحقيقي والمتخيل من ناحية وبين الواقعي الثابت والجمالي المنمق الممتع . فالكتابات الأدبية تقتحم الكائن والمحتمل وتنسج الآفاق والنتائج كما تراها وتحس بها وإن لم تكن موافقة للحقائق التاريخية. ولذلك طرح السؤال الهام منذ بداية المقاومة ضد الأجنبي الذي بسط نفوذه على المغرب مثل عديد من الدول العربية: هل يمكن أن تضم الكتابات الأدبية إلى التوثيق العام ، أم أن روحه الإنسانية وجمعها بين الواقع والمحتمل يحيلها إلى احتمالات لا تخرج عن الرعشات الوجدانية الدائرة في إطار الفن المؤثر تأثيره الخاص بعيدا عن الدقة والمنطق الهادىء؟.

ولعلكم تلاحظون في يسر شديد أنني تعمدت الاستغناء عن النصوص الشعرية التي رسمت لنا روائع التضحيات وأنات المعاناة في السجون السحيقة والمنافي النائية، إما في صحراء المغرب أو في الأطلس القاسي ببرودته وشظف العيش فيه ، وإما في مجاهل افريقيا كأشعار علال الفاسي في الكابون ، وأشعار عبد القادر حسن والوديع الأسفي والمختار السوسي ، وإدريس العلمي ومحمد الحلوي، وسواهم كثير ، في المنافي والسجون. تعمدت الاستغناء عن النصوص لأن قراءتها تحتاج إلى وقت لخلق مناخ الفترة التي كتبت فيها بما تحمله من زخم

وطني دافق وعناية بالهدف النبيل الذي كتبت من أجله معتبرة التنميق والبحث عن الجدة بحاجة إلى حرية تسعف في الالتفات إلى المذاهب الجديدة في فهم الشعر وتطويره ، وهو غاية لم تكن الظروف الثقافية ظروفا ملائمة لطرحها كما كانت الظروف في المشرق. لكن هذه الحقيقة لا تمنعنا من إبداء الملاحظات التالية على ما وصلنا من شعر مغربي مقاوم في القرن العشرين .

أول هذه الملاحظات أن الشعر الذي صور الحركات التحررية الكبرى حركة حمو الزياني ، وحركة عبد الكريم الخطابي ، وحركة أحمد الهيبة ، اختلف في أهميته من حركة لأخرى ، فحركة الزياني وحركة الخطابي لم تتوفرا إلا على نزر قليل من الأشعار، بل إن ما كتب من شعر مشرقي عن حركة الخطابي هو أهم ما قيل في هذه الحركة الكبيرة من الشعر. لكن حركة أحمد الهيبة ، على العكس ، فقد قيض الله لهذه الحركة شاعرا سوسيا كبيرا هو الطاهر الإفراني آمن بحركة الهيبة وبصاحبها الفارس الشاعر فأمل فيها تخليص المغرب من الأجنبي لذلك انضم للحركة وصاحبها في كل المعارك ، حتى إذا رجعت إلى تارودانت دون أن تحقق أهدافها عاد معها، وقد صور كل مراحل هذه الحركة في آمالها ونضالها وفي خيبتها ومرارتها .

إن شعر الإفراني في حركة الهيبة وإسهامه فيها من البدء إلى النهاية يذكرنا بصحبة المتنبي لسيف الدولة وهو يحارب الروم دفاعا عن الأمة الإسلامية ومناعتها في وقت تألبت عليها فيه مطامع الأجنبي وكيد الخونة في داخل الأمة كما هو حال المغرب أيام الهيبة . والفضل في الإبقاء على شعر الإفراني في حركة الهيبة بأتمه يعود إلى العلامة محمد المختار السوسي في كتابه الموسوعي "المعسول". وشعر الإفراني في حركة الهيبة الذي كان هو الآخر شاعرا ومن عائلة زاخرة بالشعراء يفصح عن توجهات هذه الحركة التي كانت تمد بمطامحها لتجاوز تحرير المغرب إلى تحرير العالم العربي والإسلامي وإحياء مجده الأثيل.

وقد حاول بعض شعراء المغرب في عهد الاستقلال أن يستلهموا الفترة التـــي رزح فيها المغرب تحت نير الأجنبي فكتبوا قصائد عن فدائية علال بـــن عبـــد الله ورفاقه الشهداء مثلما فعل الشاعر إدريس العلمي، أو أبو بكر اللمتوني عـــن ابـــن عرفة الذي ولاه الاستعمار ملكا فرفضه الشعب وسعى إلى اغتياله مثل باقي الخونـــة فقد كتب اللمتوني مسرحية شعرية عنوانها " بقيت وحدي " عن ابن عرفـــة الـــذي بقي وحده ومات وحده بعيدا عن وطن خانه فلفظه. لكن كتاب الرواية كانوا أحســـن حظا فقد أبدعوا مثل عبد الكريم غلاب في " دفنا الماضي" و" لمعلم علي " وأحمـــد زياد في " بامو " عن البطل محمد الحنصالي ... وغيرهما مما يخرج عـــن نطـــاق موضوعنا المحصور في إطار الشعر.

ولا ننسى أن الشعراء المغاربة المقاومين واجهوا المستعمرين ومن كان فـــي ركابهم من الممالئين الذين كان فيهم الشعراء الضـــالعون فـــي مـــدح المســـتعمر والإشادة بما قام به .

من هذه الصورة التي حاولنا تحديد ملامحها العامة ، ندرك أن الشعر المقـــاوم الملتزم لم يتخل عن رفع صوته رغم تدني الصحافة وإمكانياتها ، ورغـــم الأميـــة المتفشية، ورغم الرقابة المفروضة بصرامة على ما يكتب إلى الناس طمسا للحقيقـــة وإبعادا لتعميق الوعي وشحذ الروح المتوثبة للحرية.

لكن المعروف بداهة في الدراسات الفنية عموما أن الموضوع النبيل كمقاومـــة الأجنبي لا يخلق بالضرورة فنا رفيعا . والشعر المغربي المقاوم لم يسلم مـــن هـــذه الحقيقة فقد كان بعضه مباشرا ربما أثار المشاعر في زمانه ولكنه اليوم لا يثير فـــي أنفسنا الشعور القديم لابتعادنا عن العصر الذي قيل فيه بل إن الشعر الوطني كلـــه كالشعر الذي نتحدث عنه الآن ، أو الشعر الفلسطيني اليوم، يضـــع أمامنـــا ســـؤالا رئيسيا هو :

هـــل هـــو شعر خالد أو هو تعبير وجداني جماعي سينتهي بانتـــهاء القضيـــة التي أنشأته؟

الجواب بسيط هو أن الشعر خلوده لا يكمن في موضوعه وإنما في فنية التعبير وعمق الإحساس والموهبة الفذة، وهي خصائص تحبل بها أشعار وتفتقدها أشعار في زماننا وفي كل زمان. ومثلما تحتفظ أشعار المقاومة ببريقها وتأثيرها أحيانا وإن كانت عن حدث بعينه فإن بعضها يظل مؤثرا لأنه يتجاوز الحدث الواحد إلى غناء حب الوطن عند كل إنسان ، مثل قول علال الفاسي :

لذة العيش حياة الوطن	وفداه من صروف الزمن
هو بغياي التي أطلبها	وهو لي كل فخار أبتني
أنا لو لم أكن من أبنائه	كنت أهوى أن أراه سكني
أنا لم أخلق لنفسي إنما	أنا مخلوق لأجل الوطن
فإذا مت عليه فأنا	مطمئن لرضاه المثمن
فاغسلوا بالماء منه بدني	واجعلوا نسج بنيه كفني
وادفنوني في ثراه وضعوا	فوق قبري منه زهرالسوسن
واكتبوا فوق ضريحي بدمي	ها هنا قبر شهيد الوطن

أشعار المقاومة إذن كانت كتابات ملتزمة بقضية أساسية هي التحرير من نير الاستعمار. وهي كتابات تضاف إلى أشكال المقاومة الفعلية لتحقيق الهدف. لكن أثر هذه الكتابات في أبناء الأمة لم يكن إلا واجهة من الكفاح، ربما لم يبلغ ما بلغه تأثير المنشورات والأغاني والعمل السياسي في الخلايا والجمعيات والمنظمات. لكن المقاومة المغربية في مجالها التاريخي ظلت معينا لا ينضب للمبدعين والدارسين بعد الاستقلال لأن روايات ومسرحيات شعرية ونثرية استلهمت شخصيات وأحداث المقاومة المغربية في كتاباتها النثرية والشعرية كما ذكرنا سابقا وستظل المقاومة ملهمة اللاحقين من شعراء المغرب لأنها صفحات وضاءة من التضحية والفداء ونكران الذات ، ولأنها الثمن النفيس الذي قدمه الآباء لنعيش في أمة حرة لا تسلم مصيرها إلا لأبنائها الشاعرين بالمسؤولية وعبء الرسالة النبيلة

الشعر المغربي والمقاومة إبان الحماية
التعبير والموضوع

العربي الحمداوي*

لقد كان القول الشعري عند المغاربة يدخل في إطار تحقيق الذات العلمية للعالم ، أو وجها من وجوهها المتعددة ، لذلك لم يكن هما معرفيا من الهموم اليومية التي تشغل الذاكرة المعرفية لصاحبه ، ومن هنا لم يكن قائل الشعر يخرج عن نسق القصيدة العربية القديمة المتمثل في عمود الشعر شكلا وأغراضا ، وبذلك كان يعتبر حسن المحاكاة مقصده ، والبراعة في التقليد ديدنه . وتأتي الحماية الاستعمارية على المغرب ، وتشعر الذات المعرفية أن ذلك الدخيل يهدد كيانها حاضرا ومستقبلا ، وتحدث الرجة والذهول والاستغراب ، وتتفجر الوجدانات من أجل محاولة استيعاب ما حصل وتدارك ما ضاع ، ولم تجد أمامها إلا واقعا جديدا يفتقد فيه الأمن والأمان ، وتبدأ في محاسبة الخطوات وامتلاك السبيل للخروج من هذا المأزق الجديد الذي تخطى بثقله كل المآزق السابقة مثل

* أستاذ باحث بكلية الآداب / المحمدية .

ضياع الأندلس وانعكاس ذلك على النفسية المغربية واحتلال الثغور التي حررت بفضل يقظة المغاربة ومقاومتهم ، ولكن هذه المرة ، لا مجال للتأسي ، ولا موقع للانكماش و الانتظارية، إذ أن الأمة مهددة من الداخل بتمزيق الأوصال ، وتفتيت الكيان، وضياع الهوية. هذا على صعيد الذات من الداخل ، أما في محيط العروبة فقد بدأت الهوية الوطنية تجدد تثاقفها المعرفي عبر ما يغلى به الشرق العربي بعد استقلال أقطاره ، أو استعداد بعضها للاستقلال من الاحتلال التركي والفرنسي والانجليزي . وأخذت معالم النهضة الجديدة تترى مع بروز الفكر السلفي التنويري الذي سوف تمتد إشعاعاته إلى المغرب من خلال أبي شعيب الدكالي ومحمد بن العربي العلوي وعلال الفاسي وعبد الله كنون ... وكان هذا الاتجاه التنويري بما يتميز به من تسامح وعقلانية وفهم عميق لمشكلات العصر أمام تقدم الغرب ومكتسباته التكنولوجية وتخلف بلاد الإسلام ، أثر في إثارة أسئلة معرفية وحضارية سوف تحث الناس على مجابهة الاستعمار ومقاومة آثاره . وكانت القصيدة المغربية فضاء لاستجابة أصحابها لعكس هذا الواقع الجديد ، والدعوة في رؤية شعرية إلى جعل هذا الجنس الأدبي سلاحا في خدمة القضية الوطنية . وهكذا يلاحظ أن الشعر المغربي لحقبة الحماية قد خضع في شكله لنظرية عمود الشعر حيث لم يتجاوز أنساقها الموسيقية والدلالية ولكنه صبغها بصبغة الحقبة من خلال قيمة الخطابة التي تستحوذ على جل القول فيه ، ولكن شروطا آنية اقتضت هيمنة هذه الخطابة في نسيج القصيدة لعل لها اتصالا وثيقا بمقصدية الشاعر التي تدعو إلى التحريض والانتفاض .فلكي يقع الأثر الفني موقعا حسنا في وجدان المتلقي كان لابد من هيمنة الخطابة الإقناعية القائم أسلوبها على استعمال الجملة الإنشائية بمختلف أنواعها الاستفهامية والأمرية و الندائية والنهيية. دون أن ننسى حضور غنائية مفجرة لقيم تاريخية وحضارية عاشها المغاربة في ارتباط مع الأرض في مفهومها الجغرافي وبعدها الحضاري في نسيج

القصيدة ، مما جعل النشيد يبرز بكثافة في التعبير الشعري غناء جماعيا يدعو فيـــه الشاعر إلى المحافظـــة على الهوية والتغني بأمجادهـــا. حتى ترتبط بالوجدان أشـــد ما يكون الارتباط ــ وبطبيعة الحال ــ في أسلوب شفاف في وحداتـــه المعجميـــة وفي إسناداته اللغوية، وفي إيقاعه العروضي الخفيف. وكان الشعراء يتسابقون فـــي هذا القول الشعري حتى يلبوا لهفة المتلقي إلى هذا النوع من الإنشـــاء الغنـــائي .
وأخذ الشاعر يتفنن في أساليبه الإقناعية التحريفية في القصيدة من مقابلته الحاضر الاستعماري البئيس بالماضي المجيد الذي كانت فيه الصولـــة والغلبـــة للأجـــداد بجدهم واجتهادهم وفهمهم لشروط امتلاك القوة والمناعة في زمانهم مثلما يشـــير إلى ذلك الشاعر محمد المختار السوسي إذ يقول :

حتى متى شعبـــي يعبده الجهـــــل كأن لم يكن قطب السيادة من قبل
كأن لـــم يكـــن مديرا لـــتـــلكـــم الـــمماليك يحمى ما يشاء ويـــحتل
كأن لم يكن بين الشعـــوب محكمـــا إذا قال يحنـــى الرأس من رأسه يعلو(1)

نلاحظ أن محمدا المختار السوسي يعمل على بسط الواقع في مرارتـــه وســـلبيته بعدما ذكر بالماضي الذي تحققت فيه شروط التحكم والقوة ليجعل المتلقي يعيـــش في وجدانه بين لحظتين في ثنائية تلازمية متضادة تجعل الشعور بالذنب والخـــروج منه لا يتحقق إلا بنفي أسبابه وأسبابه يتحقق نفيها بالمقاومة التي تتعـــدد أشـــكالها كموضوع مهيمن في القصيدة المغربية إبان الحمايـــة ، وهكـــذا يـــهيء الشـــاعر المتلقي للخروج من هذا الزمن السلبي بزمن إيجابي قائم في أساسه على الحركـــة والتمرد والصمود حيث يقول :

رويـــدك أيهـــا الدهـــر الخـــؤون فأنـــا مـــن يـــموت ولا يخـــون
لنا عـــزم رصـــين هـــل يبـــالي بريـــح قاصـــف طـــود رصيـــن
فنكـــد ما تشـــاء فســـوف يأتـــي إليك غدا بنـــا الخبـــر اليقيـــن (2)

فالمقاومة والصمود هما المخرجان الأساسان من ثقل الزمن السلبي ومن أســـاليب التعبير الإقناعية التحريضية كذلك التعريض باليهود الذين كانوا في الذاكرة الشعبية

يتصفون بالجبن والخنوع. وإذا كان حالهم هذا وبنوا وطنا لـــهم باحتلالـــهم أرض فلسطين وإقامتهم عليها وطنا فكيف بالمغاربة يخســـرون وطنـــهم باحتلالـــه يقـــول عبدالسلام البقالي :

وطنـــي يأكل مالي في الوجـــود   مجدنـــا الضائـــع أنـــى سيعـــود ؟

كـــل قـــوم أرجعـــوا عزتهـــم   وبنـــوا أوطانهـــم حتى اليـــهـــود(3)

كل هذه الأساليب التعبيرية التحريضية تدخل في اعتبارها المتلقـــي الـــذي تعمـــل القصيدة على جعله يرتقي إلى مستوى المقاومة لهذه اللحظات السلبية من تاريخنـــا المعاصر ، ويمكن القول ــ من خلال تتبعنا للقصيدة المغربية إبـــان الحمايـــة ــ إن المقاومة تهيمن في كثير من صورها على نسيجها المدلولي في تقاطعـــها مـــع مواضيع الوطن والأرض والحرية . فهي تكاد تمثل نسيجا موضوعاتيا متلاحمـــا وحاضرا بكثافة في جميع الأغراض الشعرية : في الرثاء الذي كان ينصـــب علـــى رجالات المغرب وقادته الوطنيين حيث أنها تطغى على ذكـــر محـــامد المرثـــي الذاتية ، فكل محامده مرتبطة بما قام وضحى وأنجز للوطن ومـــن أجـــل الأمـــة وعليه فإن قيم المدح التقليدية لم يعد نموذجها هو المهيمن ، وفـــي الغـــزل نجـــد المعشوقة هي الأرض بما لها من تاريخ ، وبما يتـــهددها مـــن ضيـــاع ، وعلـــى مستوى شكل القصيدة نجد تلك المقدمات الطللية التي كانت من قوالـــب القصيـــدة التقليدية قد انمحت لأن الوقت ليس وقت ذكر الأتعاب التـــي يلاقيـــها العاشـــق أو المادح في الطريق إلى المعشوقة أو الممـــدوح ووصـــف الصحـــراء ووحوشـــها وكثبانها ومنعرجاتها ، وإنـــما نـــجد القصيدة تدخل مباشرة وفي جميع الأغـــراض ــ تقريبا ــ إلى الموضوع المقصود. ولعل هذا ما جعـــل للقصيـــدة المغربيـــة أن تستشرف الأزمنة التحديثية، وتتخلخل قيمها الجمالية التقليدية المتقوقعة في المحاكـــاة والتقليد. فهي بدأت تتأثر بالواقع وبراهنية الأسئلة الحضارية والثقافية مما جعل لـــها الانبثاق والحضور الإيجابي في الذاكرة المغربية لهذه الحقبة .

ويتلون موضوع المقاومة ، من مقاومة الجهل وأسباب التخلف والدعوة إلـــى التعلم إلى مقاومة الشعوذة ومحاربة أصحابها إلى المقاومة المسلحة المباشرة لإلزام الاستعمار بمغادرة البلاد وتحقيق السيادة الوطنية وتثبيـــت المقدســات الشـــرعية وهكذا نجد الشاعر محمد ابن إبراهيم وهو المشهور بعبثيته في الحيـــاة يســتيقظ ضميره ويقرن شعبه المتخلف بشعوب متقدمة ويعتبر أن الخلاص يكمن في التعلـم ومحاربة الجهل إذ يقول :

اكتم مـــا بي لـــو يـــــدوم التكتم ولكنه هـــم به الـــقلب مفـــعم

بني وطـــني أن الشعوب وأهلها قد استيقظت طرأ وأنتم نـــوم

هو الوطن المحبوب يرجو من أهله سماعا شكـــواه وأهـــله انتـــم

مضى زمن الجهل النميم زمانه وهـــذا زمان آن فـــيه الــتعلم

فبالعلم شادوا في البحار مساكنا وفيها مع الحيتان عاموا وعوموا

وبالعلم سارت في السماء ركابهم وقد اسرجوا متن الرياح وألجموا

أتاكم زمـــان يطلب العلم منكم بجد فإن لم تطلبوا العلم تندموا(4)

نلاحظ أن شاعر الحمراء يدعو إلى ارتياد مجاهل العلم والتعلق به لأنـــه هو السبيل الوحيد لاكتساب المناعة أمام شعوب هيمنت بفكرها العلمي على مفـــاتيح التقدم والحضارة. ونجد شاعرا آخر يتساءل تساؤلا إنكاريا عما حدا بقومه إلـــى أن لا ينهضوا والناس كلهم بالعلم قد تقدموا، وهي دعوة إلى مقاومة الجهل والشـــعوذة والتخلف ، وفي الصورة وصف لما كان عليه حال المغاربة من الوجهـــة الفكريـــة وما كانت عليه نفسيتهم من إيثار التواكلية وإبعاد العقل في التفكير ، والقناعة بمـــا هو في عرفهم حقيقة لا مجال لتغييرها يقول عبد الكريم سكيرج :

ما بال قومي لم ينهض بهم عمل والناس كلهـــم بالعلـــم قـــد عملـــوا

تقاعـــدوا عـــن فنون نال غيرهم تحصيلها وهم عـــن نفـــعهـــا غفلوا

لكن رايـــتهم وفي نـــحـــورهم كـــم سبحة وهـــم بســـردها اشتغلوا

هـــذا لـــه خـــلـــوة وذا بجلوته وذا بـــزاوية أخـــرى لـــه حـــول

ما في الزوايا خبـايـا بينهم وجدت   بل في الزوايا رزايا عند من غفلوا
تكاثرت في نواحي القطروانتـشرت   على اختلاف شيوخ عندهم وصلوا
من كـل ضامن أسرار لتـابعه   وكل فتح وأنوار لهـا انـتـحـلوا
لا،لا أوضـح ما سنوا وما افتـرضوا   من بعدما اتضحت بالمصطفى السبل
فـلـيـتهم شيدوا مـدارسـا بدلا   من الزوايـا وقالـوا علمـوا وسلـوا
فالعلم أجمل وصف الشخص في زمن   به تبصر دون قـومـي الـدول(5)

هذه صورة لما كانت عليه الحياة الفكرية في لحظة حاسـمة مـن تاريخنـا المعاصر وهي تدعو إلى الإشفاق والتأمل أمام هول الاستعمار ونتائجه. وفي هـذه الصورة صورة للمقاومة في حساب الذات مع ذاتها وفي حساب الذات مع الآخرين الذين يهددونها بأسلحة زمانهم المرتكزة على العلم والعقلانية والتكنولوجيا الحديثة

ومن مقاومة التخلف بمقاومة الجهل وإحلال العلم مكانه ومقاومـة الشعوذة بإحلال العقلنة مكانـها إلى المـقاومـة المسلحة المـباشرة للاستـعمار وفـي هذا الصدد يقول الأستـاذ الشاعـر المرحوم عبد اللـه كنون إثر حـوادث الدار البيضاء فـي 8 أبريل 1947. وما أكثر الحوادث التي كـان للشعر فيـها حضور وجداني ولغوي متميز وثق بطريقته الغنائية لها :

أمـا في حادث البيضاء وعظ   لمـن يرجـو من الأغـراب رفـدا
أما فـي حـادث البيضاء زجـر   لـداعـيـة لـهـم مـا شام رشدا
ألـم يبـلغ صـداه كل أرض   فـمـن مـنهم تعطـف أو تنـدى
ألـم تنـظـر فظائعه الـجوالى   فما صـدت عـن الإجـرام صدا
ترى الأم الحنون على صـواب   كـأن جـيـوشها لـم تـأت إذا
كـأن عبيـدهـا لـم تجـن شيئا   ولـم تحـصد نفـوس العـزل حصدا
ولـم تبقـر بطـونا من نسـاء   حـوامل ثم تـقـتل بعـد ولـدا
ولا جاءت بتـمـثيل فـظـيـع   تـذوب لـه النـفـوس أسـى ووجدا
مئات مـن ضعـاف الخلق يجنـى   عليـهـم دون ما ذنـب ويعـدى(6)

إذا كان الأمر إذن بهذه البشاعة في حـــوادث الــدار البيضـــاء ، وكـــانت الذاكرة الشعرية أرخت له بهذه الصور الاستفهامية مستنكرة محرضة مدينة فمـــا على المتلقي إلا أن يحدث رد فعله، لذلك سوف نجد الشاعر في المقطـــع الآتـــي وفي نبرة خطابـــية قائـــمة على استعمال جملـــة الأمـــــر يستـــنهض قـــومه للمقاومة المسلحة :

بني قومي أفيــقوا مــن سبات فإن الحادثــات تجــد جــــدا

وهــذا خــصــمكم يرمي لأمر فلا يــأخذكــم فــردا فـفــــردا

عليكم باتـــحــاد في كـفـــاح لــمــن لــكــم بــقــوته تحدى

وإن الله نـــاصركـــم علــيه فشدوا يـــا بني الأحرار شــدا (7)

يتبدى ــ كما هو الحال في الأزمات التي تعترض الأمم أن ذوي الفكر فيـــها يستنهضون الضمائر اعتمادا على ثوابت معينة كـــالدعوة إلـــى الوحــدة والتكـــافل وتكاثف الجهود. على أن هذه الوحدة يدعمها الإحساس بالصمود البشـــري فـــي المغرب المقترن بالصمود في بعض الفضاءات الجغرافية أمـــام عـــوادي الزمـــن ونوائبه ويدعمها تلاحم الأجناس المكونة لنسيج الشعب المغربي على الرغـــم مـــن اختلاف العنصر وتباين اللهجات ، وبذلك تصل الوحـــدة الوطنيـــة إلـــى أقصـــى درجات تلاحمها من أجل الدفاع عن الهوية والحفاظ على الوطن . يقول الشـــاعر أحمد عبد السلام البقالي :

على قمم الريـــف والأطـــلس وأرض المغـــاربـــة الـــخالـــديـــن

ســأرفع منــتـــصــرا قبــسي فـــإني أنـــا شبــل ذاك العـــريـــن

أنـــا بــربــري أنـــا عــربــي وأنـــــدلــسي أنـــا مــغــربــي

صـــهــرت مــن التبر والذهب ومــن خــير أم مــن خــيـــر أب (8)

إذا كان الأمر كذلك في الصمود والمقاومة وانصهار الأجناس ، فمـــا علـــى المرء إلا أن يلبي داعي الوطن وهكذا يتغنى المرحوم عـــلال الفاســـي بـــالوطن ويجعله البؤرة المستوعبة لكل أشكال الفعل والتضحية يقول الشاعر علال الفاسي:

لبيك يـا وطني بكل جوارحي فكفى بصوتك في الضمير خطيبا
لا السجن يحبسني عليك ولا الأذى يـأبـى علـي سبيلك المحبوبا
في كـل يـوم لي معارك جمة جعلت مكانك في الجهاد رحيبا (9)

تبدو العلاقة بين الشاعر والمخاطب علاقة حميمة تواصلية حيث يغدو الوطن هو البؤرة الأساس ، لذلك فإن ما يقود خطى القول الشعري يتمثل في ثنائية: أنا / أنت ، وبذلك كان التعبير عن هذه العلاقة تعبيرا مباشرا لا مجال للمتكلم فيه أن يقولبه في قالب فني يرتفع فيه مستوى الجمالية إلى أقصاه ، وبذلك يبدو الوطن صوتا حاضرا في الضمير يوجه ويرشد نحو الإيجابي من جلائل الأعمال ولن يكون هذا الإيجابي إلا متمثلا في المقاومة والدفاع عن الأرض بمختلف السبل . وفي غنائية أخرى بارزة وفورة وجدانية عارمة يدعو مصطفى المعداوي صراحة إلى حمل السلاح ومقاومة الاستعمار بالرشاش يقول :

يا إخوتـي فلنحمـل السـلاح نمضـي للجهـاد
ما بيننـا إلا أخ يفـدى بـلاده بالفـؤاد ...
ولنمتطـي سفـن العـزائـم نقتفـي أثر المنـادي
ولنسكـن الجبـل العتيـد ونرتمـي بيـن النجـاد
بسلاحنا بالعـزم نقضـم حصنهـم حصـن الأعادي
إنا أعـدنـا مـجدنـا يـا ويـل أعـداء البـلاد(10)

تتبدى الدعوة إلى المقاومة من خلال توجه الأنـا إلـى الإخـوة المتلقين المباشرين عبر المنادي واستعمال فعل المضارع المقرون بلام الأمـر المتكـررة ويبرز ضغط هذه الدعوة من خلال تقديم القربان الوجداني الداخلي مـن أجـل أن تستعيد الذات تحريرها وهويتها . وجزاؤها في ذلك جزاء المجاهد الـذي يجعـل لحظة المجد الغائبة تستعاد لتنفي لحظة الذل الحاضرة . هكذا إذن كـانت القصيـدة المغربية حارة صادقة في معانيها وفي جعل الذات واللغة والعالم الخارجي تتلاحـم تلاحما جديدا ، خالقة بذلك تعالقات يميز التوتر والغنائية والخطابة . ممـا جعـل

لآليات التخيل أن تبقى مرتبطة بالمحسوس والمباشـــر ، متعلقـــة بالدفـــاع وتوتـــر الوجدان ، وتبئير القول الشعري حول قلق الحقبة الجمـــاعي النـــاتج عـــن اليـــأس المتفجر في حنايا الذات الجماعية . المنبثق عن آثار الصدمة الحضاريـــة الجديـــدة التي رهنت مناطق التفكير المغربي لزمن ليس يسيرا . فكانت بحـــق بدايـــة تعبيـــد الطريق نحو تحديث الإبداع المغربي في إحدى مناطقه : القصيدة.

الـهـوامـش :

1) — محمد المختار السوسي نقلا عن محمد بن العباس القباج ، الأدب العربي في المغرب الأقصى ، الجزء الثاني طبعة وزارة الشؤون الثقافية — المغرب .1979 ، ص :.64

2) — محمد المختار السوسي ، دراسة لشخصيته وشعره ، محمد خليل ، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر ، الدار البيضاء 1985 ، ص : 307.

3) — أحمد عبد السلام البقالي ، أيامنا الخضراء ، المطبعة الملكية ، الرباط ،1976 ص 35.

4) — محمد بن إبراهيم نقلا عن ، الخلاصة أحمد ، شـــاعر الحمـــراء فـــي تـــاريخ الأدب المعاصر ، الطبعة الأولى 1987 ص : .141

5) — عبد الكريم سكيرج نقلا عن : عبد الله كنون ، أحاديث عن الأدب المغربـــي الحديـــث الطبعة الثالثة ، دار الثقافة ، الدار البيضاء 1981 ، ص : .152

6) — عبد الله كنون ، لوحات شعرية ، تطوان ، 1966 ، ص : .53 – 52

7) — نفسه ، ص : .53

8) — أحمد عبد السلام البقالي ، أيامنا الخضراء ص : .38

9) — علال الفاسي ، الديوان "روض الملك" القسم الأول من الجزء الثاني إعـــداد وتحقيـــق عبد الرحمن العربي الحريشي ، مطبعة الرسالة ، الرباط 1987 ، ص : .30

10) — مصطفى المعداوي ، الديوان ، أعده وقدم له ، أحمد المجاطي ، محمد أديب الســـلاوي محمد إبراهيم الجمل دار الكتاب ، البيضاء . بدون تاريخ ، ص : .20.

الـمقاومـة في الشعر الـملـحـون

عبد الله شقرون *

يسعدني أن يكون هذا العرض على شكل قصيدة الشعر الملحون ، مجـــزءا إلى أقسام متتابعة.ولعل الأفضل من أي تحليل ، والأفصح من أي تعليـــل هـــو أن نحاول الوقوف عن كثب،على بعض النماذج الشعرية ،مع تحديد ظرفيتها والإشــارة إلى بعض مقاصدها.

القسـم الأول :

يــقول أحــد مشاهير شعراء الملحون في قصيدة حول اســـتنهاض الــهمم أنفــة ومقاومة وجهادا:

أســاهــي خــذ أخــبــار • وافهم تــعــبــيــر الــقول ولــيشــارا
نوصيك يا غفيل احــتــال لامرلاجهاد ولـــعــدا جــارو

• – أستاذ باحث بوزارة الثقافة

حَـارَتْ لَـنَـا لـفْـكَارْ • من ذَا الأمـر غـقُـولـنَـا سـكَارا
وَاحْـنَا غافلين ولْـغـدو مشغول كيحَـصـن فَـجْـدَارُو
بالـجَـهْـدِ مْـعَ الكْدارْ • وَانْـوى يْـسوقْ لـقـلـوبْـنَا مْـرارا
والقوم غابطة فالدنيـا ،وهَـلْ لِيـمان بالغصة حَـارو
الرومي مَـثْـلَ الـنـارْ • قَـالو ناس التشْـبِـيـه والـعْـبَارا ،
إذَا مَـاطـفِـتـْهـا فساعه تـنْـزِيـدْ ،هـَذا تحكارو
لـيـسْ بـحَـالـُو غـدارْ• طامَـعْ فَـمْـدونَ الـغْـرْب بـتْـمَـارا
لهلا يوصلو، ولا يـُـوفِـي ليه ظَـن، هـُوَ وانْـظَـارو

ويصور هذا الشاعر الواعي المأساة التي أصابت السكان المغاربة يـوم أن غزا العدو المستعمر مدينتهم وأحوازها، واستولى عليها ظلما واعتداء. ومن خـلال الاستماع إلى وصفه يخيل للواحد منا وكأنه يشاهد في التلفزيـون مأسـاة إخوتنـا وأخواتنا أهل البوسنا والهرسك المسلمين المقهورين . فقد قال هـذا الشـاعر الفـذ وهو الحاج إدريس الحنش المتوفى شيخا مسنا سـنة 1910، فـي قصيدتـه هـذه المشهورة باسم " التطوانية " ، مذكرا فيها باحتلال مدينـة تطـوان مـن طـرف الاستعمار الإسباني سنة 1860 ومذكرا بما دهى إذ ذاك قومنا من الـهول ، نتيجـة الغفلة والإهمال والتقاعس :

خـرْجـو فـالليـلْ ابكـارْ • والصـبْـيـان أو نسوَان بلْجهارا
فالـبْـابْ كينوحو على المدينه أو كـُـل جار فـرْقْ جَارو
كم من شـُيابْ اكبارْ • وعكايـزْ صارو فـلـخـلا حـيَـارى
واشحـالْ مَنْ مْرِيضْ يبكي عنها ، اشفق بالدمع أبْصَارو
يا حَسْـرَا عَنْ دِيارْ • واجْـوَامَـعْ بَادُوا بَعْدَ لـعْـمَارا
ومْـسَايَدْ للقراي بالواحْ مْـسَـطرين جاحو أو اهْـجَارو

وتأتي بطبيعة الحال ، وكما هو منتظر في قصيدة شعرية من هـــذه القيمـــة الأدبية والوطنية المميزة الدعوة ، أولا ، إلى الجهاد والمقاومـــة وحمـــل الســـلاح لتحرير حاضرة الحواضر ، تطوان والدعوة ، ثانيا ، إلى إيقاظ الـــهمم ، والدعـــوة ثالثا ، إلى الاستقامة الدينية الصادقة :

مَا يَـسْـتَـنْـهَـل غَـرْبِـنَا هاذ الخَتـلان مْـعَ كثرة لجنود والمـال ولـْبنيـن
خَالـفْـنَـا قَـوْل بــه أمرنـا الديــان واغـبطنا فـلْـهتوف عن الأمر لـمْبين
الله يجـُـود بالنــصْــرِ العـلاّم الدَّيـان

القسـم الثانـي :

وقبل ظهور تلك القصيدة من الشعر الملحون خلال النصف الثاني من القـــرن التاسع عشر ، عرف الأدب المغربي الشعبي لونا آخر من ذلك الشعر فـــي الجـــهاد والمقاومة في منتهى القرن الثامن عشر ، أثناء الحملة الفرنسية التي شنها نـــابوليون بونابارت على مصر (1799 – 1798)، وكان الشاعر المغربي الكبير محمـــد بـــن علي الشريف ولد أرْزِين ــ الذي عاش من سنة 1742 إلى سنة 1822 ــ قد صـــاغ قصيدة قيمة في الجهاد والمقاومة واصفا فيها مشـــاركة جماعـــة مـــن المجـــاهدين المغاربة في معركة الغورية ، وكان أفراد تلك الجماعة ــ ولعلهم من الحجاج ــ قـد سافروا إلى مصر مجاهدين في سبيل الله إلى جانب إخوتهم المناضلين المصريـــين ضد تلك الحملة الاستعمارية المبكرة . وقد قال هذا الشاعر في قصيدته :

سُـبْـحَـانْ مَـنْ فَـرَضْ عَـلـيْـنَـا الـجْـهَـاد فَـرْض وَاجِـب
وخَـيْـرُ كُـل مَـوْتِ فِـي الـجْـهَـاد
وكُـل خِـير يُـغْـنَـمْ
فِي الـمَـبْـدا وفْـي الأخِـر
بـالـجْـهاد يتفوق الإسلام على النصارى
فَـازُوا أهْـلَ الـجْـهَـاد في مَصَر واهْـوَان كُـل صَـعْـب

وتمتاز هذه القصيدة من الشعر الملحون المغربي والمسماة " المصرية" بـــ "حربة" ، أي " بلازمة "، تتردد خلال مقاطعها وتقول :

بـشَــار الـــمْــشَارْق جَانَا حَتى لـلَـــمْـــغَارب ،
بَــشّر الإسْـــلاَم : مَصَر ولاَتْ للإسلام !
لِـــنَا ولِكْ يَا مَصَر
واجب البشاره اللي ما كيفها بشارة

وتعتبر قصيدة الشعر الملحون هذه إشادة بالمقاومين المسلمين ، المصريين والمغاربة، الذين تماسكت بينهم لحمة القتال والنضال جنبا إلى جنب منذ نحو قرنين اثنين من الزمن ، وقبل معركة الجولان بسوريا ومعركة سينا بمصر .

القسم الثالث :

كخلفية تاريخية وأدبية جادة لنضال المغاربة ومقاومتهم للعدوان الاستعماري في القرن العشرين ، نبقى مرة أخرى مع جهاد أجدادنا وصمودهم في القرن التاسع عشر وبالضبط حينما هجمت السفن الحربية الفرنسية على مدينة سلا يوم 26 أكتوبر 1851 وقد حدثت تلك المعركة البحرية الأرضية ، وكانت رجة خطيرة بالبلاد ، كما هي مفصلة في بعض المراجع التاريخية. وكان هناك حينئذ شاعر من أبناء سلا اسمه محمد بن لحسن لا نعرف اليوم من إنتاجه إلا القصيدة التي سجل فيها مقاومة المقاومين وجهاد المجاهدين في ذلك اليوم المشهود دفاعا عن استقلال وطنهم وسيادة أهليهم . وإلى الآن يردد السلاويون المولعون بفن الملحون اللازمة المتكررة لتلك القصيدة ، وهي :

أبن حَــســـــون ، افـــــارس العناية ، سلطان ســـلا
أنت وسيدي بن عاشر
حاشا والله بلادكم لا دخلوها كُـــفار

وهذه القصيدة بليغة في معانيها ، لكنها يسيرة في مبانيها ، وتبدو في مجملها عبارة عن حكاية منظومة حول المقاومة الشديدة التي لقيها الأسطول الفرنسي المعتدي من قبل مجاهدي مدينة سلا في تلك المعركة .

ويبدأ الشاعر محمد بن لحسن كلامه بالتوجه إلى الله داعيا قائلا :

يا مَـولاَيْ حَـرْمَ النبِـي وحَـرْم أصحابو تـَحْـمِي الاسلام واهْـزَم الكَـافِر
غـلَـبْـنـَا يا ربِّي عليـه واَهْـزَمْ جَـيْـشَ الـكُـفار

ثم يأخذ في وصف عدوان ذلك الأسطول الفرنسي وما قام به من رمي المدينة وأهلها وأحيائها بالقنابل الفتاكة ، من البحر ، وما قاومه به المجاهدون السلاويون ، إلى درجة أنهم ضربوا علمه، وحطموا بعض ألواحه في ذلك النهار الذي كان نارا ودمارا ... ومما جاء في تلك الخريذة :

والـقاوَةْ أهل الإيمان بالمدافع والكور حَـتى ذهَاوا الـكـَرْيه الداسـر
طاح علامو وتشتوا ألواحو مَـغـمِـي الأبْصَـار
والكـُور بْـغيظ كـثِير لاحـُوا
وبـقَي فالدرب مـنَيب مَـقـسـُوم
ومـدَافـَعـنَا فـرَعـُوا الـنـوَاحُو
هذي شـفـَايْـتـُوا بين كـُنُوس الروم

وقد كان أثر المقاومة ضد الاستعمار والعدوان بارزا في محيط الشاعر محمد بن لحسن تلك المقاومة التي خاضها المسلمون كذلك في مصر – كما أومينا – وما إليها من البقاع الشرقية وفي الجزائر ، ولذلك فإن هذا الشاعر يقاسم فرحة أهل سلا – سلوان – جهاد الصامدين هناك ، ويقول :

أفــرحـــنــا وســعدنــا في مدينة سلوان على الجهاد ما كان فماصر
في مدون الشرق وناس الجزاير تــعــطي الأخبار

ومما تزدهي به هذه القصيدة " السلوانية " أنها استعراض يكاد يكون كــاملا لأهل الفضل والصلاح والتقوى وأولياء الله المدفونين في مدينة سلا ، وفي طليعتــهم كان أولئك المجاهدون الأبرار الذين سجل لهم الجهاد المقدس المشرق من المواقــف والبهيج من الصفحات في مقاومة أعداء المغرب ، وفي الدفاع عن حوزة الإسلام .

صلاح سلا لأسـيـاد نمجـد هما حــجــابــنــا ويقهــروا الطغيــان
بــهــم نفــخر ونـــصــول كيف صالـــوا واحظـاوا ســلا بالسراتــه تتشــاخــر
مــحــزومــين للــجــهاد ما يــقــعــدوا فـــي كـــل نـــهـــار

القسم الرابع :

وإذ ننتقل إلى المقاومة في الشعر الملحون خلال القرن العشرين تصادفنـــا في الطليعة أحداث جسام فجرتها اعتداءات الاستعمار الفرنســي ســنة 1907 علــى مدينة وجدة ونواحيها من جهة ، وعلى الدار البيضاء ومنطقة الشاوية ، مــن جهــة أخرى ، الأمر الذي ألهب مشاعر الشعراء في ميدان الملحون ، ومن بينــهم كــان الشاعر هاشم السعداني مؤلف قصيدة " دخول وجدة "، والشاعر عبد الهادي بنــاني مؤلف قصيدة " الدرر البهية، في مدح رجال الشاوية " ، وأولهما توفي ســنة 1933، بينما كان ثانيهما قد انتقل إلى عفو الله قبله ، في سنة 1925، وهما معا من فــاس ، ومن كبار شعراء الملحون فيها .

إن هاتين التحفتين تتناولان فعلا المقاومة ضد اعتداءات المســتعمر علــى أراضينا وأهلينا في وجدة وما جاورها ، وفي الدار البيضاء وأحوازها ، وفــي أرض

الشاوية والمعروف في حوليات التاريخ المغربي أن سقوط مدينة وجدة في قبضـــة الاحتلال الفرنسي سنة 1907 قد أدمى قلوب المغاربـــة أجمعيـــن ، شـــرقا وغربـــا شمالا وجنوبا لاسيما والتمهيد لذلك الاحتلال كان متواصلا منذ أمد بعيد وخاصـــة منذ سنة 1902، حيث كان المستعمر قد تمكن من الاستيلاء على مســـاحات شاســـعة من الواحات المغربية الشرقية، وما تلا ذلك من العداء الشعبي ضد وجود الأجنبـــي الغاصب على أرض الوطن ، هذا الأجنبي الذي بات يخلق شتى الأسباب والمسببات تارة بمطالبة سلطات المخزن بالاعتذار عن حدوث أي حادث أنى كان وكيفما كـــان وتارة بمطالبته المخزن بتعويض فعلي ولو كان ذلك الحادث المصطنع الموحي بهذه المطالبة قد وقع بعيدا عن وجدة ، كما حدث في الحوز ونواحي مراكش مثـــلا أو في طنجة ونواحيها ... إلى درجة أن الوقاحة الاستعمارية كـــانت أحيانـــا تطـــالب بعزل قائد أو باشا مغربي لم يرق لها في عينها ... والأمثلة كثيرة في هذا الصدد.

وأنتم محيطون بحادث طنجة ــ إذ ذاك ــ عندما قتل أحـــد الفرنســـيين هنـــاك فنودي على الأسطول الحربي الفرنسي ، كما أنكم تعلمون جيدا الذريعة التي اتخذهـــا المستعمرون من حادث قتل الطبيب الجاسوس موشان في مراكش يـــوم 19 مـــارس 1907 فحينا دفعت السلطات الاستعمارية في الجزائر بجيشها من مدينة مغنيـــة إلـــى وجدة ، وقوامه كان سبعة آلاف جندي مدججين بالسلاح والعتاد ، فقاموا بـــالتحرك إلى احتلال وجدة، وكان هذا الاحتلال المرير يوم 29 مـــارس دون مقاومـــة مـــا . ورسالة عامل المدينة إذ ذاك أحمد بن كروم التي أوردها صديقنا محمـــد المنونـــي في الجزء الثاني من كتابه " مظاهر يقظة المغرب الحديث " يرجع إليها مـــن شـــاء فإنها تؤكد أن أولئك المعتدين قالوا لذلك العامل المغربي : " إن لهم علـــى المخـــزن دعوة في شأن فرنسوي قتل بمراكش ".

ولنا أن نتساءل : لماذا لم تكن في وجدة قوة مغربية لرد الفعل الغاشم والقيـــام بالمواجهة ؟ ــ هنا يقول المؤرخون إن أولئك المستعمرين كانوا حينئذ قـــد شـــغلوا المخزن بمشكل طنجة والدفاع عنها حيث قاد وزير الحربية المغربية محمد الكبـــاص

قوة عسكرية هناك قوامها ثلاثة آلاف من المشاة وأربعمائة من الفرسان ... واشتد غضب الشعب ضد احتلال وجدة، فكانت قومة جماعية وانتفاضة عارمة ، وبالتالي كانت مقاومة نفسانية عبرت عنها قصيدة الشعر الملحون التي يقول فيها ناظمها هاشم السعداني :

يا الاسلام ابْكيوا عْلَى دْخُول وَجْدَة • دُون حَرْب غنمنها الَعْدُوونَالْ المَرَادْ

وهذه هي اللازمة ــ أو الحربة ــ التي تردد بعد كل قسم من الأقسام الخمسة عشر التي تتكون منها القصيدة. وأنا أنتقي منها هنا بعض الأبيات على سبيل المثال والتدليل ، يقول الشاعر :

كِيفْ يَرْضَى بالذُّل اللي الله عَزو
بْعَز دِين الاَسْلاَمْ عْلَى الأدْيَان مَعْزُوز
مُوتَ اَلْعَنَايَة فَنْهَارْ المَلْقَى وبرز
خِيرْ من عِيش الذل فْكُل خيرْ مَبْرُوز
الثْنَا لَهَلْ الفَضْلَ خِير مَا يكنوزو
كُل مَنْ مَات على عَزْ ثْنَاه مَبْرُوزْ
ما بْقَاتْ فْعِيش الدنْيَا لْيُومْ لذا
عَنْد مَن دِينُو وَيْمَانُو فْقَلْب لَفْنَادْ
مْصَرفِينَ الوَقْت فْعَسَى الْيُومْ غَدا
يَغِيبْ نَجْمُ النحْسِ وَيْنْبَى هْلاَلْ لَسْعَاد

ويتوجه الشاعر هاشم السعداني إلى السامعين من الشعب المغربي ناصحا إياهم بالمقاومة والقتال ، ومبشرا المجاهدين بالعز الأبدي الذي لا يعادله عز، فلا

حلاوة في الدنيا تشبه شهد العسل المتمثل في إهراق دم العدو الغاشم ، فـــهو مــدام العز المكين :

مَا بْـقَـى إلا العز أيَـا جْـمِـيعْ لسْـــلاَمْ — شَـمْــرُو لِلْجِــهَاد أتْــعَمكُــم حــرَمْ
كـُــل مَنْ مَاتْ على عَز لــَسْــلاَمْ يُرحَـــامْ — تَابْــعَاهْ الحُــورْ تْــخَطْــفـــو فكُــلْ صَنَمْ
مـــــن كْـــمَل مَخْـــسُــوبُو ولْقَى كَيُوس لحمام — عَاشْ عِيشَ الأبَــد فْطيب كل نَعَم ومَنْ بقى
يتبخـــــتر في العز بـــين لعـــدا — رَاسْــمُو مَكْـــتُوبْ فَرَقْ لَبْذُور لَسعـــــاَ
مَابْحَال كمــيِــد الــعديَــان وَادْ شَهْــدَا — ولا بْـــــحَالْ مْدضام العَدُو ضيقْ وانْــكَادْ

وهذه القصيدة مديدة النفس ، زاخرة بالصور ، متدفقة المشاعر حسا وطنيـــا صادقا. وفي الوقت الذي لم تكن موجودة وسائل الإعلام والاتصال الكبرى انتشـــوت أبياتها انتشارا سريعا بين الناس ، وانتقلت مثل قنابل المدفع النفاذ ، من فـــاس إلـــى وجدة، ومن فاس إلى الدار البيضـــــاء ومراكـــش وتـــافيلالت ، ورددهـــا الشـــيوخ والمنشدون في شتى المحافل الشعبية، ومجتمعات العلماء وسلطات المخـــزن حتـــى قيل إن طلبة القرويين كانوا يتمثلون ببعض أقسامها ، وبات أهل الحرف والحنـــاطى في فاس وسلا ومراكش على الخصوص يتغنون ، في ألم ولوعـــــة وتـــأس ، بمـــا اشتملت عليه من " العروبيات" التي تسبق كل قسم من أقسامها الخمسة عشر ومنـــها هذا "العروبي" الذي يسبق قسمها الثامن ، وهو :

مَنْ بَعْــدَ ماطْغَى وجَــار لَــعْـــدُو وتقْوى — أتشوى فَمْــغَــزل لـــْـيُــوث الشَــوِيــــا
نَــكْسَــرْ بَــنْـــدُو وطَاحْ وتَمْــزقْ وطْوَى — ولْـــقَــاتْ مْــحَــالْ صيلتو كــُـل بْـلِيــــا
نَــسْــقَــوْا كْــيُـــوسْ مْــلــيـــه من لــمَــنْــيـــا

وهذا كلام واضح للمتعودين على كلام الملحون ، وإنما نؤكد هنا نثرا بقصد الربط بين هذه القصيدة والقصيدة الأخرى حول الشاوية . إن ذلك الكلام أو ذلك "العروبي " يثبت أن العدو حمله طغيانه على مزيد الغرور بقوته ، فغامر بالاعتداء على الشاوية ، فرمى بنفسه إلى مشواة (أو شواية) للأسود الشجعان الذين جرعوه كؤوسا مليئة موتا زؤاما (" يسقوا كيوس مليه من لمنيا ").

القسم الخامس

والملاحظ في قصيدة الشاوية - " الدرر البهية في مدح رجال الشاوية " - أنها قد جاءت بمثابة نص تاريخي منظوم في المقاومة ضد الاستعمار ، والإشادة بالمجاهدين الذين وقفوا في وجه الاستعمار ، فاستهانوا بالموت في سبيل الدفاع عن حريتهم ووحدة ترابهم ، وشرف أهلهم. وفي ذلك يقول الشاعر عبد الهادي بناني صاحب تلك القصيدة :

ياهل الشاوية صولو بعز واصرار   بالجهاد فلجحود خنازر النصارا

وتعتبر مقاومة أهل الشاوية للاستعمار كما تعتبر أحداث الدار البيضاء - سنة 1907 من جملة الوقائع الساخنة في التاريخ المغربي خلال القرن العشرين ، لاسيما وقد حدثت ، هي أيضا مثل دخول وجدة ، سنة واحدة على انفضاض أعمال مؤتمر الجزيرة الخضراء الدولي بشأن قضايا المغرب المتعددة ، ومنها تراكم الديون وإصلاح الجبايات وما إلى ذلك .

والأحداث الكبرى هي دائما وليدة أحداث أصغر منها شأنا وحجما ، ولذلك فإن الأحداث الدامية التي شهدتها الدار البيضاء أيام 5 و 6 و 7 أغسطس 1907 والانتفاضة الصارمة التي عرفتها هذه المدينة حينئذ كانت ، كما لا يخفى وكما تعلمون ، نتيجة للمطالب الفرنسية الرامية إلى إذلال المخزن وابتزاز المغاربة من خلال الحصول على مداخيل الجمارك بمقتضى عقد الجزيرة الخضراء وكذا من خلال ما كان يكلفه ، مظهرا أو مخبرا ، بناء الميناء

الجديد والسكة الحديدية هناك ... ثم زاد في الطين بلة استدعاء المفوض الفرنسي البارجة الحربية " كاليلي " من طنجة إلى الدار البيضاء ، وخروج سفينتين حربيتين من ميناء طولون في فرنسا إلى الدار البيضاء ، قرار من الحكومة الفرنسية بدعوى حماية جاليتها في الدار البيضاء، وكان ما كان من الاعتداء الغاشم على تلك المدينة المغربية ومن احتلالها وقتل الأبرياء المغاربة فيها تنفيذا لمخطط مبيت ، فكانت انتفاضة قبائل الشاوية ورجالها المجاهدين وصلحاء المغرب الأبرار. وهنا يقول الشاعر في قصيدته عن العدو المعتدي :

بدا يحارب لحرامي كل يوم قتال	لين ما رد الراس فساعتو يولي
اغربت شموسو بعد الطلوع ونضال	طاحت اسوارو بقى فالقضا متلى
كل يوم يجيب محله هبيل لهبال	جاح ، وبقى فهموم محاينو مقلي
اجمعت الروم وقالوا انكثروا لعداد	جمع قاوي ما ينتهي ولا يلو حد
نحوزو قصبة مديونة يطيب لمراد	عاد لحكام نقولو فيدنا تسكد
جاو بالحيلات ودخلو لها الفساد	حوزوها واصبح اوطانها منكد
زاد فالحين لقصبة برشيد بطار	خرجوه بحيلات ألا نوى الكارا
ياهل الشاوية صولو بعز واصرار	بالجهاد فلجحود خنازر النصارا

ويستمر الشاعر عبد الوهاب بناني في وصف تلك المقاومة الفعلية دون تحفظ ولا تردد ولاسيما وهو كان محيطا بدقائقها ، وكأنما كان صحافيا يعيش في مصدر الأخبار ، فقد كان من جلساء مولاي عبد الحفيظ ، سواء عندما كان هذا الشريف خليفة للسلطان في مراكش أو بعدما أصبح سلطانا على إثر تنحية أخيه مولاي عبد العزيز ، في زحمة تلك الأحداث المتوالية ... كان هذا الشاعر لا تأخذه في ذكر الحقيقة لومة لائم ، مستعملا أشد التعابير وأقساها اعتبارا لظروف الحرب فهو يقول مثلا عن المجاهدين وفعلهم القتالي في الأعداء :

سَارَتْ الـــقـوْم تـكَزرْ فلكـلابْ تكزير	ما نفعهم لا عد وعــدُه ولا مــدَافـع
جَاتْ مَنهـم فـذنـاب الخيل كَمْ مَنَ يْسيرْ	شُوف نَجْم الدين فبـرج السعودْ طَالَعْ
دَرمـُوا زادوا لــسَـطات يا الحـضـارْ	بعد ما قاستهم مــنْ قبلها خـسَـارا
زَادْ عمر السكتاني سريع غـبـارْ	حـوزْ البنديرة باميز والشطارا
يا هل الشاويه صـولو بعـز واصنـرَارْ	بَالــجْـهَاد فلجحـود خـنازر النصـارا

ومن يطالع قصيدة "الدرر البهية، في مدح رجال الشاوية" عن المقاومة المغربية في مطلع القرن العشرين قد يدرك من خلالها ما قد لا يدركه من مطالعته بعض المراجع التاريخية ، وكما أن الشاعر ذكر فيها اسم قائد المقاومين المغاربة عمر السكتاني ، فكذلك ذكر ، لكن بالتبور واللعنة ، الجنرال درود Drude والقائد الذي خلفه الجنرال داماد بصفتهما كانا على رأس المعتدين ... ويصف ما خلفه الأعداء في الساحة عند انهزامهم من " كرارس د القرطاس"، ومن المدافع والمهارز بل وحتى من " الشمارر"، أي من القبعات القتالية والحربية ... وأشار فيها كذلك إلى أن الجنود المعتدين الذين فروا بأنفسهم بعيدا ... إلى الرباط مثلا، وصلوا إليها حفاة عراة ويقول : " كم من كافر دخل للرباط عريان ". وبعدما يشير إلى فرحة "البروص" ، أي الألمان ، بانهزام جيش " الفرنصيص "، يشير إلى جريدة أسبوعية يبدو من كلامه أنها كانت بقلم صاحبها تكيل بمكيال العداء للمغرب والمغاربة في تلك الأثناء ، فيقول :

أشـحَالْ ما خَوفـنَا الكوازطي فـجـرُنَال	كلامو مـرْدُودْ عليه ، وبهِ مَارْضينَا
كل جَـمْعَه يَاتـي بجريدتو الخَوان	بـشـي خباير شلارينا ولادرينا

ويشير هذا الشاعر الوطني كذلك إلى مأساة وجدة قائلا:

واش ما عار عـــليكـــم ياكنوز لفقيـــــــر امشـــات وجـــده فحماكم حازهـــا الكافر

ويتوسع بصفة شعرية وبكيفية ذكية في هذا الصدد ، ويختم كلامـــــه مشـــيدا إشادة مؤثرة بالشاوية المجاهدة وأهلها المقاومين الشجعان ، مثنيا خير الثناء علــــى همة السلطان مولاي عبد الحفيظ .

القسم السادس:

وأخيرا أشير اختزالا إلى المقاومة في الشعر الملحون سواء قبيل نفـــي جلالـــة الملك محمد الخامس رحمه الله وإبعاده عن عرشه وشعبه أو بعد ذلك النفي . فلقـــــد تبارى شعراء الملحون في هذا الشأن كما تباروا في نصـــرة الوطنييـــن والإشـــادة بالعمل من أجل تحقيق الحرية والاستقلال ، وقد أسفر إنتاجهم عن ثروة كبيرة مــــن القصائد في هذا المجال الذي تجلى فيه عدد كبير من الشعراء أمثال الحاج محمـــــد بن عمر الملحوني ، صاحب الخرائد العديدة في الوطنيـــــة ، ومحمـــد العيســـاوي الفلوس ، صاحب قصيدة " النجمة "، والحسن اليعقوبي صاحب قصيـــدة " معركـــة الاستقلال "، وإدريس العلوي، صاحب قصيدة " المنفى"، وأحمد الطرابلسي مؤلـــــف قصيدة " عشرين غشت "، وإدريس المبـــاركي، صـــاحب العديـــد مـــن الغزليـــات والوطنيات والحاج محمد العوفير رئيس مجموعة شيوخ الملحـــــون فـــي الإذاعـــة الوطنية بالرباط خلال الخمسينات والستينات على الأخص ، وعبد القادر الجـــراري صاحب قصيدة " الداعي" التي يشير في أحد أقسامها إلى ويلات فرنسا مع الوطنييـــن ولا سيما بمناسبة حركة مقاومة الظهير البربري ، ومن ذلك قوله :

يا من أعـــيـــى كـــهـــلـــو بثـــقـــال اد لحمـــل
فالحين أرمـــيـــه جاب ربـــي حمـــالـــــــو

والغالبية الغالبة من هؤلاء قد عرفتهم جيدا وعاشرت بعضهم في العمل المهني بالإذاعة ، ومن هؤلاء الشعراء الذين كتبوا وألفوا في الوطنيات ببراعة وصدق لا ننسى أبدا منظر فن الملحون البارع أحمد سهوم، فإن له القصائد البديعة في مختلف المواضيع، ومنها موضوع المقاومة والكفاح.

ونظرا لوفرة مادة الشعر الملحون حول المقاومة الوطنية ولاسيما انطلاقا من الخمسينات ، وفيما فجرته إيجابيا تلك المواقف الصامدة لجلالة المغفور له الملك محمد الخامس والأسرة الملكية الشريفة، وما حققه تلاحم العرش والشعب، فإن هذا الموضوع القيم جدير لوحده بندوة علمية تجمع ذوي الاختصاص الدارسين والشعراء المبدعين لاسيما والإذاعة الوطنية تحتفظ حتى الآن بثروة من القصائد المغناة والمؤداة إنشادا وإطرابا في هذا المجال .

ومن بين بدائع الشعر الملحون في ميدان المقاومة بالكلمة البليغة والمعنى الدقيق، والإشارة التي تغني عن " العبارة " ، تلك القصيدة الرمزية التي سارت الركبان بترديدها أيام النضال التحريري : إنها قصيدة " النجمة " للشاعر العيساوي الفلوس، شاعر فاس وقطب فن الملحون فيها خلال الأزمنة الحديثة. وقد تهالك على شرح هذه القصيدة وتحليلها بعض أدبائنا الأبرار ، لأنها تحفة في الأدب الرمزي الشعبي :

والليل أقوى حزنو من الجفني	كيهدر ويزيم
قالو لو ناسوا آش بك	خبرنا بالهمام
قال لهم "النجمة" اخفات عني	واهجرت النوم
قالوا لو جمع النجوم	تحت جناحك لفحيم
وتقول النجمة اخفات لك	يا صاحب لحكام؟
ورى لنا اسمها ، ونعتها	لا تبقى مهموم
قال : " الحرية " بلا خفا	سماها لعظيم
فشمس أرض الكون	أو لما فابحور رسام
قالوا فهاذ الإيوان(1) قاطنه	كانت قبل اليوم

أي إن "الحرية" المبحوث عنها كانت قبل اليوم موجودة .

وهنا يسترسل الشاعر العيساوي الفلوس في سرد المعركة القائمة بين الليل (ويسميه " الدجا " و" البهيم ")، والنهار (ويسميه" الضي ") ، ويصور المعركة في هذا المجال بين الفريقين ، وما حفلت به من الجنود، والرماح، والسيوف، والخيل المسرجة ... وفي خضم ذلك الوصف الدقيق يأتي هذا القول الصريح :

واخرَجْ سُلطَان الضَي للوَغى	نادى : " يا لَبْهِيم
من راد الحُريه يكون	فارس حربي زَطام"!

وأنا مول النجمة اليوم، ولا بَعْد اليوم

ومعلوم أن رمز الليل إشارة دائما إلى الظلام ، ومدلول الظلام في نهاية المطاف هو " الظلم "، و" الباطل " . فالمعركة والحالة هذه هي بين الحق والباطل.

وتترى الصور والأخيلة والرموز في هذه القصة الشعرية أو هذا الشعر القصصي، ويقول سلطان النهار ــ اهمام الضي ، مقرعا سلطان الدجا :

وانطَق سَلطان الضي للدجَا	قال لو يا لئيم
قال : الحرية اغرَامْهَا	في قلبي مرَسُوم
قال اهْمَام الضي للدجا	يَاك الكذاب انْميم
نَجم الحرية فأرضنا	هذي ألف عام

وينتصر الحق على الباطل ، فيقول أتباعه وأنصاره بلسان الواقع دون ترميز:

نحن حـــماة الشعب دون شــــــك خــــــادم وخديــــم
نحن لـــشبال شـــهود عندنـــــــا فالتاريــــــخ العام
ليس نـــبخـــلـــو بروحنا اعلى ذا الشعب المضـــيوم
قـــال اهـــمام الضـــي للرعية بـــلــــســـــان احليم
أنــــــدربكـــم فـــساعت لـــوغـــي ما تخشاوا آلام
أنـــتـــم المـــــخلصين امن الصبا ماأنا جاحدكـــــــوم
لكـــــــن خـــوذوا اوصـــيـتـــــــي نـــهـــضـــوا للتعليم
تـــبـــــعـــوا راي الزعيـــم صاحـــب الفـــكر ،الهـــمــــــام
هـــذي روحي واروا حكـــم هاذ الـــــعارف ياقـــــــوم

إن القول فسيح وشاسع الأطراف في هذا المجال ... وكيفما كان شأن هـــــذه الجلسة التي جمعتنا ، فإني شاكر لكم تفضلكم بـــالقدوم إليـــها ، وتفضلكـــم بحســـن الاستماع ، والسلام عليكم ورحمة الله .

****

1 ــ هناك من يروي هذا الشطر هكذا : " قالوا فالقيروان قاطنة " .

أمل مجلتكم

اقرأوها

ساندوها

اشتركوا فيها

من ملفاتنا المقبلة

* الأحزاب والتنظيمات السياسية بالمغرب 2
* التعليم والمسألة التعليمية عبر تاريخ المغرب
* تنظيمة المخزن وأدوارها عبر تاريخ المغرب
* من محطات تحولات الفكر والثقافة عبر تاريخ المغرب

صدر من منشورات أمل ويصدر قريبا

- جامع القرويين والفكر السلفي
- بيان يناير 1944 بين مطلبيه : الاستقلال والديموقراطية
- الحركة النقابية في المغرب
- الرحلة الزاهرة
- موجز تاريخ سلا

** يصدر قريبا

- التاريخ القديم لافريقيا الشمالية

* المقاومة والاستقلال خلال القرن العشرين

انعكاس المقاومة في القصة والرواية

- المقاومة الوطنية من خلال الأعمال الأدبية
- صورة الذات
- تاريخ الحركة الوطنية في القصة المغربية القصيرة

المقاومة الوطنية من خلال الأعمال الأدبية

ـ رواية " بامو" نمونجا ـ

محمد ازهري *

استهــلال :

إن المرء ليسعد أيما سعادة وهو يجلس في هذه الجلسة العلمية إلى جــانب الأستاذ الجليل إبراهيم السولامي. فقد تتلمذنا عليه أيام الطلب بكليـــة الآداب بفـــاس سواء من خلال الدروس والمحاضرات ، أو من خلال مشاركته في مناقشة الرســائل الجامعية . كما تتلمذنا عليه ، وما نزال ، من خلال ما طبع من دراساته وأبحاثه.

واعترافا منا بجميل صنيعه نستهل هذا العرض بنص مقتطــف مــن كتابــه :"الشعر الوطني في المغرب" قال فيه الشاعر عبد المالك البلغيثـــي ، فـــي أعقــاب صدور الظهير البربري :

إنْ سُـجِـنْـتُـــم عَـنْ بِقَـــاع رُتَـبـــاً نـــلْـتُـــمْ سَـنِـيــة
أَوْ مُـنِـعْـتُـمْ مِـنْ حُــقُـــوقِ هِـــيَ بِالـمَـجْــدِ حُـرِيـــة

* أستاذ باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ بني ملال .

أَوْ ضُرِبْتُم فِي سَبِيلِ   هِيَ إِنْهَاضُ البَرِيَة
فَلأَنْتُمْ خَيْرُ نَشْءٍ   حَرَكَتُهُم وَطَنِيَة
لَيْسَ حَبْسُ المَرْءِ عَاراً   فِي شُعُوبٍ مَدَنِيَة
بَلْ هَنَاءٌ بَعْدَ نِكْرَى   لاتَرَوْهَا مُخْتَفِيَة
كُلُّ عَيْشٍ دُونَ عِزٍ   هُوَ وَاللهِ مَنِيَة (1)

إن هذا المبدأ الأخير هو الذي حرك المقاومين المغاربة في كل الوطن فاسترخصوا أرواحهم ودماءهم من أجل حرية المغرب واستقلاله . وفي أفق الاعتراف بالجميل لتلك الثلة من الوطنيين الأحرار ، يجمل بالباحثين أن ينكبوا على التعريف بتلك الشخصيات الفذة ، ويسلطوا مزيدا من الأضواء على جوانب من حياتها وكفاحاتها . وما عقد هذه الندوة حول :"المقاومة والاستقلال خلال القرن العشرين الرموز والدلالات إلا لبنة في ذلكم الصرح الشامخ الذي نأمل أن يتم بناؤه في يوم من الأيام.

إن موضوع مداخلتي هو : " المقاومة الوطنية من خلال الأعمال الأدبية رواية " بامو " نموذجا " . ومن خلال هذا العنوان يتضح عنصران اثنان :

أ ـ العنصر الأول : الحدث : وهو المقاومة الوطنية باعتبارها حدثا تاريخيا.

ب ـ العنصر الثاني:الأعمال الأدبية :أي الزاوية التي سيتم من خلالها التعامل مع ذلك الحدث .وقد تم التركيز على رواية "بامو" لأننا نفترض أن عددا كبيرا من الحضور قد قرأها . ومن تعذرت عليها القراءة نظن أنه شاهدها على شكل فيلم من إخراج إدريس المديني سنة 1983. تقاسم أدوار البطولة فيه كل من : محمد حسن الجندي وبديعة ريان ومحمد الحبشي والعربي الدغمي وثريا جبران ....

إن الحديث عن العنصرين معا سيجرنا إلى الحديث عن العلاقة بين "التاريخ" و"الأدب".

التاريخ   الأدب

يمكننا تركيب اللفظتين تركيبا إضافيا أو وصفيا ، فنحصل على ما يلي :

1 ـ تاريخ الأدب ـــــــــــــــــ التاريخ الأدبي

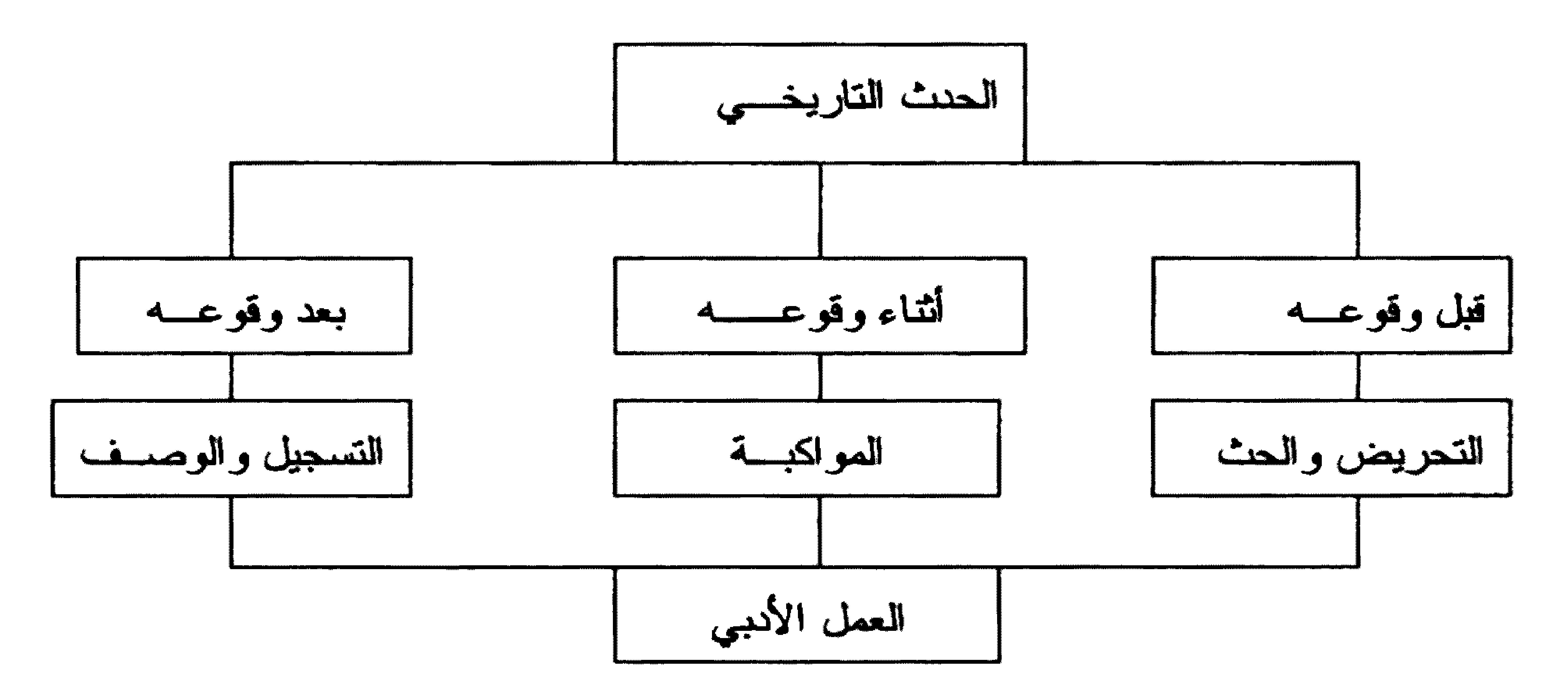
2 ـ أدب التاريخ ـــــــــــــــــ الأدب التاريخي

وإذا كان بالإمكان الحديث عن تاريخ الأدب ـ بدليل وجود عدة مؤلفات تــؤرخ للأدب عامة ، أو لأحد فنونه، عبر مختلف العصور(2) ـ فهل يمكننا الحديث ، في نفس الوقت ، عن أدب تاريخي ؟.

إن المتمعن في العمال الأدبية المختلفـــة ، قديمـــها وحديثـــها ، يلمــس أن أصحابها قد نقلوا ، عبر تلك الأعمال ، الكثير من الأحـــداث والوقـــائع التاريخيـــة وهي ظاهرة تفسر كون العلاقة بين الأدب والتاريخ قديمة قدم الأدب نفسه ، ومـــن ثم يتأكد " بوضوح مدى إقبال المبدعين على التـــاريخ للإحاطـــة ببعـــض القضايـــا والمواقف ، والاستفادة من أبعادها الإنسانية "(3) .

والأديب الذي يتعامل مع الأحداث التاريخية في أدبه ، إما أن يكون معـــاصرا لتلك الأحداث ، أو أن تكون الأحداث وقعت قبل عصره إمـــا بزمـــن قريـــب ، أو متوسط، أو بعيد فإذا كان معاصرا للأحداث فإن المادة تكون متوفـــرة لديـــه بحكـــم المعايشة، إلا أن طريقة التناول هي التي تختلف من أديب إلى آخر. أمـــا إذا كـــان غير معاصر للأحداث ، فإن عمله الأدبي سينصب على أحـــد المواضيع التي تعـــود إلى الماضي . وهـــذا يحتم عليه الإلمام الكامل بالأحداث التي سيكتب فيـــها " لأنـــه يعيد مـــن جديد بناء حقبة لـــم يعرف أطوارها شخصيا . ومن ثم فإن هـــذه العملية تتطلب منه امتلاك معلومات تاريخية ، وعبقرية خاصة ، كما تتطلب منـــه بـــذل مجهود مضاعف مـــادام سيتعرض لأشخاص لم يعاصرهم ، وأنه ســـيعمل علـــى خلـــقهم بالارتكاز على المعطيات التي توفرها القراءة، والتـــي ســـتتحول لـــدى تدخل خياله"(4).

إن الأدب الذي يصور أحداثا تاريخية كتلك المتعلقة بالكفاح الوطني من أجـــل التحرر، يمكن رسم العلاقة بينهما على الشكل التالي .



وقد وضح الأستاذ عبد الكريم غلاب هذه العلاقة أكثر فبين أن العمل الأدبي الذي يتناول حدثا تاريخيا ما، قبل وقوعه "يساهم في بعث الشعور الوطني ، وفي تعميق الفكرة الثورية في نفوس المكافحين"(5). أما في الحالة الثانية ، أي أثناء وقوع الحدث ، فإن الأدب " يصاحب حركة التحرير الوطني يراقب ويسجل ويقوم اعوجاجها ويشد من عضد المكافحين ويلهب حماسهم أثناء المعركة "(6) وفي الحالة الثالثة الخاصة بالحدث بعد وقوعه "يأتي الأدب عقب الحركة التحررية ، فيقوم بدور التسجيل والوصف وتمجيد الأبطال وتخليد المواقف "(7).

لقد كان ضروريا أن نقدم لعرضنا بهذا الكلام عن علاقة التاريخ بالأدب لأننا سنجد صدى مقاومة أحمد الحنصالي في بعض الأعمال الأدبية. وسنركز على عمل أدبي واحد هو رواية " بامو "(8) لأحمد زياد ، لأنه العمل الذي عالج ذلك الحدث بكثير من التفصيل .

تدور أحداث هذه الرواية في الفترة الممتدة من أواخر الثلاثينيات ، إلى أواسط الخمسينيات ، أي قبيل الحصول على الاستقلال بقليل . فهي بذلك تحاول إعادة بناء مرحلة من تاريخ المغرب إبان الاستعمار ، مع التركيز على بؤرة الحدث في

الرواية ، أي المقاومة التي أبداها المقاوم أحمد الحنصالي في وجه المستعمر الفرنسي ، في فضاء منطقة تادلا.

وللوصول إلى هذا الحدث الرئيسي الذي عليه مدار الرواية ، فقد مهد له الأستاذ زياد بسلسلة من الأحداث ساهمت فيها مجموعة من الشخصيات ، يمكن تلخيصها على الشكل التالي :

يدخل الكاتب مباشرة لتقديم عمله برسم معالم المكان الرئيسي – وويزغت – الذي ستدور فيه الأحداث. وهو مكان مهمش يعيش أصحابه في فقر مدقع، من جراء ما نتج عن سلب المستعمر لأراضيهم . والمهنة الرئيسية التي ركز عليها الكاتب في هذه المنطقة هي الحدادة. وهي مهنة كان يعيش منها مجموعة من الناس، بمن فيهم بعض أبطال هذه الرواية : باسو زوج بامو ، وعقا زوج رحمة الله .

صور لنا الكاتب جمال بامو الخارق الذي جعلها تحظى بإعجاب كل الرجال مما سبب لباسو الكثير من المتاعب النفسية. وقد بلغ ذلك الذروة القصوى عندما اعتقل رامونا – قائد المنطقة الفرنسي – ثلاثة رموز الوطنية هم : باسو ، وعقا وسي موسى – فقيه القرية – ليقضوا عقوبة السجن بالعاذر. وذلك ليخلو له الجو فيقدم لبامو شتى الإغراءات. وأمام رفضها الرضوخ لرغباته، يضطر رامونا إلى سجنها بإحدى الغرف بإقامته بالقصيبية .

وعند خروج باسو من السجن يبدأ في البحث عن خطة لإنقاذ زوجته. وسيلتقي في القصيبية بالحنصالي باعتباره خال بامو. وقد جاء لمساعدة باسو على تحرير زوجته، وذلك بتشجيع من سي موح، كبير حراس رامونا. وسينجحون في تهريب بامو إلى زاوية الشيخ أولا ، ثم إلى وويزغت ثانيا .

وفي الوقت الذي بقي فيه باسو وبامو بوويزغت ، يصعد الحنصالي إلى الجبل، وهناك تبدأ مقاومته .

هذا بإيجاز شديد ، مضمون الرواية ، فلنركز الآن على عنصر المقاومة فيها. قبل ظهور الحنصالي مهد الكاتب للمقاومة بالمنطقة بعدة مظاهر تبرز المراحل التي مرت منها، منذ أن كانت في بداياتها ، إلى أن تبلورت في شكلها النهائي المسلح على يد البطل الحنصالي . ويمكننا تتبع تلك المظاهر، من خلال الرواية ، على الشكل التالي :

1 ـــ التهامس بخطة طاليك ، ثم التحدث عنها جهرا ، فبعد حديث الكاتب عن أعمال طاليك في منطقة بني ملال ، وعن الجو الرهيب الذي سيطر على المنطقة تحدث عن بوادر المقاومة ، فقال : " إلا أن روح المقاومة الأصيلة في الشعب المغربي سرعان ما أخذت تنتعش حيال ما أخذ يهدد الشخصية المغربية من أساليب تفتيتها وإفسادها ماديا وخلقيا، حيث بدأ التهامس بخطة طاليك ينتقل من هنا إلى هناك إلى هناك من نواحي بني ملال ، وانقلب هذا التهامس إلى أحاديث في الأسواق وفي المنازل أو في الخيام "(9).

2 ـــ الشروع في تأسيس الخلايا الوطنية في مدينة بني ملال والناحية(10).

3 ـــ ترسخ الإيمان بالحرية وبضرورة استعادة الأراضي المغتصبة(11) .

4 ـــ الامتناع عن أداء الضرائب .

5 ـــ استجابة المنطقة لقرار الحركة الوطنية القاضي بأن يكون يوم 30 مارس يوم صيام كل عام ، وهو تاريخ يصادف اليوم الذي فرضت فيه الحماية سنة 1912. وقد تجلى ذلك بوضوح من خلال الحوار التالي الذي دار بين باسو وعقا : سأل باسو: "وماذا يجدي الصيام يا عقا مع هؤلاء القوم ؟! " فأجابه عقا : " إنها البداية ياباسو فالمقاومة بالصيام ستصبح مقاومة بالكلام ، والمقاومة بالكلام قد تولد شيئا آخر أكثر من الكلام . إن ملايين الناس لا يمكنها أن تبقى أمدا طويلا تقوم بدور الخدم في هذه الضيعة الكبيرة التي هي المغرب كله ! أو فهمت يا باسو ؟! " (12) .

6 ـــ تمرد بعض قواد المخزن على المستعمر : من ذلك مثلا ما فعله قايد آيت عطا الذي لم ينفذ رغبات المستعمر، فكان أن أنذر ، ثم عزل ثم سجن .

7 ــ توعية الناس بأخطار المستعمر من قبل رجال الحركة الوطنيـــة ممثلـــة فـــي وويزغت في الفقيه سي موسى .

8 ــ تأسيس عشر خلايا وطنية بوويزغت . وقد كا[illegible] ـبسو ضمن الخلية الرابعة .

9 ــ حضور المسؤول الـــوطني على الـــناحية من البيضاء لوويزغـــت للاجتمـــاع سرا بالخلايا .

10 ــ امتناع الفقيه سي موسى من قبول منصب عـــــدل شـــرعي ، مقـــابل إمـــداد المراقب الفرنسي بأخبار المقاومة.

11 ــ تـــأجـــج المقاومة بالـــمنطقة بـــعد تـــقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال يـــــوم 11 يناير1944.

12 ــ القيام بمظاهرة احتجاجية يتزعمها الفقيه سي موسى من المسجد إلى "البيرو"

13 ــ توعية الحنصالي لباسو ليكون رجلا مناضلا، بدل الاستسلام بعد خطف بـــلمو

14 ــ حمل الحنصالي للسلاح وشروعه في تنفيذ عملياته بالجبل .

15 ــ الانفجار الذي حدث في دجنبر سنة 1952 ، بعد دعوة الوطنيين إلـــــى القيـــام بإضراب تضامني مع تونس ، على إثر مقتل النقابي فرحات حشاد .

16 ــ تظاهر حوالي عشرين ألف مواطن من مدينة بني مــــلال وتطويقـــهم لمقـــر الحاكم الفرنسي .

هذه هي أهم المحطات النضالية التي أبرز مـــــن خلالـــها الكـــاتب مظـــاهر المقاومة في رواية بامو . فكيف واجهها المستعمر ؟.

يمكننا تصنيف مظاهر قمع المقاومة بمنطقة تادلة ــ في الرواية ــ كما يلي:

1 ــ استبداد طاليك وأعوانه .

2 ــ الإفساد المادي والخلقي (إباحة الخمور وترويجها ، تشجيع الدعارة...).

3 ــ الاعتماد على الأجهزة السرية لترصد المقاومة .

4 ــ الإكثار مـــن الضرائب على الـــمواطنين لسجنهم فيما بعد بدعـــوى الامتنـــاع عن الأداء .

5 ــ نفي المقاومين إما في أماكن داخل الإقليم نفسه ، أو في أماكن نائية مثل إيملشيل .

6 ــ استدعاء المراقب الفرنسي للفقيه سي موسى إلى مكتبه ومحاولة إغرائه بمنصب عدل شرعي مقابل أن يكون جاسوسا على الوطنيين .

7 ــ فرض الحصار حول المواد الأساسية ، وخنق وسائل العيش بتعطيل السوق الأسبوعي بوويزغت .

8 ــ استعمار العرض إلى جانب استعمار الأرض ، كما هو الشأن في حجز وحصار بامو من قبل الحاكم رامونا في بيته .

9 ــ مطاردة العناصر الوطنية ومضايقتها في فترة الخمسينيات .

ولعل بؤرة المقاومة في رواية " بامو " هي العمليات الجريئة التي نفذها أحمد الحنصالي . فكيف تعامل معها أحمد زياد ؟

إذا كانت الرواية مطبوعة في 178 صفحة ، فإن الحنصالي لم يظهر إلا في الصفحة رقم 121، أي في الثلث الأخير من الرواية. وقد قدمه الكاتب بقوله : "وفي يوم من الأيام وصل إلى القصيبة رجل ضعيف البنية ، حليق الرأس ، ذو عينين حادتين ، لا يلبس غير قميص بالرغم عن أن الفصل ما يزال فصل الربيع ، بينما ينتعل ما يكاد يشبه الخفين، فتوجه لتوه عند حلاق كان معروفا هناك بقوة حساسيته في الشم والاستطلاع حيث قدم له نفسه على أنه محمد الحنصالي . إنه موفد من قبل صديقه السيد بوجمعة من زاوية الشيخ "(13). ومنذ ظهور الحنصالي في الرواية بدأ يخطط لتحرير بامو، وذلك بمساعدة الحلاق الذي دله على سي موح كبير أعوان الحاكم العسكري. وسرعان ما سيظهر باسو كذلك في القصيبة، حيث جاء بدوره لتقصي الأخبار عن زوجته. وقد أصبح نحيلا شاحبا من فرط حزنه على مصير بامو. وحينما التقى بالحنصالي ، عمل هذا الأخير على توعيته والرفع من روحه المعنوية. من ذلك مثلا قوله : " ليكن في علمك يا باسو أن البكاء والشرود والتيهان لاتجدي، ولاتستطيع بالتأكيد أن تفيد بامو، فالأمر يحتاج

إلى وسائل الرجال فماذا تعلمت في السجن إذا لم تكن قد تعلمت دروسه الابتدائية التي يعد الصبر والبأس والرجولة في طليعتها. إنني أعلم ، وبحكم التجارب أن المحن تصنع الرجال الذين لا يبكون يا باسو، ولا ينهارون. فإذا كنت تحب بامو وتحاول إنقاذها فابحث لك عن وسيلة أخرى غير البكاء، وإنني لعلى يقين من أن زوجتك بامو، وهي المرأة التي أعرفها جيدا ، لا تبكي في محنتها " (14) .

واضح جدا ، من خلال هذا النص ، أن الكاتب بدأ يهيئنا للتعرف على طبيعة مقاومة الحنصالي . فالرجل المغربي الأبي لا يرضى بالذل والهوان، ومن ثم وجب عليه ألا يكون مستسلما [البكاء — الشرود — التيهان...]بل عليه أن يجد الوسيلة الناجعة الكفيلة برد الأمور إلى نصابها.ولذلك نجد الحنصالي يضيف:"هيا ابحث لنفسك عن وسيلة أخرى يا باسو غير البكاء ، فالبكاء من شيم النساء ، أما الرجال فلهم وسائلهم الخاصة بهم في ساعة العسرة "(15) . فما هي هذه الوسائل الخاصة في نظر الحنصالي ؟.

إنها المقاومة المسلحة التي اقتنع بجدواها . وهو وإن لم يعبر عنها في أحاديثه صراحة ، فقد كنى عنها بلفظة تدل عليها ، وهي " المعقول "، حيث تكررت مرات عديدة في كلامه، منها :

1 — في الحوار الذي دار بينه وبين كل من باسو وسي موح ، حينما كانوا يخططون لتحرير بامو . قال الكاتب: " أما الحنصالي فلم يتكلم إلا مرات معدودات وكان مجمل رأيه أن " هؤلاء القوم " يحتاجون إلى " المعقول " على حد تعبيره.ولم يزد على ذلك شيئا "(16).

2 — في حديثه مع صديقه محمد سميحة : " هؤلاء القوم لا ينفع معهم سوى المعقول يا سميحة .

— وماهو المعقول في نظرك يا الحنصالي ؟

— المعقول هو المعقول ياسميحة .

— أنا لم أفهمك يا الحنصالي .

ـ يمكن لك أن تفهمني فيما بعد "(17) .

إن سميحة، وهو الصديق المقرب من الحنصالي ، لم يفهم بعد المقصود بـالمعقول لذلك سيضطر الحنصالي إلى تكرار تلك اللفظة في كل فرصة تتاح له ، ومنها :

3 ـ فرصة لقائه ، من جديد بسميحة، بزاوية الشيخ ، بعد عودته من ويزغت التي كان قد ذهب إليها برفقة ابنة أخته بامو وزوجها، بعد تمكنهم من تحريرها من معتقلها بالقصيبة. " فكان محمد سميحة يقابل تبرم صديقه وتذمره بعبارات مواسية ثم يواصل حديثه مستطردا المسألة " الانفتاح السياسي " الذي يقول عنه سميحة في هذه المرة ولأول مرة للحنصالي ، إنه انفتاح يبدو وكأنه لن يعمر طويلا، ويستغل الحنصالي هذه الفرصة ليعيد الكرة ويؤكد وجهة نظره التي تتضمنها كلمته المأثورة " هؤلاء القوم لا ينفع معهم سوء المعقول "(18) .

إن هذه اللازمة أصبحت لا تفارق أحاديث الحنصالي، ولذلك فهو لم يكن مقتنعا بما سمي ب " الانفتاح السياسي" الذي علق عليه الكثيرون آمالهم ، ومنهم سميحة، أو " الرجل النية " كما كان يسميه الحنصالي. وهكذا كان "كلما التقى بصديقه سميحة وآخرين من المهتمين بتتبع تطور الأحداث إلا وكان في مختلف التعاليق يمثل الجانب المتطرف ، حيث يصر إصرارا على التمسك بشعاره الدائم :"إن القوم لا ينفع معهم سوى المعقول " كانت هذه الجملة هي القافية، وهي اللازمة لكل حديث ولكل تعليق ولكل استنتاج، سواء أكان ذلك صادرا عنه أم صادرا عن غيره "(19) .

إن تردد هذه العبارة مرات عديدة يجعلنا نتساءل : كيف صور أحمد زياد هذا "المعقول" في الرواية ؟.

إذا تصفحنا " بامو " فإننا لا نجد هذا " المعقول " يتجسد إلا في الصفحات الأخيرة وبالضبط من ص 167 إلى ص 177 . وهو حيز لا يشكل إلا % 6,17 من الرواية ككل ، ومع ذلك فقد كشف فيه الكاتب العديد من الأحداث التي تتحدث عن مقاومة الحنصالي منذ بدايتها إلى نهايتها .

ويمكننا تلمس تلك المقاومة عبر مجموعة من العناصر ، سنتتبعها على الشـــكل التالي:

1 ــ بداية المقاومة :

تبدأ مقاومة الحنصالي منذ الإعلان عن اختفائه عن معارفه. ففي يـــوم مـــن الأيام " افتقد أصدقاء الحنصالي صاحبهم الذي كان قد اختفى منـــذ ثلاثـــة أيـــام ــ بحثوا عنه في كل مكان في زاوية الشيخ ، ثم افترضوا أنه ربما يكون قد اتجه نحـــو وويزغت لعيادة ابنة أخته ..." (20) ، لكن الشاب احمامدو ــ مساعد المعلـــم عقـــا الحداد ــ كذب ظنهم لأنه عاد لتوه من وويزغت . ويأتيهم الخـــبر اليقيـــن علـــى لسان أحد المخازنية "حيث أخبر سميحة وأصدقاءه بأن الحنصالي قد صعـــد إلـــى الجبل ، ويقال إنه قتل ثلاثة من الأوربيين "(21). هاهو ذا الحديـــث النظـــري عـــن "المعقول" يترجم إلى أفعال. وهاهو ذا سميحة يتذكر " في جملة ما تذكره أنه كـــان قد سأل الحنصالي عن نوع هذا المعقول ، فأجابه بأنك ستراه في الوقـــت المناســـب وهاهو بالفعل يراه "(21) .

2 ــ اختيار مكان العمليات :

في أي معركة من المعارك يحتاج المقاتل دوما إلى التحصن بمكان منيع يقيـــه ضربات العدو. وبالنسبة للحنصالي فقد وردت أربع إشارات للمكان الذي اختـــاره لتنفيذ عملياته ، وهي على الشكل التالي :

أ ــ الإشارة الأولى :وردت في قول المخزني : " إن الحنصالي قـــد صعـــد إلـــى الجبل "(22) ، وكذا في قول الكاتب :" ومهما يكن من أمره فإن الرجل قد صعد إلـــى الجبل "(23) .

فهذه إشارة عامة مطلقة لا تكاد تحدد لنا ، بكل دقة، ذلك المكان ولا مميزاتـــه إلا أن الإشارات الثلاث الأخر تبرز اســـتراتيجية المكـــان ، ومناعـــة اقتحامـــه وارتفاعه الذي يخول المراقبة الجيدة للميدان .

ب ـ وهكذا نجد في الإشارة الثانية أن الحنصالي " كان معتصما في موقع استراتيجي كان يعرف جيدا بمناعته وبالشعاب المؤدية إليه "(24).

ج ـ ونجد في الإشارة الثالثة أنه " اتخذ لنفسه موقعا كان في غاية ما يكون من التحصين الطبيعي الذي لاخط ماجينوا ولاخط سيفريد ، وأخيرا لاخط بارليف يوازيه(25).

د ـ ونرى في الإشارة الرابعة أخيرا أنه كان " يتمتع بهدوء وطمأنينة تامين فوق "مرصده" الطي كان يشرف منه على واجهة القتال . ويرى بعينيه المجردتين الواسعتين ... مالا يمكن أن يرى إلا بالمنظار الاصطناعي الذي يكبر حجم الأشياء"(26) .

3 ـ سلاحه :

إذا كان لابد للمقاتل من سلاح ، فما كان سلاح الحنصالي ؟.

" إن سلاحه لم يكن يتعدى بندقية وطلقات محدودات "(27). وقد ذكر نفس السلاح مرة أخرى، قبل هذه حين كان الكاتب بصدد المقارنة بين سلاح المستعمر وبين سلاح الحنصالي ، حيث قال :" وكان الجيش الفرنسي بقيادة جنراله في وضع مخجل جدا لأنه لم يستطع بجنوده المدججين بمختلف الأسلحة البرية والجوية الفوز على رجل واحد لا يملك سوى بندقية واحدة وعدة طلقات "(28). وفي فقرة سابقة نجد تحديدا لعدد طلقات ، وكذا لمصدر البندقية ، يقول الكاتب " ولم يكن سلاحه يزيد على بندقية كان قد هربها لما كان عونا من أعوان "ـ البيرو" ، مع خرطوش من الطلقات لم يكن في مجموعه يزيد على العشرين طلقة " (29). هذا عن السلاح المادي ، أما السلاح المعنوي فيتجلى في تشبع الحنصالي بالإيمان الصادق بالله وكذا بعدالة القضية التي استرخص نفسه من أجلها . ويتضح ذلك في عبارة وردت في تقييم الفقيه سي موسى لعمل الحنصالي. أكد عليها الكاتب بقوله : "... وتكون اللازمة في أحاديث الفقيه سي موسى وتعليقاته هي قوله : إنه

الإيمان ، إنـــه الإيمان ياسي فـــلان. ينطق بـــها بنبرات رتـــيبة وخاشـــعة فـــي الوقت نفسه(30).

4 ــ تنفيـــذ العمليـــــات :

لا نكاد نخرج بصورة واضحة عن عدد العمليـــات المسـلحة التــي نفذهــا الحنصالي، ولا عن العدد الحقيقي لضحاياه ، ولا عن المدة التي استغرقتها مقاومتــه فأول إشارة وردت على لسان أحـــد المخازنيـــة تقـــول: " إنـــه قتـــل ثلاثـــة مـــن الأوربيين"(31).وآخرها جاء فيه :"وحلقت طائرات الهيلكوبتير المسلحة حول موقـــع الحنصالي ، فاصطاد واحدة منها بطلقة لا شريك لها ، وسقط ربانها بين الأشـــجار فرمقه الحنصالي وصوب نحوه طلقة أخرى ترنح على إثرها ونام في اطمئنـــان"(32). فعلى هذا يكون عدد خسائر المستعمر في الأرواح والعتاد هو أربعة قتلى وتدمـــير طائرة هيلكوبتير. إلا أن هذا العدد يبقى مرشحا للتصاعد بدليل وجـــود إشـــارتين أخريين ، تفيدان ارتفاع الخسائر. جاء في إحداهما : " ومن موقعـــه هـــذا شـــرع يمارس قناصته. وكان كلما شاهد من فوق موقعه عبر الطريق المعبـــد صيـــدا إلا وتخيل فيه أشخاصا من المراقبين والمعمرين الذين كان يعرفهم ويعـــرف بعـــض زوجاتهم الـــلآئي لم يـــكن أقـــل مـــن أزواجـــهن عنصريـــــة وتعسفـــــا واستبـــدادا "(33). وورد في الإشـــــارة الأخـــرى مـــا يلـــي : " ومـــا رمـــى الحنصالي بطلقة من طلقاته إلا وأصابت مرماها،وفي الصميم . فكان ولابد مـــن أن يرتفع عدد الضحايا " (34). نعم كان مرجحا أن يتزايد عدد القتلى لأن صاحبنا أقســم "على نفسه ألا يضيع واحدة منها (35) بدون غنيمة "(36).

5 ــ ردود الأفعـــــال :

إن مقاومة بهذا الشكل لم يسبق لها مثيل في المغرب ، فكان لابد أن تثـــير مجموعة من ردود الأفعال ، محليا ،ووطنيا ، ودوليا. وذلك سواء إبان وقوعها أو بعد نهايتها . ويمكننا تتبع ردود الأفعال تلك كما يلي:

أ ــ ردود فعل المستعمر ومن والاه : لم يكن هينا على المستعمر هضم ما فعله رجل بمفرده. فبمجرد ما شاع أمر الحنصالي قررت السلطات الاستعمارية اتخاذ جملة من التدابير بغية القضاء عليه . فكانت مجموعة من ردود الفعل التي سارت على وتيرة تصاعدية على الشكل التالي :

* ذلك أن أول رد فعل كان هو الإعلان عن " حالة استنفار في مختلف دوائر ناحية بني ملال ، وأخرج رجال المخازنية والأعوان من دورهم وانتزعوا من بين أولادهم " (37) .

* ثم تلا ذلك رد فعل ثان تجلى في إرسال القوة للبحث عن الحنصالي، وذلك ما عبر عنه المخزني الذي أخبر سميحة وأصدقاءه بصعود صديقهم إلى الجبل فقال: " وتتوجه في هذا الوقت بالذات قوات ضخمة من مختلف الأشكال والأحجام لمطاردته "(38) .

* أما رد الفعل الثالث فهو البحث عن المزيد من التعزيزات الأمنية ، سواء من المدن المجاورة ، أو من الرباط العاصمة ، في أفق السيطرة على الوضع، " ولهذا السبب قررت السلطات الاستعمارية أن تحاصر كل الطرقات وتمنع السير فيها حتى لايزداد عدد الضحايا. واستنجدت سلطة الناحية لبني ملال بسلطة مدينة تادلة لتمدها بالعون من الرجال والسلاح وصدرت الأوامر من الإدارة المركزية بالرباط بتجنيد كل الإمكانيات لمواجهة الموقف وإلقاء القبض على الحنصالي حيا أو ميتا "(39).

* وأمام استبسال البطل الحنصالي ، لم تجد كل تلك الترتيبات ، فاضطر المستعمر إلى إسناد مهمة القبض عليه إلى لواء كامل من الجيش الفرنسي ، إذ " لم يكن بد والحالة هذه من أن يعهد إلى جيش الاحتلال بهذه المهمة. وكذلك كان حينما أخذ القائد الأعلى لهذا الجيش زمام الأمور بنفسه ، وأصدر أوامره بأن يتوجه جيش قوامه لواء كامل يتولى أمر قيادته القائد العام نفسه "(40). فكان هذا رد الفعل الرابع . وقد كان هذا اللواء مدججا بأعتد الأسلحة آنذاك ، بما فيها السلاح الجوي بحيث " حلقت طائرات الهيلكوبتير المسلحة حول موقع الحنصالي "(41). وبما أن

كل هذه العمليات لم تؤت أكلها ، وبما أن السلطات الاستعمارية أصبحت تتلقى ضغوطا من المعمرين ، فقد كان من الضروري ألا يستمر الوضع على ما هو عليه.ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه الحنصالي" يمارس هوايته في القناصة ... كان الحنق يزداد في أوساط المعمرين على السلطة التي لم تستطع القضاء بجيشها وعدتها "(42) عليه . كما " تعالت أصوات الاحتجاج والاستنكار من الأوساط الاستعمارية تطالب بالإسراع في القضاء على ذلك "القتال" كما كانوا يسمونه "(43)

* كل هذا أدى إلى رد الفعل الخامس، وهو توجيه نداء إلى الحنصالي ليستسلم . وهو قرار اتخذ بعد سلسلة من المشاورات . فقد " توالت الاجتماعات في مقر القيادة العامة بمقر الحاكم، وتقرر توجيه نداء إلى الحنصالي يطالبه بالاستسلام، وإلا فإن المقنبلات ستدك الموقع الذي يتحصن فيه ، ويدكه معه "(44) . لكنهم لم ينفذوا تهديداتهم مع ذلك .

* وأمام فشلهم الذريع في القبض على الحنصالي حيا أو ميتا ، لجأوا إلى رد فعل سادس ، تجلى في جملة الاعتقالات الواسعة التي مست سكان المنطقة ، مع ماتبعها من سجن وتعذيب ونهب ... وهو ما عبر عنه الكاتب بقوله : " وفي هذا الوقت بالذات أيضا كانت تجري في جميع دوائر ناحية بني ملال عمليات حصاد بشري إن صح التعبير ، وهي عبارة عن عمليات اعتقال واسعة الأرجاء ، تمارس بمقتضى الأرشيفات القديمة لكل أولئك الذين سبق لهم أن اعتقلوا ، أو سجنوا ، أو حامت حولهم الشبهات ، وذلك بالإضافة إلى ما كان يصاحب هذه الحملة من نهب وسلب لأمتعة المواطنين "(45) .

* وتوجت كل هذه الأمور برد فعل عنيف جدا ، ألا وهو الحملة ضد السلطان الذي اتهم بتأييده المطلق للمقاومة الوطنية. جاء في إحدى فقرات الرواية : "أن الوصمة التي كان الحنصالي قد وضعها بطلقاته العديدة على جبين الجيش الاستعماري لم تستسغها الدوائر الاستعمارية ، لا في المغرب ولا خارجه في فرنسا نفسها، فشنت حملات هيستيرية على السلطان الذي اتهم بتواطئه المصر مع

الوطنيين . وأخذت وسائل الإعلام تردد أسطورة "رأس الأفعى وذنبها"وذلك على حد تعبير صحيفة " لورور" اليمينية الصهيونية "(46) .

هذا عن ردود الفعل الاستعمارية ، فماذا عن ردود الفعل المحلية والوطنية؟

ب ــ ردود الفعل المحلية والوطنية

* بالنسبة لردود الفعل المحلية لم تسعفنا الرواية بصددها إلا بإشارة واحدة جاء فيها : " وكانت ناحية بني ملال وما جاورها لها الحظ الأوفر من خلفيات ثورة الحنصالي في صور شتى من صور الانتقام "(47) .

* وبالنسبة لردود الفعل الوطنية ، فقد تجلت في تأييد ما قام به الحنصالي ، وكذا التأكد من جدوى العمل المسلح باعتباره أنجع أسلوب للمقاومة. وقد اتضح ذلك في كلام للفقيه سي موسى قال فيه : " الواقع أن ثورة الحنصالي وشعاره: " لاينفع سوى المعقول " قد غيرت مفهوم الكفاح تغييرا جذريا ما في ذلك من شك ، وليس في ذلك أدنى من ريب. ذلك أنه بعد تلك الانطلاقة أخذ بعض المناضلين ينسحبون من العمل السياسي الجهري ليدخلوا إلى "دهاليز" التنظيم السري ، ثم أخذ عدد هذا البعض يزداد ويتنوع ويتوسع عبر كافة أنحاء المغرب "(48) .

مثل الفقيه سي موسى لأولئك المناضلين بالسيد محمد الزرقطوني ، ورجح أنه " قد كان أعلن انسحابه من الميدان السياسي العلني ، بعد حركة الحنصالي مباشرة ليجمع الخلية الأولى من حركة المقاومة، بينما كان آخرون في مدن مختلفة قد ولجوا نفس الميدان ، وأخذوا يمارسون نفس العمل ، لأنهم كانوا قد اقتنعوا الاقتناع كله بأن الكفاح السياسي قد استنفذ دوره وإمكانياته، وإن لغة الحوار السياسي قد تجاوزتها الوقائع والأحداث "(49) .

6 ــ نهاية مقاومة الحنصالي ... بداية المقاومة من أجل الاستقلال :

جاء في الرواية أن مقاومة الحنصالي انتهت باستسلامه، بسبب نفاذ ما كان معه من ذخيرة : " فبعد حين أسلمت بامو روحها إلى ربها بعد الزوال . وما أن همت السيدة رحمة الله بالخروج لتعلن الخبر إلى الجيران حتى جاء من يخبرها

باعتقال زوجها عقا وباستسلام محمد الحنصالي، بعد أن نفذ زاده من الرصاص. لقد استسلم هو أيضا في نفس اللحظات التي استسلمت فيها بامو ، مع فوارق الحالتين في ذلك الاستسلام "(50) .

ولم تكن نهاية مقاومة الحنصالي إلا بداية الطريق في درب المقاومة بكل التراب الوطني . فما " كان استسلام الحنصالي الاضطراري ليضع حدا للمد التحرري كما كان يظن الاستعمار أو يتوهم ، بل إن ثورة الحنصالي لم تكن في الواقع سوى عمل من عوامل امتداد ذلك التحرر وبأسلوب آخر من أساليب النضال، وهو الأسلوب الذي كان الحنصالي نفسه يطلق عليه أسلوب المعقول "(51) ولهذا وجدنا الفقيه سي موسى ، في آخر الرواية : " يعتبر أن بداية حركة المقاومة المسلحة الحديثة ليست تاريخيا هي سنة 1952 ، وإنما تاريخها يرجع إلى قبل هذه السنة ، أي إلى اليوم الذي صعد فيه الحنصالي لمرصده هنالك في ناحية بني ملال ليأخذ زمام المبادرة والتحكم في تسيير عملياته " (52) .

هكذا ، إذن ، تناول أحمد زياد مقاومة أحمد الحنصالي في رواية بامو. فهل يمكننا اعتبارها رواية تاريخية ؟

إن هذا العمل يزخر بمادة تاريخية هائلة ، تأتي مقاومة الحنصالي في مقدمتها . كما تتخللها إشارات إلى أحداث تاريخية أخرى وقعت فعلا ، منها مثلا :

ــ حدث تقديم وثيقة الاستقلال في 11 يناير 1944 .

ــ وحدث زيارة محمد الخامس لطنجة سنة 1947 .

ــ وحدث الإضراب التضامني مع تونس على إثر اغتيال الزعيم النقابي فرحات حشاد في دجنبر 1952 .

فهذه الأحداث وغيرها قدمت في هذا العمل بحسب طبيعة الأسلوب الروائي الذي اقتضى من الكاتب صياغتها في شكل قصة عاطفية متخيلة بين باسو الحداد وزوجته بامو ، وعلاقتهما معا بشخصيات متخيلة كعقا وزوجته رحمة الله ، وبلقي

الشخصيات المنتمية إلى وويزغت ، وبشخصيات تاريخية حقيقية كأحمد الحنصالي ومحمد سميحة والحاكم رامونا وغيرهم ....

ويقول جورج لوكاش عن الرواية التاريخية بأن ما يهم فيها " ليس إعادة سرد الأحداث التاريخية الكبيرة ، بل الإيقاظ الشعري للناس الذين برزوا في تلك الأحداث . وما يهم هو أن نعيش مرة أخرى الدوافع الاجتماعية والإنسانية التي أدت بهم إلى أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا ذلك في الواقع التاريخي "(53) .

إذا سلمنا مع لوكاش بأن الرواية التاريخية تجعلنا نعيش ، من جديد مختلف الدوافع التي أدت بشخصيات الرواية إلى القيام بنفس الأدوار التي قاموا بها في الواقع التاريخي تماما ، فهل نلمس ذلك في رواية بامو ؟ وبعبارة أخرى نقول : إلى أي حد ظل وفيا للحقائق التاريخية ؟

إن مقارنة بسيطة بين ما وصلنا من كتابات تاريخية عن الحنصالي وثورته على الرغم من قلتها وتناقضها أحيانا(54) ،وبين ما ورد في رواية بامو يقفنا على عدة اختلافات، في عدة أمور منها :

أ ــ الاسم : في الوقت الذي تجمع فيه مختلف الكتابات على أن اسم مقاومنا هو أحمد الحنصالي (بن موحى بن حمو...) ، يذكر زياد أن اسمه هو محمد الحنصالي ، وذلك ثمان مرات ، أولها في الإهداء(55). واكتفى بذكر لفظ "الحنصالي"46 مرة .

ب ــ الأصل : إذا كانت الكتابات تشير إلى أن مقاومنا ينحدر من إحدى القبائل المجاورة للزاوية الحنصالية، فإن زياد جعله من إحدى القبائل المجاورة لزاوية الشيخ (56).

ج ــ كيفية الحصول على السلاح : تذكر بعض الكتابات أن الحنصالي حصل على البندقية والرصاصات يوم 9 ماي 1951، بعدما قتل المخزني الذي كان مسلحا

بها ، في حين يذكر زياد أن ذلك السلاح كان قد هربه الحنصالي لما كان عونا من أعوان البيرو(57).

د ــ نهاية الثورة : تكاد تتفق معظم الكتابات على أن نهاية ثورة الحنصالي تمت يوم 23 يوليوز 1951 ، في مركز تاكزيرت، بعد أن تم التبليغ عن مكان وجوده في حين جعله زياد يستسلم بسبب نفاذ ذخيرته(58).

يتضح من خلال هذه المقارنة أن الحقيقة التاريخية شيء، وطريقة تناولها شيء آخر. ولعل هذا هو ما دفع الأستاذ حميد لحميداني إلى القول : " إن التاريخ بالنسبة للوعي البشري هو دائما تصور، وهذا التصور لا يمكن أن يكون مطابقا تمام المطابقة للحقيقة التاريخية ، لأن ذلك يعني الوصول إلى المعرفة الكلية ، كما أنه لا يمكن أن يكون فاقدا لأية صلة له بالتاريخ ــ باعتباره موجودا مستقلا ــ مهما كانت النظرة إلى هذا التاريخ مغرقة في التجريد وغارقة في الميتافيزيقا"(59) واستنتج في النهاية أن الرواية " لابد أن يكون لها ارتباط بأحد التصورات للتاريخ بمعنى أنها لا ترتبط بالتاريخ ذاته ، ولكنها ترتبط بأحد التصورات الموجودة عنه"(60).

إن ما اطلعنا عليه يبرز لنا طرائق التناول المختلفة بين المؤرخ والأديب. لكن مع ذلك لا يجمل بالأديب ــ كيفما كان ــ أن يغير بعض الحقائق التاريخية خاصة إذا كان الهدف ، هو التمجيد وتصوير بعض البطولات والملاحم .لأن ذلك قد يزيد في التشويش على المتلقي ، ويجعله دائم البحث عن الحقيقة التاريخية .

ولأمر ما قال تودوروف ، وهو يتحدث عن علاقة التاريخ بالفن القصصي "إن التاريخ هو شيء تجريدي، لأنه دائما مدرك ومروي من طرف شخص ما إنه لاوجود له في ذاته "(61).

الهوامش :

1 ـ الشعر الوطني في المغرب . إبراهيم السولامي . ص :107.

2 ـ نذكر على سبيل المثال لا الحصر :

ـ تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان .

ـ تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف (العصر الجاهلي ـ العصر الإسلامي ـ العصر العباسي الأول ـ العصر العباسي الثاني ...)

ـ تاريخ الأدب العربي في المغرب لحنا الفاخوري .

ـ تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري لمحمد نجيب البهبيتي .

3 ـ هنا المسرح العربي ... هنا بعض تجلياته . حسن المنيعي ص 33.

4 ـ نفسه ، ص : 33.

5 ـ في الثقافة والأدب عبد الكريم غلاب ص :84.

6 ـ نفسه . ص : 85 - 84.

7 ـ نفسه ، ص : 85.

8 ـ طبعة مطبعة دار الكتاب . البيضاء . بتاريخ :24 يونيو 1974.

9 ـ بامو . ص : 19.

10 ـ نفسه . ص : 21.

11 ـ نفسه . ص : 38.

12 ـ نفسه . ص 41.

13 ـ نفسه . ص : 121.

14 ـ نفسه . ص : 133.

15 ـ نفسه . ص :134.

16 ـ نفسه . ص :151.

17 ـ نفسه . ص : 160.

18 ـ نفسه . ص : 162.

19 ـ نفسه . ص :163.

20 ـ نفسه .ص :167.

21 ـ نفسه . ص : 168.

22 ـ نفسه . ص :168.

23 ـ نفسه . ص : 168.

24 ـ نفسه . ص : 169.

25 ـ نفسه . ص : 169.

26 ـ نفسه . ص : 171.

27 ـ نفسه . ص :.177

28 ـ نفسه . ص :.171

29 ـ نفسه . ص : 169.

30 ـ نفسه . ص :.177

31 ـ نفسه . ص :.168

32 ـ نفسه . ص: 170.

33 ـ نفسه . ص: 169.

34 ـ نفسه . ص :.169

35 ـ الضمير هنا يعود على الطلقات .

36 ـ بامو . ص : 169.

37 ـ نفسه . ص : 168.

38 ـ نفسه . ص : 168.

39 ـ نفسه . ص :.169

40 ـ نفسه . ص : 170.

41 ـ نفسه . ص :.170

42 ـ نفسه . ص : 170.

43 ـ نفسه . ص : 171.

44 ـ نفسه . ص :.171

45 ـ نفسه . ص : 172.

46 ـ نفسه . ص : 174.

47 ـ نفسه . ص : 174. - 173

48 ـ نفسه . ص : 177.

49 ـ نفسه . ص : 177.

50 ـ نفسه . ص : 173.

51 — نفسه . ص : 173.

52 — نفسه . ص : 177.

53 — الرواية التاريخية جورج لوكاش . ص : 46.

54 — أنظر العروض الأخرى المقدمة في هذه الأيام الدراسية .

55 — والباقي في الصفحات التالية : ص :121(مرتان)، ص : 122(مرتـــان)، ص :123 ، ص :124 ، وص : 173.

56 — بامو . ص : 122.

57 — نفسه . ص : 169.

58 — نفسه . ص : 173.

59 — من أجل تحليل "سوسيو— بنائي" للرواية . حميد لحميداني . ص : 24.

60 — نفسه . ص : 25.

61— « Les catégoris du r écit ». in - L'analyse structurale du récit. Communications,8.POINT.198

P: 133 نقــلا عن لحميداني . ص : 23.

صورة الــذات
(بحث في التفاعل داخل التعبير السردي)

شعيب حليفي *

في سنة 1908 عثر البيروفي ريتشارد بييتشمان Pietschmenn وهو يبحـــث في أرشيف دانيش الملكية بكوبنهاكن على مخطوط غريب مـــؤرخ ب كوزكـــو Cuzco سنة 1613 ، أربعين عاما بعد السقوط الأخير لامبراطورية الأنكا فـــي يد الإسبان.

هذا المخطوط هو رسالة كتبت بمزيج من لغة الكويتشـــوا Quechua واللغـــة الإسبانية، موجهة من شخص مجهول إلى فليب الثالث ، ملك فرنسا ، ومـــا أذهـــل بييتشمان هو طول الرسالة ، 1200 صفحة ، منها 800 صفحة مكتوبة و400 الباقيـــة بها رسومات شارحة .

عنوان هذا المخطوط هو : " السجل الجديد ، العدالة ، الحكومة الجيدة ".

• ـــ أستاذ باحث بكلية الآداب بن مسيك- الدار البيضاء

ويتضمن نظرة للعالم وإعادة تدوين تاريخ المسيحية،ووصف دقيق لحياة السكان الأصليين لأمريكا، الهنود الحمر وقادتهم (1).

هذا المؤلف المجهول لم يعرف أبدا أن تصوراته التي ملأ بها كل هذه الصفحات ستصبح مادة خصبة للدرس والمقارنة والتحليل ، فمسألة الصراع الحضاري والثقافي هما شكلان متلازمان ، ذلك أن ثقافة البلد المستعمِر تشكل العنصر المهيمن في ثقافة البلد المستعمَر ، بل إن التحويلات التي تطال اللغة والتفكير هي جزء من تحويل أعمق يوجه الثقافة / الكتابة والشفوي إلى بؤرة مركزة . فأحمد الحجري (أفوقاي) ق 17م خص كتابه « ناصر الدين على القوم الكافرين"(2) للحجاج والدفاع عن دار الإسلام مقابل دار الكفر، بلغة موريسكية تطبعها ألفاظ مغربية دارجة وكلمات إسبانية وتعابير وسياقات مسيحية ويهودية. فالآخر ، المستعمِر ، غالبا ، ما يفرض مواضيعه ، لا يترك للكاتب المستعمَر إلا الموقف.

هكذا ارتبطت الكتابة بما يهيمن عليها ، في إطار ما تسميه ماري لويس برايت بالتداخل الثقافي ، هذا الارتباط يجيء نتيجة الإحساس بالمفارقة ، وحين دخول الكاتب في مقارنة وضعه مع الآخر ، آنذاك تلتقت الكتابة إلى السجلات والأثر لرسم صورة الذات وعلامة الأجنبي فيها .

كيف تجلت صورة الذات المغربية في التعبير السردي لحظة صدامها أو انعتاقها ؟ بمعنى ، ماهو الموقف (إيديولوجي فني ، معرفي) الذي صاغته الأشكال السردية تجاه الأنا والآخر ؟.

إن البحث في علاقة " الانعكاس " هو أمر ثانوي ، لأن الجوهري في المسألة هو كيفية التقبل وكيفية الصياغة والتعبير ومدى وضوح الموقف وقوة أبعاده.

في لحظة ضعف المغرب اقتصاديا وسياسيا - خلال القرون السابقة - والإحساس الذي استشعرته النخبة المخزنية ، كانت النصوص السردية سجلا متنوعا بأشكال الدهشات، تجلى في رحلات سفارية إلى أوربا، وبالمقابل يمكن

تمحيص الأحكام القيمية ، ونظرة الآخر وكيفية تقبلنا من خـــلال النصـــوص التـــي كتبها بعض المبعوثين الغربيين – تمهيدا للاحتلال * ثم النصوص التـــي دونـــها الضباط المرافقون للحملات ... جميعها تحتوي على صورة المغربي من منظـــور الآخر وخلفياته التي كان يراهن عليها .

ـ كيف عبرت الكتابة عن حدث الانعتاق ؟

سؤال يفترض أسئلة قبلية عن تجليات المقاومة والتواجـــد الاســـتعماري فـــي السرد المغربي ، وهل وجدت بالفعل ، أشكال سردية قادرة على امتصاص وتمثـــل هذا التجلي والتعبير عنه بما يوازيه تخطيطا وديناميةً وعنفا ؟.

بالتأكيد ، سيحضر التنوع في الإبداع خصوصا وأن المسألة ليست بالصيغـــة الآلية التي تربط بين تفاعلات الواقع والكتابة من جهة، ثم إن الحدث ليـــس مشـــهدا عابرا يمكن أن نتحدث عن تقاطعات رؤيوية ، ولكنه سيرورة مركبة من عوامـــل شتى ذات ترسبات وإفرازات، وبالطبع فبعد انعتاق المغرب ورحيل الاستعمار عنـــه تحررت النصوص أيضا واستعبدت من طرف أفكار أخرى جديدة ، ســـتتحول فـــي بعض المناحي إلى كوابيس ... حيث تشكلت نصوص حاملة لأحلام متجـــذرة فـــي أوهام الاستقلال، لم تكتب مباشرة لأن الحدث كان أكبر مـــن الكلمـــات ، والتعبـــير يضيق عن عنف اللحظة وما تحبل به من مفاجآت ودهشات. كانت الـــذات تـــذوب وسط الذوات...وسط انشغال العام بالكلي وبالمستقبل .

لكن لماذا انكسرت الأحلام المتبخرة واقتلعت نبتة الأحلام من أحواضها ؟

هل جاء الانعتاق السياسي لتأزيم الوعي أم تحريره ؟

ـ سأتناول ثلاثة أشـــكال للتجلي بقصد تمحيص بعـــض الأسئلة السالفة واختبارهـــا لـــفهم الشكل الثالـــث عن طـــريق الشكلين الســـابقين ومـــا يقدمانـــه مـــن أدوات للمساعدة على الفهم .

النص الأول قبل الاستعمار الفرنسي في المرحلة التمهيدية ، أما النص الثاني فهو أثناء الاستعمار، فيما النص الثالث يجيء بعد الاستقلال ، وهو نص" في الطفولة " لعبد المجيد بن جلون.

دهشة الأنا والرغبة المزدوجة :

يندرج مؤلَّف محمد بن إدريس العمراوي " تحفة الملك العزيز بمملكة باريز"(3) ضمن النصوص الرحلية في فترة اكتشاف مرض الذات الجمعية وانكسارها عقب هزيمة اسلي 1844 وحرب تطاون 1860 (وقبلهما استعمار الجزائر 1830) والذي يصادف رحلة ابن إدريس إلى فرنسا لتسليم كتاب السلطان إلى نابليون الثالث بمبررات شتى منها " تكالب النصارى على الثغور والمراسي المغربية "(4) ، فتوجه بكتاب السلطان إلى " طاغية الفرنسيص "، في ما هناك مبرر آخر يقف على المناوشات التي تقوم بها الجيوش الفرنسية على الحدود المغربية الجزائرية، ومبرر ثالث يشير إلى رحلة ابن إدريس لأنها كانت للطلب من فرنسا وإنجلترا التدخل لدى الإسبان في محاولة الحصول على تخفيض لتعويضات حرب تطاون : (150 مليون فرنك واحتلال تطاون).

كل هذه المبررات تكشف ضعف الذات المغربية إثر هذه الحرب التي عبر عنها المؤرخ الناصري بقوله : " ووقعة تطاوين هذه هي التي أزالت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب واستطال النصارى بها وانكسر المسلمون انكسارا لم يعهد لهم مثله وكثرت الحمايات ونشأ عن ذلك ضرر كبير"(5).

لكن النص لن يعبر أو يعكس آليا هذا الاختناق إلا عبر أزمة الذات واندهاشها من عوالم باريس و تكنولوجيتها، فأزمة الذات تبرز في المبالغة ومحاولة إظهار الحفاوة والبهرجة التي استقبل بهما ابن إدريس من طرف المسؤولين الفرنسيين بحثا عن الإعلاء من شأن الذات لرغبة ، مزدوجة ، نفسية ، معنوية يلملم بها شتات انكساره، فهو الضعيف الذاهب عند القوي ، ورغبة ثانية لتثبيت نجاح مهمته عند السلطان والقراء.

إن دخـــول ابن إدريس إلى باريس كان في لحظة وضعت فيها أوربـــا يدهـــا على الاختراعات التكنولوجية والتقدم العلمي ، الأمر الذي جعل دهشة الأنا تمـــزق (أو تحاول) المعرفة القبلية ، وتخلخلها ، فتضع الأنا في مأزق ذاتها ، لا تقدرعلـــى تجاوز الشرنقة إلا بالكلام والتمني وإعلان الرغبة ــ مـــن حيـن لآخــر ــ فـي استحضار هذه الآلات واستخدامها . ففي حديثه عن المطبعة يقــول : "...ونطلـب الله بوجود مولانا أمير المؤمنين أن يكمل محاسن مغربنا بمثل هذه المطبعة "(6).

إن الدهشة المتخلقة من جراء المشاهدات ليست من موقع طبيعـــي ، ولكنـــها تنطلق من الإحساس الداخلي بتفوق الآخر ، وضعف الذات أمام مظاهر ومقومـــات الحداثة الفرنسية ، وكأن هذه الأشياء المدهشـــة هي المرآة العاكســـة لهذه الصـــورة وبالتالي فهي لا تستدعي المقارنة ــ في المجال العلمي ، الاقتصادي والتجـــاري ــ كما جرت عادة عيون الرحالة. أما الرغبة فهي رغبـــة مشـبعة بالتنـــاقض بيـن الإعجاب والتحفظ من أخلاق وسلوك الآخر باعتباره فقيها وكاتبا مخزنيا(7).

لكن الشق الآخر من صورة المغرب تبرز في تطـــور الصناعـــة الحربيـــة ونظام الجيش بتنظيماته وقوانينه، وهو تحول في الحديث عن رغبة أخــــرى فـــي الامتلاك، فالصدام بين النحن والآخر ولد عدة صور عند ابن إدريس العمراوي:

ــ صورة الأنا الممزقة بين إعجاب بتطور الآخر ، اقتصاديـــا وتجاريـــا وفكريـــا والتحفظ عليه سلوكيا وأخلاقيا.

ــ صورة النحن الضعيفة والتي هي في حاجة إلى نقل أدوات وأسباب التطور.

ــ صورة الآخر القوي في اقتصاده والمنحرف في أخلاقه.

هروب الأنا ، لغة الغيب و الوعظ :

استطاع ابـــن الموقت المراكشي بـــلورة مشروع تـــموقع بداخله تعبـــيرا منـــه عـــن موقفه ووظيـــفته كعالم وفقيه ،وبالتالي ككـــاتب يمـــارس الوعـــظ والتقويـــم بالانتقاد والإرشاد . وقد جاءت جل كتاباته للتعبير عن أزمة وعيه الذي سيجنح بـــه نحو اختيارات مهادنة للآخر الأجنبي ومهاجمة الذات الجمعية .

ففي نص " الرحلة المراكشية "(8) يلح على التعبير الخيالي فيهاجم الزمن (الوقت) وأسباب الانحطاط دون الخوض في الاستعمار وويلاته.

" هذه الأمة يزيد عددها على مائتي بليون من النفوس ، وأراضيها آخذة من المحيط إلى أحشاء بلاد الصين وهي تربة طيبة ومنابت خصبة ومع ذلك نراها نهبة وسلبا يتغلب الأعداء على هذه الأمة شعبا شعبا ويتقاسمون أراضيها قطعة قطعة ولم يبق لها كلمة تسمع ولا أمر يطاع "(9) . فضلا عن هذا فهو ينتقد نخبة عصره وكل فئات المجتمع حتى يُنَفس عن أزمته .

في النصين الآخرين ، أصحاب السفينة والرحلة الأخروية(10) يعمق التعبير عن شكل مواجهته للذات والواقع وحجم انتقاداته وطبيعتها وبالتالي يكشف عن الخلفيات والإطار العام المتحكم في علاقة فقيه كاتب بواقع مُسْتَعْمَر فكانت تأثيرات محيطه المراكشي بكل التفاعلات الملتهبة ، تنعكس ، فنيا، وبلغته كفقيه، على نصوصه بشكل آخر ومغاير ، بعيدا عن التقرير متوجها نحو الأسباب الذاتية التي كانت وراء كل هذا ... إنه منظور يعتمد في أساسه على ثنائية المسلم والكافر، فلولا تقاعس المسلم ما دخل الكافر دار الإسلام .

إن التخيل في شكله المتجه نحو عوالم يتم الارتحال إليها هو الصيغة التي اختارها ابن المؤقت المراكشي، ففي نصه " أصحاب السفينة "(1935) يختار السفر لأنه ــ كما قال القدماء ــ مرآة الأعاجيب! بحثا عن أصدقاء يحاربون معه الفساد ويبثوا القيم ، متخذا شكل المقامة سبيلا لأفكاره وهواجسه ، ومن السفينة الواقع الذي يحفل بالمتناقضات وهو شاهد عليها منتقدا لها ، فلم يترك شيئا في المجتمع من ظواهر شاذة وانحرافات إلا وعدده غير متردد في القول : " فواجهنا القوم صباح مساء بالمواعظ والنصائح الدينية، وصدعناهم بالحق ثم حملنا عليهم في ذلك حملة لم نخش لومة لائم خوفا من أن تحل بهم صاعقة إثر صاعقة. وأظهرنا لهم العقوبات الحالة بمن قبلهم من أرباب الغواية "(11) . " وقلنا وآسفاه على فقد التقى والمروءة والفضيلة والعفة والغيرة والوفاء بالعهد والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر والتعاضد والتسامح والمودة والإخاء والتواصي بالحق والتواصي بالصبر" (12).

هكذا يتبين خطاب المراكشي على الوعظ والغيب لعدم نضج وعي انتقادي متقدم يعي الخلفيات والملابسات وأيضا لغة التواصل غير المختنقة التي بإمكانها جعل الكتابة جبهة للإبداع والتحرير.

صدمة الذات :

يستعيد عبد المجيد بن جلون في نصه السردي " في الطفولة " والذي هو سيرة ذاتية ، أحداث طفولته أثناء الفترة الاستعمارية حيث يمكن تسجيل أربع ملاحظات أولية :

أ ــ التركيز على حكي طفولة الأنا وسرد بعض ما يضيء جوانبها من أحداث تتعلق بالشخصيات .

ب ــ الاهتمام بالأحداث المتعلقة بهذا الطفل ، من سفر ، تحولات ، بعض المشاغبات الطفولية ، بعض المواقف الجميلة والمحرجة...

ج ــ تأثيث النص السير ذاتي بإشارات إلى الوطنية والوطنيين ، والاستعمار.

د ــ جنس هذا النص كسيرة ذاتية يكفي للبحث عن تدويت الكتابة والروح بعد فترة كبت طويلة طالت الكتابة والكتاب.

السؤال الذي يلي هو كيف يتحدث عبد المجيد بن جلون عن الذات الجمعية من خلال إبراز ذاته الفردية؟.

كل تأويل لن يسلم من تقاطعات عدة يستحكمها الثقافي المشدود إلى رغبة الكتابة ــ بالعربية ــ عن الذات المغربية وكأن السيرة الذاتية المغربية لم تستقم إلا بعد تحرر هذه الذات من الاستعمار والتأثير المشرقي والتفاعل القومي ، نظرا للارتباط الوجداني بين المثقفين المغاربة والمشارقة أو بالمغرب العربي ، والتأثير الواضح لكتابات طه حسين والعقاد وشكيب أرسلان والكواكبي وأضرابهم لما لكتاباتهم من قوة سحرية ساهمت في البحث عن موقع في هذه الثقافة .

والتعبير عن الذات بهذا الشكل السيري هو تعبير عن إحساس عميق باستقلالها وحريتها ، لكن كيف يمكن رصد وتتبع وقائع وأحداث الاستقلال والمقاومة في النصوص الروائية المغربية اللاحقة ؟.

العقد الستيني سيحسم في كل الأسئلة تقريبا ، بل في العديد من الأجوبة التي ستتكسر أمام عنف اللحظات المتلاحقة التي بينت أن الاستقلال الحقيقي هو التحرر العام وضمنه تحرير الوعي والخيال ، فجاءت النصوص السردية مغموسة في ضيم الخيبات وبداية ملامح نفق كبير تتصادى بداخله الهزائم والاعتقالات (13). فكانت الكتابات المتبقاة هي نصوص في شكل نزوع محاربين لمواجهة العاصفة والتشبث خلف أمل ولو كان وهميا محضا ، فحولوا التجربة إلى مأزق حقيقي.

من وجهة نظر أخرى. مازال هناك فقر كبير في استثمار تلك الفترات ، بلى إن الرواية المغربية (والسرد عموما) مازال يضيق عن حفر واد يستجلب تلك المياه لسقي أحواض الراهن .

قصور مرده قلة الكتاب وصعوبة الحياة وما يستتبعها من صعوبات في الاستقرار ، رغم وجود المسافة الضرورية بين تلك الأحداث والآن ، ورغم ذلك تتخلف نخبة من الروائيين المبدعين بدأوا يحفرون في العقود الراشية ويستنطقون التاريخ والتراث لكتابة المنسي داخل مآقينا الحمراء !.

الهوامش :

1 — Mary Louise Prott : imperal eyes. travel writing and. transculturetion, London, Routledye 1992.

2) ـــ أحمد بن قاسم الحجري (أموقاي) : ناصر الدين على القـــوم الكـــافرين ، البيضـــاء المغرب ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية / عين الشق الدار البيضـــاء ، ط 1 1987 [تحقيق محمد رزوق] .

3)- ابن إدريس العمراوي : تحفة الملك العزيز بمملكة باريز ، الرباط ، المغرب ، من أدب الرحلات (دون معلومات) تقديم وتعليق زكي مبارك .

4) ـــ نفس المرجع ص : 24.

5)- الناصري : الإستقصا ، الدولة العلوية ، الجزء التاسع ، البيضاء ، دار الكتاب 1956 ، ص : 101.

6) ـــ ابن إدريس العمراوي ، ص : 80-79.

7) ـــ عبد السلام حيمر ، صورة الآخر من خلال تقارير الرحلات السفارية (ضمن) مجلة بصمات ، البيضاء ، كلية الآداب بنمسيك ، العدد5، ص : 156.

8) ـــ محمد بن محمد بن عبد الله ابن الموقت المراكشي : الرحلة المراكشية أو مرآة المسـاوئ الوقتية (ج1) البيضاء ، المغرب، دار الرشاد الحديثة ، (د.ت).[انتهى من كتابته سنة 1932].

9) ـــ المرجع السابق ص :.20

10) ـــ ابن الموقت المراكشي : أصحاب السفينة أو القرن الرابع عشر. مصـــر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1935

ـــ الرحلة الأخروية أو المقالة الباهرة في كشف الغطاء عن أسرار الآخرة ، فاس المغرب المطبعة العصرية .1946

11) ـــ أصحاب السفينة ، ص : 56.

12) ـــ نفس المرجع ص : 58-57.

13) ـــ أدباء في تلك المرحلة انتحروا معنويا ، مـــنهم من جـــن أو اعتزل أو إنغمس في وهم ما للنسيان .

تاريخ الحركة الوطنية
في القصة المغربية القصيرة

أحمد زيـادي *

إن الإبداع في سائر صوره وأشكاله الفصحى والعامية ، وفـــي مختلــف أجناسه وفنونه، أصدق من غيره من الوثائق ، لأنه ألصق بالنفوس ، وأقوى علـــى التعبير عن وجدان الأفراد والجماعات والشعوب ، وعلى رصـــد حركـــة التـــاريخ وتبين مكامن التغيرات والتحولات ، بسبب ما يمتاز به من حرية وعفويـــة وتجـــدر في الفطرة البشرية ، واتصال بالحياة الشعبية اليومية، وحيوية في استجلاء المواقـف الحقيقية ، وقدرة على استيعاب هموم الشعب وآماله وآلامه ، وعلى الدوام والخلـــود في ضمير الأمة .

ومن ثمة ، أعـــتقد أن دارسي تـــاريخ الحركة الوطنية الثقافي والســـياسي والاجتماعي لا يختلفون في اعتبار الإبداع الأدبي والفني وثيقة من أهم الوثـــائق التي يستندون إليها في دراساتهم وأبحاثهم . وإذا كان مـــن اختلاف بينهم ، فإنما

* – أستاذ باحث بالمركز التربوي الجهوي الدار البيضاء

يكون في تحديد المنهج أو المناهج التي توفق بين مختلف الوثائق ، وتوحد بين نتائجها .

وفي هذا العرض الموجز سأركز بحثي على إبراز الجانب التوثيقي في القصة القصيرة المكتوبة بالعربية في عهد الحماية ، لأخلص في النهاية إلى اعتبارها مصدرا من مصادر تاريخ الحركة الوطنية المغربية العام .

لقد كانت كل أساليب القول وفنونه وأجناسه ، وسائل تعبيرية في متناول الكتاب الوطنيين ، يسخرونها لخدمة القضية الوطنية ، ولبلوغ أهدافهم النضالية لذلك لم يعنوا بشروطها الفنية العناية التي أولوها لمضامينها وموضوعاتها . وتعتبر هذه الملاحظة ـــ التي هي منقصة فنية في نظر الناقد الأدبي المعني بتطور الأجناس الأدبية ، والأشكال الفنية أكثر من عنايته بالمضامين ـــ مدخلا أساسيا لفكرة هذا العرض ، وهي محاولة إنصاف القصة والقصاصين المغاربة اعتبارا للعصر الذي هو أحد العوامل المؤثرة في الأدب .

واعتبارا لهذه الحقيقة ، لا يسع دارس تاريخ الأدب الوطني المغربي في عهد الحماية ، الذي يتحرى الموضوعية ، ويتوخى الإنصاف ، إلا أن يأخذ بهذا الاعتبار في تعامله مع النصوص الإبداعية ، وخاصة القصة القصيرة . ومن المعارك الثقافية الأولى التي خاضتها الشبيبة الوطنية الواعية ، وترددت أصداؤها في القصة القصيرة ، الصراع بين القديم والجديد ، وبين الشرق والغرب . ومن القصص التي عنيت برصد هذا الصراع : (قصة عمي بوشناق) لعبد الرحمان الفاسي، و(سيدي الصغير) لعبد القادر حسن ، و(صراع) لأحمد بناني .

ومن الموضوعات التي استأثرت باهتمام كتاب القصة المغربية في وقت مبكر تمجيد التاريخ الإسلامي والعربي والمغربي لمقاومة الدعاية الاستعمارية ومجابهة محاولات التغريب ، وطمس الهوية الوطنية والقومية . ومن القصص المعالجة لهذه الموضوعات : (جعفرية العربية) لـ : ح.م ، (حسناء المرابطين) لمحمد الهرابلي ، (عذراء سبتة) و(زوارق سعد) و(الليلة الأخيرة) وكلها لعبد

الرحمان الفاسي و(الندمان الثلاثة)، و(شهيد) ، و(عذراء ألمرية) : وكلـــها لعبـــدالله إبراهيم ، و(يوم الفتح) : لعبد العزيز بن عبد الله ، و(حلم لذيـــذ) : لعبـــد الحفيـــظ العلوي ... الخ .

وحين شهر المغاربة سلاح المقاطعـــة الاقتصاديـــة فـــي وجـــه الاســـتعمار ومؤسساته الاستغلالية ، حملت القصة القصيرة لواء الدعوة إلى هذه المقاطعة ، ولـم تقصرها على الميدان الاقتصادي وحده، بل عممتـــها فـــي الميـــادين الاجتماعيـــة والعاطفية والدينية لما لها من انعكاسات سياسية ، من هـــذه القصـــص : (قصـــة خادمتي) : لعبد الله إبراهيم ،(المتفرنجة) : لعبد القادر الهاشمي ،(حيـــاة أســـرة أو تضحية شاب) : لمصطفى الغرباوي ،(التعصب الأعمى) :لأحمد بن جلون ،(الحـــج إلى بيت الله الحرام) : لعبد المجيد بن جلون .

وساهمت القصة القصيرة بنصيب وافـــر في مقاومة الظهير البربري وفضـــح أهدافه ومراميه البعيدة. وتعتبر قصة (أبحث عن بربري) لمحمد حصار من أقـــدم القصص التي قاومت هـــذا الظهير بالسخرية التي تذكرنا برسالة الغفـــران لأبـــي العلاء المعري ، ثـــم تلتها قصص وطنية أخـــرى تناولت بالفضح والنقد والمقاومـــة جوانب مـــن السياسة البربريـــة كمحاولـــة التفرقـــة بيـــن الأمـــازيغيين أنفســـهم وإخراجهم مـــن دائرة العروبة والإسلام ، ومغالاة المنـــظرين الاســـتعماريين فـــي استنتاجاتهم الخاطئة ، ونشاط الصحف المأجورة والاستعمارية في تـــرويج نظرياته السياسية البربرية ، ونشر نتائجها ، ومـــن القصص التي تعالج هـــذا الموضـــوع قصة (يتناجيان) لأبي حامد .

وخاضت القصة القصيرة غمار الدعوات الإصلاحية الاجتماعية والاقتصاديـــة فانتقدت اغتصاب المياه، وانتزاع الأراضي الزراعية من طرف أخلاط المعمريـــن واكتساح الرأسماليين الاستعماريين للسواحل المغربية ، واحتكارهم الثروات البحرية دون الصيادين الأهالي . ومن القصص التي تذكر في هذا الباب : قصة (غريـــب) وقصة (صائد الأسماك) وكلتاهما لعبد المجيد بن جلون .

وأثار غزو البضائع والمصنوعات الأجنبية للأسواق المغربية، عدة دعـــوات لحماية المنتوجات الوطنية وتشجيعها . وقد تفهمت القصة المغربية القصيرة وضعية الصناعة المغربية ، واستوعبت مواقف الوطنيين من السياسة الاستعمارية المتبعـــة في المجال الاقتصادي ، ودعت إلى تشجيع الصناعة الوطنية التقليدية والعصريـــة . ومن أشهر القصص التي اتخذت مواضيعها وشخصياتها وأجواءها من هذه القضايا قصة (الفتى النساج) : لعبد المجيد بن جلون .

وعكست القصة وعي الكتاب الوطنيين السياسي ، فانتقدت سياسة القوة التـــي كان الاستعمار ينهجها في المغرب ، وسخرت من نتائجـــها الخاطئـــة ، وتصـــدت لمحاولة الإدماج والوحدة الفرنسية. ومن القصص التي تعرضت لهذه القضايا مـــن زوايا مختلفة ، قصة (فتاة من باريس): لعبد المجيد بن جلون ،(في لذيذ الحلـــم) : للتهامي الوزاني (ضحية صورة) : للهاشمي الفيلالي ، و(قال دمنة) : لعبد القـــادر الصحراوي . وإذا كانت التصريحات السياسية الرسمية قد أهابت بالمغاربـــة إلـــى الانخراط في صفوف القوات الفرنسية خلال الحربين وفي أعقابهما ، لما في ذلـــك من استراتيجية سياسية ، فإن القصة الوطنية اتخذت موقفا مخالفـــا عـــبرت فيـــه عـــن الموقف الشعبي مـــن جهة وعن موقف القادة الوطنيين الذين كـــانوا فـــي مأمن من بطش قـــوات الاحتلال من جهة ثانية ، مثل موقف الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي ــ وهـــو في مصر آنذاك ــ المعارض لإرسال مجندين مغاربـــة إلى جبهة الهند الصينية ، ومن القصص التي ينبغي الإشارة إليها في هـــذا الســـياق قصة (بحيرة الأحلام) لأبي شفيق.

ولم تغفل القصة القصيرة قضايا العمال الحيوية، ومطالبهم النقابية ، فقد انتقـــدت اجتياح المعمرين الأوربيين للبادية المغربية ، واستحواذهم علـــى أجـــود مناطقـــها الفلاحية ، و أخصب أراضيها ، وتشريدهم لأصحابها واستعبادهم مما ترتبت عنـــه حركة نزوح واسعة إلى المدينة ، حيث الرأسمال الجشع الذي كان يتلقـــاهم أقويـــاء ويلفظهم عاجزين ، ومن القصص التي تعرضت لبعض قضايـــا العمـــال النقابيـــة

والاجتماعية قصة :(قصة عامل) للهاشمي الفيلالي ، و(وحي الصورة أو تدشـين ساحة النهضة): لرسام ، و(عينان في الظلام) و(غريب) و(ووادي الدمـاء) وهـي لعبد المجيد بن جلون .

وعنيت القصة القصيرة بتصوير تجربة الاعتقال والسجن والتعذيـب والنفـي وخلدت الكثير من الحقائق المتعلقة بهذه التجربـة السياسـية القاسـية ، وانتقـدت بالخصوص بعض الأساليب القمعية التي انطبعت بها سياسة الحماية الفرنسية وهـي: الظلم والنقمة والخطأ والاشتباه .

ومن أشهر القصص التي اهتمت بتصوير هذه التجربة :(خلف قضبان الحديـد) و(المنتقم) وهما لعبد المجيد بن جلون . وأبرزت القصة القصيرة المشاركة الشـعبية الواسعة والقوية في المجال السياسي ، والاستجابة للأفكار والمواقف الوطنيـة مـن مختلف فئات المجتمع المغربي . هذا ما عكسته قصص عبد المجيـد بـن جلـون: (المنتقم) ، (الملك غير المتوج)، (خلف قضبان الحديد) . وبقدر مـا كـان أقطـاب السياسة الاستعمارية يحوكون الدسائس لعزل السلطان عن شعبه ، وشـغل الشـعب عن ملكه ، كان جلالة الملك والوطنيون يعملون معا على إفشال تلك الـمؤامرات خاصة بعد إعـلان (ظهير 16 ماي 1930) وقـد احتفت القصة المغربية الوطنيـة بـمواسم الـزيارات التي كـان العاهل يقوم بها مـن حين لآخر إلى أقاليم المملكة ودعت الشعب إلى التمسك برموزه الوطنية في مختلف مظـاهر حياتـه الخاصـة والعامة فأصبح مـجرد الهتاف باسم جلالة الملك " نداء للحرب " ـ كمـا يقـول روم لاندو ـ . ومن القصص التي تذكر في هذا المنحى الوطني : قصـة (عـودة الروح أو حلم أرزة على قمة الأطلس): لمحمد الزيزي ، وقصة (يحى بن يوسـف) لعبد المجيد بن جلون

وإذا كانت الكتابة القصصية المقاومة لم تزامن الفعل المقاوم ، ولـم تواكبـه لأسباب يضيق المجال عن ذكرها في هذه العجالة ، فإن رواد القصة المقاومة لـم ينسوا بطولات الرعيل الأول من المقاومين خلال الثلث الأول من القرن العشـرين

في شرق المغرب وشماله وجنوبه ، نذكر هنا قصة (اللحظات الأخيرة) التي استلهم فيها عبد المجيد بن جلون ملاحم المقاومة الشعبية في منطقة بني يزناسن للغزو الفرنسي بقيادة ليوطي ، وقصة (عائشة) التي استوحى فيها الكاتب نفسه ملاحم المقاومة الشعبية في جبال الأطلس ، وقصتي (شقراء الريف) و (في هضاب الريف) لعبد العزيز بن عبد الله ، وقد خلد في هذه بطولات المجاهدين الريفيين في معركة أنوال ، وقصة (الأسيرة) التي كشف فيها عبد المجيد بن جلون عن الجوانب الشعبية لحرب الريف التحريرية . ولا تفوتنا الإشارة إلى قصتين تدوران في هذه الأجواء أيضا للحبيب جاماتي هما :(عائشة المغربية)، و(رسالة وامرأة) .

وما كادت المقاومة الشعبية المسلحة تنبعث من جديد في أوائل الخمسينيات حتى سارعت القصة إلى مواكبتها مخلدة بطولات المقاومين وعمليات جيش التحرير. ومن القصص المقاومة قصة (عودة حسين) لعبد المجيد بن جلون ، و(ليلة في بوزينب)، و(رائحة القرنفل .. بن صالح) و(لحظات الموت في تيزي ويسلي) وكلها للوسدادي .

لقد ساهمت القصة القصيرة الوطنية مساهمة فعالة في التأريخ الحي للوطنية المغربية ، وفي تخليد إنجازاتها ، وتمجيد بطولاتها، وتكريم شهدائها ، وإكبار تضحيات مقاوميها، و التنديد بالخونة والمنشقين عنها ، مما جعل المرحوم علال الفاسي يبوئها مكانة الريادة في أدب المقاومة العربي في مختلف مراحله وصوره الاجتماعية والسياسية والنضالية في قوله : " والقصة المغربية ، ولاسيما القصيرة أصبحت تكون لونا من أدبنا ، متعدد النزعات، ولكنه يمتاز بأصالته ومغربيته ، وقد تفوق على القصص العربية الأخرى بسبقه إلى تناول جوانب لم تكن تحظى بالعناية في الأدب العربي قبل أن يتناولها كتابنا الأحرار، فقد سبق المغاربة إلى كتابة القصص العديدة عن أدب المقاومة، كما سبقوا إلى تسجيل اجتماعيات الحركة الوطنية وظروفها، وإلى النقد الاجتماعي، والدعوة لتحرير المجتمع من أثر الرق والفيودالية وتصوير تعاسة الفلاح والصانع والعامل ".

وقد تميزت القصة القصيرة المقاومة بمميزات أهمها طغيان الواقعية والتوثيـــق والتسجيلية على أحداثها وشخوصها بل على بنائها وحوارهـــا أحيانـــا ، حتـــى إن القارىء المطلع على تفاصيل الأحداث والوقائع التـــي كـــانت تنشـــرها الصحافـــة الوطنية أيام الحماية ، يكاد يجزم أنه يقرأ سيرا لمقـــاومين معروفيـــن ، وتفـــاصيل لأحداث معينة .

وإذا كانت القصة القصيرة الوطنية قد أفادت من الحركة الوطنية شرف القضية والمضامين والمواقف والرموز والعناصر الوطنية ، والتراكم الكمي الذي ســـيصبح ــ فيما بعد ــ رصيدا تجريبيا ، وسيتخذ أساسا لبناء صرح القصة المغربية الحديثـــة فإن التزامها بالقضايا الوطنية من جهة ، وتطاول العديد من الكتاب الوطنيين غـــير الموهوبين على معالجتها باعتبارها مجرد لـــون مـــن ألـــوان الكتابـــة المســـخرة بعناصرها التقليدية المتعارف عليها ، لخدمة القضية الوطنية ، من جهة ثانية ، كـــان عائقين ذاتيين وموضوعيين حالا دون الرقي بفنيتها التجنيسية إلى المستوى الـــذي وصلت إليه في المشرق العربي وفي الغرب عصرئذ .

انعكاس المقاومة في التعبير الفني

- نماذج من أغاني الجهاد الأمازيغية
- المقاومة وانعكاسها على المسرح المغربي

نماذج من أغاني الجهاد الأمازيغية

الملكي المالكي *

أنشودة الفقيه سيدي صالم (1) حول حرب الهري (2)

ملي دخلت الهـري إنها معركة تفـوق مريمـان (3)

كـال القـايد المحـزونـي فـي حلـفـاتـو

النـصرانـي نـخلـك ولا تـخـلـيـنـي

إيلا قتلوكم المرتزقة (الكفار) أو جرجروا عائشـة (4)

أو ميمونة ماتت أفاطمة رحو اللي شـافك يـشـيب(5)

إيلا فـكرنا نبقـاوا نبكيـوا على تيحيحت ومحجوبـة

كال بـوزقور(6) يـسـمح الفـسـيان ل مسعـود (7)

(...) (...) (...) (8)

ناض البراح : آلشـلـوح بـاش تـنـوضـوا

* - أستاذ باحث بكلية الآداب تطوان

اداو المحزوني إيمازيغـــن باش تفكوا هـــذا المشكـــل (9)

على الرغم من البتر الذي أصاب الأنشودة من جراء ما اعترى ذاكرة الـــراوي من بعض نسيان فما زالت هذه الأغنية محتفظة بقوة بالوقائع .

نلاحظ وصف هذه الأغنية للمعركة ثم تأريخها لأحداثها . إن وقـــوع معركـــة الهري أصبح بمثابة حدث للتاريخ " ملي دخلت الهري " بمقارنتـــها مـــع معـــارك قصيبة . واقترنت الهري بقسم الزعيم موحى أوحمو الموجه ضد الفرنسيين حـــول النصر أو الهلاك . وخاطب يمليازن (أي الشاعر الأمازيغي) مجاهدي زايان، مـــن خلالها حول قتل الغزاة للمدافعين وجرح وقتل زوجات القائد الزايـــاني . وحـــاول الشاعر تلخيص مختلف المشاعر والحوادث في معاناة إحدى زوجات القـــائد بقولـــه :"اللي شافك يشيب" . ثم استدرك منبها إلى عدم جدوى استمرار البكاء على بعـــض الشخصيات المفقودة في ذلك اليوم المشهود . وصعـــد الشاعـــر مـــن ندائـــه مخاطبـــا المجاهديـــن على لسان واد بوزقـــزر أحد روافد شبوكـــة (رافـــد أم الربيع) والذي سالت فيه كثير من دماء المجاهدين وغيرهم حتى أصبح ماؤه حراما (اختلطت فيه الدماء) ، وذلك من أجل النهوض ضد الغزاة .

أنشودة آيت أوكوديد (10)

ها أنـــــذا ســجـيـــــــن

لم أقـــم بالحرث ، ولا بـــدرس السنابل ، أنا في حالة يرثى لها

أيتها الأكواخ الفقيرة ، التي لم تعـــد إلا أنقـــاضـــا !

أيتهـــا القنبلة ، لقـــد حطمت أســـاكا ، وهدمـــت تاعدليـــت

إنني أسخر منك ، حتى ولو صارت " بزا " و" تاكوعت " مشتعلة

إنني أحتقـــرك ! أحتقـــرك ! أحتقـــرك !

إنـــه من أجلك وبسببك كان نبي ومرشدي قد قال بأن هذا سيحدث لي

(إن المؤمـــن مصـــاب) .

من أحـــب الجهـــاد توجـــب عليه أن يعاني مما يصيبه

ومن أجل الجهاد تركت الأكواخ وهجرت الأخصاص والدشور ،
عدت إلى القصر (11) لأنه يثير انفعالـــي.
عندما نحلم بأن دشورنا ومخازننا كانت للجميع
وأن جدرانها حمت غلالنا من طمع الأعداء
ولما نرى جدرانها المصنوعة من التراب المدكوك تتفتـــت فـوق بعضـــها علـــى الأرض،
وتخترق جدرانها الأخرى بواسطة قنابل المسيحيين الملعونين ،
فإنني عندئذ أضع نفسي رهن إشارة أيت أوازود الذين استطاعوا مقاومتهم.
سأجيء عندكم ، سأتقدم هناك إلى أعلى الجبل لأحلب نعاجي ،
حتى ولو قدموا ، فإن الطابور لن يحلم أبدا بالوصول .

وفي الأغنية الثانية نلاحظ تشخيص أحد مجاهدي آيت أوكوديد لحالـــة لجـــوء الجماعة المذكورة ، بواسطة نظم أو أنشودة سميت باسمهم . وهذا نوع آخر مـــن القصيدة الوصفية التسجيلية لحياة الجماعة المذكورة في ظروف الغزو والمقاومـــة . وقد عبر الايمليازن عن ذلك بعدة أفكار :

الفكرة الأولى: تشبيهه حالة اللجوء بوضعية السجن أو النفي الذي ذكر بـــأبرز مـــا ميز وطبع حياة الغربة واللجوء بالنسبة لجماعة الفلاحين المجاهدين ، وهـــو عـــدم التمكن من القيام بالأشغال الفلاحية الضرورية من حرث ودرس حتى أصبحوا فـــي حالة يرثى لها .

وفي ملجئه يتذكر المجاهد حالة القـــرى مثـــل أســـاكا ، وتـــاعدليت ، وبـــزا وتاكوعت التي حولتها القنابل إلى أنقاض. ويتحول في نفـــس الفكـــرة مـــن حالـــة الإحساس بالغربة والمسكنة إلى حماس يحتقر من خلاله قنبلة الأعداء بتكرار قوله: "إنني أحتقرك". وأكد بأن مأساة آيت أوكوديد مكتوبة كقضاء محتوم . وتحدث عنـــها النبي (المومن مصاب).

الفكرة الثانية : يخرج الايمليازن من الخاص إلى العام ، متحدثا عن حب الجهاد وعن ضرورة القبول بنتائجه، ضاربا المثال بحاله الذي هو حال آيت أوكوديد.

الفكرة الثالثة : برز فيها انتماء الشاعر ـ المعبر على لسان قومه ـ إلى حركة الجهاد بعد اقتناع قوي ناتج عن رؤيته للدشور التي طالما حمت غلالهم ، وقد خربتها قنابل المسيحيين . من أجل ذلك وضع نفسه وجماعته رهن إشارة كل من قاوم هؤلاء المسيحيين، ويعد انخراطه مع آيت اوازود تعبيرا رمزيا عن قبول الانخراط في كل حركة جهاد نجحت في مقاومة الغزو الفرنسي .

وختم الشاعر مؤكدا بأنه على الرغم من حالة المنفى الشبيهة بالسجن ، إلا أن المنفى وفر اطمئنانا لإنجاز أشغال فلاحية ممكنة كالرعي والحلب ، وعاق تسلق طابور الغزاة بسبب مناعته .

أناشيد الثورة (12)

أيتها القباب ، أنت مثل يتيمة

كم تزوج عمك مرغما بدون عرس (13)

أيتها القباب التي يهرع إليها جميع الناس

لقد حلت فيها مدافع النصارى واليهود

لم يعد اليوم يستحق التنزه فيها سوى رجال ببرانسهم، لقد صاروا يتجولون في دار الأبطال (14).

أيتها النساء ، ابكين لهذا الذي حدث لي

الخبز البارد وحساء سكو يسببان لي المرض (15)

يا أمهاوش الذي أنت هذا الوطن ، والذي فيه تتجمع صدقاتك.

قال لك الملك : تعال إليه (16) .

تلخص مضمون هذا النظم في رثاء قرية القباب بسبب سقوطها في يد الغزاة المحتلين. وتحولت بذلك إلى معسكر مدجج بالمدافع بعد أن خرج منها سكانها

الرافضون للخضوع . ومعلوم أن القباب كانت إحدى المراكز الروحيـــة للطريقـــة الدرقاوية بزعامة سيدي علي أمهاوش.

تنبـــأ المهـدي (17)

مازال هذا الفارس ينتظر ساعته (18)

سيترك شعر رأسه طليقا كعادة النساء (19)

أنا قادم بصحبة رجل من الآخرة

وسأحمل السيف وسأعود لمقاتلة الحكم ،

وعندما ينتظر " أفودبوبريد "

سترتفع ضجة المحاربين ، وعندئذ فإن القباب ستشم

رائحة اللحم المحروق .

يوضح لنا هذا النظم كيف أدت وطأة الاستعمار بالسكان إلى البحث عن كـــل ما يدفع عنهم اليأس ويبقي بينهم بصيصا من الأمل . وهكـــذا تصـــوروا ضـــرورة الخلاص وجسدوا فكرتهم في " المهدي المنتظر" الذي سيجيء ليطهر البـــلاد مـــن الغزاة وأشكال الظلم بسببهم . وبغض النظر عن صحة أو خطأ ما تخيله الناس ففـــي ذلك دليل جديد على خصوبة المخيلة الجماهيرية الصـــامدة فـــي وجـــه الاحتـــلال الفرنسي والباحثة عن كافة الوسائل للمقاومة من أجل الخلاص .

مكتوب آيت خليفة (20)

يا تادلا ، أنت القضية ، وإليهم تستسلمين

لقد غزوا كل السهل ، وصار العرب خاضعين .

حاصرنا الروم ، فلتنظري ما وقع رأي العين ،

ولتنظري ما جرى ، لقد حاربونا " ويلاهم " وأصبحوا مستقرين ،

ما الذي أستطيع أن أفعله ضدهم : في بيتنا أصبحوا حاكمين،

بنوا معسكرا ، وأبراجا ، قد باتوا فيها معسكرين ،

نحن أم هم أسد بدون رأس ، يا عائشة

هل تستسلمين لهم قبل أن يحلوا عندك .

لكن إذا الرومي أراد نهب غنمي ... فما الذي يجب علي عمله ؟

ماذا أفعل في الركاب الذي التزمت فيه بالسير على قدمي ؟

ماذا أصنع بالفرس الذي أركبه ؟

فلنشق طبولنا إذا نحن توقفنا عن الجهاد ، نحن المسلمين .

نلاحظ بأن هذا النظم بمثابة وصف على شكل رواية لوقائع الغزو وخضوع القبائل العربية ، وحصار الأمازيغيين بالأطلس ، وإبراز قضية الساعة وهي غزو واحتلال تادلة. وورد فيه ذكر لوسائل الغزو كالمعسكرات والاستحكامات ، ثم تساؤل وحيرة حول ظاهرة القوة العاجزة سواء من طرف الغزاة المحاصرين للأطلس والعاجزين عن اقتحامه أو من جانب الأمازيغيين المعروفين بالشجاعة والعاجزين بدورهم عن رد الغزو، وهذا ما لخصته لفظة " نحن أم هم أسد بدون رأس "، ثم تجسيم صعوبة اتخاذ قرار إزاء الغزو "يا عائشة " مقابل ضمان تحقيق الأمن وسلامة المتاع "هل تستسلمين لهم قبل أن يحلوا عندك ؟ ".ويزداد التساؤل حيرة عندما لا يجد الشاعر إجابة شافية على استفهاماته :

ـ إذا أراد الرومي نهب غنمي ، ما الذي يجب علي عمله ؟

ـ ماذا أصنع بالفرس الذي أركبه ؟ الخ .

وفي ذلك إقرار بالعجز العسكري أمام تفوق الغزاة الفرنسيين . ومع ذلك لايعترف الأمازيغيون بالهزيمة " فلنشق طبولنا ..." وهكذا تعكس القصيدة حالة المقاومة حتى وهي في ظروفها السيئة للغاية .

التيريكراف (21)

طار اللقلاق من تنانت حاملا في منقاره النار

وحتى السماء صارت في خدمة الرومي ، وهاهي بدورها تضربني ،

أيتها التيريكراف ، إلى أين تحملين الانقلاب ؟

سرقت للطيور أجنحتها وللأسد أصواتها

تحملين القنابل الحارقة ، ويقال إنك تنقلين المدافع ،
كلما سمعنا هديرك يصيبنا الرعب .
يا عيشة ! جعل التيريكراف حياتنا لاتطاق
ضربنا قرب مسكننا ، وضرب أغنامنا وكلابنا
وكلما أخرجت ماشيتي ، وسرت بصحبة غنمي
فاجأني التيريكراف بطلقات رشاش الردى .
أيها التيريكراف ، حيثما كنت لن أسكن أبدا .

• • •

أيتها البنات الشابات ، يا رجال الخيام
لم يبق شيء لم يخترعـــــوه .
زرعوا الحياة في الخشب وأطلقوه في الهواء .
هي في الأجواء ، لا يصلها الرصاص
تفلت من أيادي ، ولا يمكنني القبض عليها .
يا سيدي محا ، بربك ، إلعنها ، وادع عليها بالفناء
لتسقط عندنا ونقبض عليها ،
ليتمكن قلبي في الأخير من تحقيق ثأره .

نلمس من خلال هذه القصيدة التصور الأمازيغي ــ على بســـاطته ــ لتقنيـة متطورة هي الطائرة والطــيران . وبـــذلك تجلـى لنـا فيـها البعـد الكونـي الشوبنهاوري (22) . وعلى مستوى اللغـة نلاحـظ دخـول لفظـة جديـدة إلـى الأمازيغية:"التيريكراف" التي تعني عندهم الطائرة المسلحة. وتم تشبيهها بالطـــائر اللقلاق الحامل في منقاره للنار . وقد استعارت القصيدة أعضاء حيوانات معروفـة كالأجنحة وأصواتها كهدير الأسد ، وعدة رموز كالروح في الخشب الخ ، لمحاولـة وصف الطائرة. وتعكس القصيدة احتلال سلاح الطيران لمكانة مهمة في الغـارات الفرنسية ضد الأمازيغيين وإلحاق أضرار فادحة بهم وتشريدهم . وعلى الرغم مـــن

الإحساس بالضعف أمام تفوق العدو، وما نتج عن ذلك من اندهاش شديد وخسارة إلا أن الأمازيغي لم يفقد صوابه كليا . وظل صامدا وتمنى لو قبض على هذا السلاح وثأر لنفسه منه. ولم يفقد الأمل في أن تلحق بالتيريكراف لعنة المرابط وتصيبها بالفناء .

سقوط بوعطاس في بلاد "البربر" (23)

خضبت الشمس قمم الأطلس الكبير

غاسلة بأشعتها قصبة بوعطاس

كوكرباز منعزل في بلاد أيت سخمان

وفي الجبل الثائر في عمق بلاد زايان

في كآبة الغروب المخيفة

* * *

وفيما وراء مرامي السهام ، علا نشيد حزين

لأن توكرا العتيقة ، باكية مثل أم

عبرت من خلال أنفتها الأمازيغية عن عظمتها وكأن لسان حالها يردد :

" أصابتنا التعاسة ... فلتذرفي الدموع

يا أرض مولدي القديمة ...

أيتها البلاد التي رعت أطفالا ذوي شهامة ... مثلما بكوا أوكشال ،

فلتنتظري بكاء قصباتنا الحصينة والعريقة،

وغدا سنبكي كافة موتانا الأجلاء ...

من أجلكم ناضل محاربونا الثائرون وقاتلوا

وأعطبت أسوارنا المحرمة مدفع الرومي ".

لأنهم فقدوا قطعانهم التي هلكت

فإن إيشقيرن المغربين واللاجئين الذين تملقوننا ولعنوا الفرنصيص

... وتحدثوا في قصورنا ، من لندا والقباب ،
عن الرعب والدم لدى آيت عتـــاب ،
وعن غزاة مخربين لـــمزروعـــاتهــــم ...
ولذلك سمعنا في داخل قلوبهم زمجرة ثورة ...
يا محاربي الزاويـــــة الأفـــــذاذ ...
يا فرســـان ألـــميـــس ومرموشـــة ، ذوي سرعة البرق ،
أبناء بلد أصيل ، والمغرميـــن بالاستقــــلال ،
ويا صخورنـــا العتيقـــة الصاخبـــة بالمقاومة
إنهضوا أيها العتاة ، من العنصر إلى بيرتاو
قاتلوا حتى آخر رجل في بوعطاس
لحراسة جبالنا العريقة ، وقممنا وثلوجنـــا
وصخورنا المهجورة وأوكار كواسرها ...
حتى تتدثروا مثل غيمة هناك ...
وحتى تغرق الشمس في اتجاه أغبالا

* * *

ولـــما نعــــت بومـــة بأخبارهـــا الكئيـــبـــة
ارتمى الجبل ، أخيرا ، في الدياجير الحالكـــــة(24)

كارسيا لوريـــــا.

بعد أن حدد الشاعر إطار موضوعه بأنشودة ، واصفا زمان وموقــــع القريـــة الروحية للدرقاويين في خمسة أبيات الأولى ، انتقل إلى رثائها . ورثاء توكرا هــــو رثاء بوعــطاس ، لأن الأولى تسمية أو كناية للـــثانية . ويشبهها كـــذلك بأم باكيـــة (ثلاثة أبيات الموالية). ثم انتقل من جديد إلى رثاء آخر أو رثاء على رثاء . وهكـذا واصل حينئذ رثاء حال القرية بعد أن هيأ مطية لذلك على لسان الأم التـــي هـــي لسان حال توكرا التي رمزت إلى بوعطاس . وبلغ الأوج في رثاء بتوقع غد أكـــثر

نحسا وحزنا (الخمسة أبيات الموالية). لكنه انتقل بعد ذلك للدفاع ، وذكر بالصمود وأعطى مبررا للمقاومة " وأعطبت أسوارنا المحرمة مدفع الرومي "، " لأنهم فقدوا قطعانهم التي هلكت "، وتحدث عن خلفاء أيت سخمان " إيشقيرن "، وعن وحشية الغزاة "وتحدثوا (...) عن الرعب والدم"، "وعن غزاة مخربين "(البيتان رقم تسعة عشر وعشرين). وبذلك تحول إلى استنهاض الحمية في نفوس المجاهدين "(...) سمعنا في (...) قلوبهم زمجرة ثورة"،" يافرسان ألميس ومرموشة "، " المغرمين بالاستقلال "، والحمية في المواقع الحصينة " وياصخورنا العتيقة والصاخبة بالمقاومة ". وبذلك تتجلى شفافية الوصف الذي يتعدى حدود الناس إلى الأشياء ويتجاوز حب الإخوان والمجاهدين إلى حب الجماد من صخور وثلوج وإلى الحيوان(الأبيات من واحد وعشرين إلى تسعة وعشرين).

ويستخلص بألا بديل عن المقاومة ، بالنصر أو الفناء " قاتلوا حتى آخر رجل في بوعطاس ". ويمعن في وصف قتال صامد طوال النهار " حتى تندثروا مثل غيمة هناك .... وحتى تغرق الشمس في اتجاه أغبالا ".

ويصل الشاعر إلى نتيجة أو تخريجة وهي المصير المحتوم المقرون بنعيق البوم الدال على الشؤم ، وفي ذلك إيذان بتحول خطير في حياة الأمازيغيين ، وذلك بانتقالهم من الاستقلال إلى الاحتلال. وإن " الدياجير الحالكة " تعني فقدان هؤلاء الناس لحريتهم وأموالهم وخسارتهم لأرواحهم وأمتعتهم وأرضهم ، وتأكدوا بأن لاخير بعد اليوم في ظل الاستعمار الفرنسي ، وأن ارتماء الجبل في الدياجير أو الظلمات الحالكة هو بمثابة عنوان على دخول مرحلة جديدة اختلفت جذريا عن مرحلة عاشها الأطلس لآلاف السنين ينعم في استقلاله ونظمه الخاصة. وبذلك تم تسجيل خضوعه للأجنبي الكافر لأول مرة في التاريخ . وهكذا أصبحت القصيدة في هذا المستوى بمثابة تأريخ لوقائع مرحلة دقيقة في حياة الأمازيغيين .

الأمهاوشيون والثورة (25)

سيدي علي (26)... قيل بأنه لما دخل النصارى إلى تينتغالين ...

والمسيد ، والمرس ، وتاسفيلالت ، والقباب (27) ، فر إيشقيرن إلى
ديارهم في أغبالا.
كانت قصبته هي فقط أغبالا وبوعطاس (28)
ولما أفلتوا ، صعدوا إلى الجبل ، في الغابة .
قالوا بأنه فيما مضى كانت بلاد آيت سيدي علي هي لندا وتيننتغالين
وأغبالا وتونفيت وتيزي نتيسليت وبوعطاس .
هناك كانوا
بنوا بيوتا لكنهم تركوها عندما ذهبوا صوب وادي العرب.
لقد تهدم كل شيء ، وصار كل شيء خرابا
غير أن كل شيء كان مشيدا .

لقد قامت القصيدة هنا بتسجيل وتأريخ لأحداث دخول الفرنسيين إلى بلاد آيــت مهاوش. واستعرضت أماكن سكناهم ، وسجلت فرار ولجــوء إيشــقيرن ، أتبــاع وحلفاء آيت مهاوش من الغزاة إلى أعلى الجبل ، وبذلك أفلتوا من أيديهم .

ومهدت القصيدة من كل ذلك العرض للوصول إلى خلاصة مفادهــا تــأكيد أن الناس والقرى والبيوت كانت بخير حتى تركها أهــلها هربا مـــن الغــزاة الذيــن خربوها ولخصت ذلك في البيتين الأخيرين : " لقد تهدم كل شـــيء ، وصـــار كــل شيء خرابا غير أن كل شيء كان مشيدا "، وكأن القصيدة بهذه الصياغة البســيطة ترمي إلى تحميل الغزاة وحدهم مسؤولية الخراب، ومدى ما لحق بـــآيت مـــهاوش وإيشقيرن من كوارث.

لعنة آيت أوكوديد (29)

شقـــاء لــك أن يكــون أبوك خائنا يا إيطـــو
خائنـــون أنتم بما أنكم تتحملون المسيحيين
سنبقى أوفياء للطريق التي سطرها النبـــي
لن تعود لنا وحدتنا أبدا ما دمتم تساندون الحاكم .

يا زينب ، أما زلت لم تنجبي بعد أطفالا مع السباهي ،
كان من الأفضل لك اختيار حاكمك.

طالما لعن الثائرون الخاضعين (وهنا الخاضعون من آيت أوكوديد)، وبكوا الانقسام الذي حدث في صفوفهم. وشملت هذه اللعنة الوصف بالخيانة ، وتوجيه الإهانة والسخرية ، كما وضح ذلك البيتان الأخيران.

وتكررت في هذه القصيدة كغيرها صورة مرحلة الشقاء التي دخلها الأمازيغيون في ظل الاحتلال " شقاء لك أن يكون أبوك خائنا يا إيطو".

المرأة في القصيدة المجاهدة :

لاحظنا تكرار ذكر المرأة في النشيد الأمازيغي [عيشة ، إيطو ، زينب ...] فما سبب هذا التكرار ؟ هل حدث بالصدفة ؟

أولا ظلت المرأة رمزا للأرض في أهميتها ومظهرها وعطائها " نساؤكم حرث لكم "(30). ولذلك كان ظهورها في القصيدة ذا دلالة كبيرة . لقد هدف الغزاة بالدرجة الأولى إلى احتلال الأرض (الظاهرة المؤنثة)، وهذا مصدر إلحاق إهانة هائلة أو عظمى بالسكان وفي تقديرنا فإنه لا يتلو الأرض في الأهمية سوى العرض الذي تجسده المرأة . وهكذا فإن تدنيس الغزاة الفرنسيين للأرض باحتلالهم لها لا يعادله تدنيس من نوع آخر سوى المساس بالعرض الذي تمثله المرأة . وهكذا لم يأت تكرار ذكر المرأة في النشيد الأمازيغي ونشيد المقاومة صدفة ، بل جاء عمدا ورمزا إلى عدة قضايا .

وأخيرا فإن المرأة بوجودها وصوتها وشخصيتها ومساهمتها هي مصدر حمية وحماس وتعبئة في صفوف المجاهدين ، وما أكثر الأمثلة التي تعزز هذا القول منها دورهن في منع المجاهدين من الهروب من ساحة المعركة (طريقة رش الفارين بالحناء لتمييزهم عن المخلصين ومعاقبتهم في الغد)، بالإضافة إلى دور المرأة الأمازيغية في مجتمعها كمشاركة في المعركة أكثر من المرأة العربية .

طريــق الأعمــدة (31)

منذ ميلادي ، وخروجي إلى هذه الدنيـــــــا

لا أتذكـــر أنني سمعت حديثـــا عن هـــــذا :

طريق منفصلة عن الأرض وعن اليابــــس ،

يبدو أنه بواسطة أعمدة كانوا يبنون طريقا

يتكلمون بواسطتها من هنا حتى مراكش

وكان المهندسون الفاسدون رهن إشارتهم ، يستخدمونهم .

* * *

أحيي رجالنا الشجعان : وفي جميع الليالي تتقطع الأسلاك

في كل نهار يصلحون أسلاكهم ، وفي كل ليلة تتقطع الأسلاك ،

وأنتم أيها الخائنون القائمون بالحراسة

كل واحد منكم يعانق عمودا

في الوقت الذي تعانق فيه زوجاتكم

عشاقهـــــن .

نلاحظ تسجيل هذه القصيدة المجاهدة لحدث مهم واتخاذها موقفا منه . وظـــهر فيها مرة أخرى البعد الكوني (شوبنهاور) وأما الحدث فهو تأسيس مواصلات سـلكية معلقة (تلغراف ، تيلفون). وسجل الشاعر اندهاشه من الحدث الذي لم يــــره ولــم يسمع به منذ ولادته وسماه " طريق منفصلة عن الأرض ، يتكلمون بواسطتها مـــن هنا حتى مراكش ".

وأما الموقف فتجلى في استرجاع الشاعر لزمام عقله ، وتـــأكيده علـــى دور العلماء في تأسيس ذلك الطريق. وكأن لسان حاله يقول " شـــر النـــاس العلمـــاء إذا فسدوا "، لماذا ؟ لأنهم يسخرون معرفتهم لغزو واحتلال ونهب تراب الغير وســلب حرية الأمازيغيين ، وسماهم بـــ " المهندسين الفاسدين ". كما عـــبر عـــن رد فعـل المقاومة بقيامها بقطع أسلاك هذا الطريق كـــل ليلـــة . وأخـــيرا ، مثلمـــا وصـــف

المهندسين بالفاسدين ،وصف حراس طريق الأعمدة بالخونة ،وضرب لهم مقارنة مثيرة للانتباه والسخرية ،وكأنه يستفسرهم هل تفضلون معانقة أعمدة وترك عناق زوجاتكم للغير ؟ وربط بين معانقة الأعمدة (لإصلاح الأسلاك المقطوعة) وبين انتهاك أعراضهم، وفي ذلك انتقاد شديد واستفزاز وإهانة لا حدود لهما لجميع الذين تخلوا عن قضية المقاومة .

نشيد أمازيغي (32)

يابنـــات الانتـصـــار
ابكيـــن عشاقكـــن الأمجـــاد

* * *

كـــم كـــان عـــددهــــم
أولئـــك الذين ماتـــوا من أجلكـــم ؟

* * *

بعـد صفيـر الرصـــاص
ما الذي يعد أكثر طربا وشجونا من أصوات العاشقين ؟

ساهم الإيمليازن في استنهاض همة السكان وتحريضهم على الجهاد . وتعد القصيدة مليئة بالرمز . فالبنات رمز للأرض وعشاقهن هم المجاهدون ، وقد حاول الشاعر الإفصاح عن ذلك في آخر القصيدة، واضعا صوت أو صفير الرصاص في المرتبة الأعلى بين الأصوات الأكثر طربا وشجونا . وإن جعل أصوات العاشقين في المرتبة التالية لها هو تعبير جمع بين الاستعارة (استعارة ألفاظ وصيغ للأصوات المطربة) والإفصاح(أي التجاوب العاطفي بين أصوات العاشقين فعلا). لكن بقدر ما قد يبدو من تباعد بين الاستعارة والإفصاح المذكورين إلا أن الشاعر صنع منهما ثنائية متلازمة، أو لنقل " ثنائية الحب والواجب " ،حيث يتم تقديم الثاني في العادة على الأول.

دفاع آيت عتاب (33)

سيأكلون شعيركم يا أيت بوزيـــــد

وعند منتصف مارس سيظهرون عندكـــــم

وسترى أيها الأخ ميمون ماذا تحدث القنبلة عند انفجارها ،

القنبلة التي بسببها لا تبقى الدار صالحة للسكنى

القنبلة التي عندما تختبيء في واد عميق

ستأتي لتسقط عليك كأنها مسيرة باليد ،

لم يبق لآيت عتاب إلا الاستسلام

فما الذي يمكن إذن لآيت بوزيد أن يعملوه ؟

تعرض القصيدة حدث انهيار دفاعات آيت عتاب واحتلال ترابهم ثم تـــهديد آيت بوزيد بعدهم . ومن خلال القصيدة أيضا ظهر أن آيت بوزيد واقعـــون خلــف آيت عتاب ، أي أن الأخيرين واقعون في مقدمة الجبهة بين الفرنسيين وآيت بوزيـــد وذلك بالنسبة لخط سير طوابير الغزاة المذكورين. وهكذا تحولـــت القصيـــدة إلـــى رواية موجزة لوصف الحدث على لسان مجاهد لاجيء من آيـــت عتـــاب بعـــد أن انهارت دفاعاتهم بلا شك، إثر تخريب مساكنهم. وقد لخصت شخصية الراوي حالـــة لجوء عامة وتراجع أمام زحف الغزاة الفرنسيين . ووصل الراوي عند آيت بوزيـــد وأبلغهم بمجريات الأحداث وحسب وصول الغزاة عند آيت بوزيد وذلك في الربيـــع (منتصف مارس) ، وأنهم سيأكلون متاعهم (شعيرهم). ووصف لهم الأسلحة الفتاكـــة (القنبلة) التي بسببها استسلم آيت عتاب على الرغم من استماتتهم في الدفاع "عندمـــا تختبيء في واد عميق ستأتي لتسقط عليك كأنها مسيرة باليد". وتساءل في حيرة مـــا الذي يمكن لآيت بوزيد أن يعملوه أكثر مما عمل آيت عتاب!.

ومـــن جهة أخرى عكست القصيدة حـــالة التفـــوق العســـكري للفرنســـيين وكيفية انتشار الأخبار بقيام الضحايا والمنهزمين بإبلاغ إخوانهم الذين لم يتصل بـــهم الغزاة بعد .

وصول الجينيرال أو التظاهرة العشوائية (34)

نعـــم ، هذه لحظات قاسية ، وأوقات صعبـــة
قلــت الحبوب في الحقول ، لأن الثلج قد سقط
وأصبح الرومي ساكنا داخل ملابسنا
وجاء الرقاص ليعلن " إن الحاكـــم قـــادم
فاغتسلوا والبسوا ثيابكم النظيفة بالسيف "
واستعدوا أيها الفرسان لأننا سنذهب لإحضار العروسة ،
ستقفون في الشمس ، بالجملة ، ولا ينبغي لأحد منكم أن يكون رافضا .
وأخيرا تسمع هرهرة السيارة ...
كونوا الصفوف ، لنقيم السياج حتى دخوله (35)،
والآن ، يمكنكم أن تستريحوا أيها الفرسان ، لقد وصلت العروسة .
نلتمس من الله ومنكم يا صلحاء البلاد !
بأن تحيوا الثورة في هؤلاء القوم ،
وبأن يظهر المخلص أخيرا وبأن يتبعوه
لنستعيد الطمأنينة أيها الرب الذي نحن تحت رحمته
أيها الرب ، اصنع بنا ما تشاء .

وهذه قصيدة ذات نغمة ثورية ، والفكر من خلالها جد متكبر في حزنه وذلـــك بتقديمها للحاكم النموذجي . ونلاحظ وصف القصيدة للواقع الجديد في ظل الاحتـــلال وحسب هذه القصيدة فقد تميزت حياة الأمازيغيين بالشدة " لحظات قاســـية وأوقـــات صعبة " . وربط الشاعر ربطا مباشرا بين حصار الثلج وحصار الفرنسيين،" أصبـــح الرومي ساكنا في ملابسنا"، ليفسر حياة البؤس والذل في ظل النظام الجديـــد. لكـــن الفكرة الأساسية التي كرس الشاعر قصيدتـــه لتبســـيطها هـــي الســـلطة وســـلوكها وتمثلت في الحاكم الجديد وعلاقته بالسكان . ومن عنـــوان القصيـــدة نفـــهم ذلـــك "وصول الجينيرال ..." . وقارن الشاعر بطريقة ساخرة بيـــن موكـــب الجينـــيرال

والعروسة من حيث المظهر مع وجود فارق عظيم بين المثالين في المحتوى . وقد أرغم السكان على استقباله بشكل كلفهم أموالـــهم وكرامتـــهم "الاغتســـال واللبـــاس النظيف" على الرغم من فقرهم الشديد ، والوقوف في الشمس في صفوف الخ علـى حساب أشغالهم . وسمى الشاعر ذلك بتظاهرة عشوائية بكل ما عنته مـــن ارتجـــال وعسف . وبعد استعراض القصيدة لوصول الحاكم انتقلت إلى نقد الواقع الجديد بـــلا رحمة . ولم يفصح الشاعر عن الذل الذي لحق القبيلة لكنه لمح لـــه " يـــا صلحـــاء البلاد أحيوا الثورة في هؤلاء القوم " . وطرح بديلا " بأن يظهر المخلص ، لنســتعيد الطمأنينة " .

بعـض المراجـع

- F. Berger : Moha ou HAMMOU le ZAIANI.

.J . DROUIN : Un cycle hagiographique au Moyen - Atlas

- ... L a Terre Marocaine

- .R . A.l

- روايــة شفاهيـــــة .

المقاومة وانعكاسها على المسرح المغربي
محطات... ونماذج

المهدي الودغيري *

في البداية ، لابد من الاعتراف بأنني لست مؤرخا أو مدققا لكل ما سأقف عنده من محطات تاريخية وما سأتطرق إليه من نماذج مسرحية، وإنما مازلت أبحث عن الأمثلة والأدلة تعليلا وتدعيما لهذا الاعتراف . فمن يتأمل جذور المسرح بمفهومه الواسع يجد أن المغرب عرف هذا الفن في تاريخه القديم على الطريقة الإغريقية البدائية ، وفي شكل " فراجات "، وما الحفلات الشعبية التي كانت تقام في الساحات العمومية الكبرى خلال العصور المتقدمة كـ " البساط " و"الحلقة" و"سيدي الكتفي" و"عبيدات الرما " إلا صورا لما يسمى في يومنا هذا بـ" المسرح الشامل"(1) ومهما اختلفت الأساليب وتشعبت ألوان التعبير الدرامي ، فإن الغريزة التمثيلية متأصلة في أوساطنا الشعبية ، الشيء الذي سهل مهمة أسرة المسرح المغربي وشجع خبراءها على الإنتاج والخلق والإبداع، رغم كل المعيقات والمثبطات التي يجدونها في طريقهم ، ذلك أن تاريخ الحركة المسرحية بالمغرب

* ـ أستاذ باحث من الدار البيضاء

يخضع في تطوره مفاهيمه ورؤاه ، تجاربه وابتكاراته يخضع لتجربتي الهواية والاحتراف لتوازيهما وتداخلهما أحيانا، كما يخضع لطبيعة المكانة الصعبة التي استطاع هذا الفن أن يلقاها عند الجمهور بالقياس إلى باقي الأجناس الأدبية (2).
وبما أن المسرح الشعبي ظل طيلة عهد الحماية يعمل على بث روح المقاومة الوطنية والتمسك بالأصالة ونقد الاستعمار وتعسفاته ، فقد حاولت سلطة الحماية توقيف نشاطه ومنعه كلما تقدم بمحاولة أصيلة . وما أن انتهى الاستعمار حتى أصبح المسرح المغربي يأخذ طريقة جديدة تعتمد البحث عن الشخصية المغربية ومعرفة المشاكل والقضايا المعاصرة والوطنية، وتلك تجربة ظلت تسير قدما باحثة عن نفسها (3) . فلقد أدرك رجال المسرح في المغرب منذ البداية أن المسرح فن حي يتيح لقاء جماعيا لابد من استغلاله على أحسن وجه ، أن يؤدي دوره في التوعية والإصلاح ، فظهرت مسرحيات يمكن أن نطلق عليها صفة السياسية . ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إن إرهاصات المسرح السياسي كانت تتكون تلقائيا بحكم الظروف المصاحبة . ومن هنا اشتهر بعض الممثلين الهواة بأدوار الأبطال التي أدوها على الخشبة . ومن منا لا يذكر محمد القري الذي استشهد بسبب مواقفه النضالية ومسرحياته السياسية التي نسب بعضها إلى عبد الواحد الشاوي خوفا من الرقيب . وليس غريبا أن ترى الإدارة الاستعمارية تراقب كل ما يجري على الأرض المغربية مدركة ذلك الدور السحري الذي يلعبه المسرح في حياة الناس ، إذ ربما فاجأها من حيث لا تحتسب ،ولذلك أغلقته في وجه المواطنين سنة 1944 مدعية أنه وسيلة لجمع أعداد كبيرة من الناس ، مما يساعد على إثارة الشغب ، ولكن ذلك لم يمنع المسرح المغربي من أن يواصل طريقه ، سواء في الجنوب أو الشمال (4) الذي مثلا ، كلما أريد الحديث عن المسرح بالشمال ، إلا ويجرنا الحديث عن مسرح الهواة الذي انفرد بالساحة دون غيره ، وقد استطاع

بوسائله المحدودة جدا أن يكتسب حضورا فعليا ويكسب جمهورا عريضـــا بســـبب ملامسته لقضايا الشعب المصيريـــة ومعاناتـــه اليوميـــة (5) ويتجلـــى ذلـــك فـــي الموضوعات التي كان يتطرق إليها (انتصار الحق على الباطل(التـــي ســـنفرد لـــها تحليلا خاصا) ــ الوحدة العربية ــ الوطن ، الخ ...) ، ومع ذلك ، يعلن عن نفســـه كحركة مواكبة أو موازية للحركة الوطنية المناهضة للوجود الاستعماري . من هنـــا كان حتما أن يولد " المراقب " أو " الرقيب " لقطع الطريق على كل فكرة أو كلمـــة تعبير من حجم (العيار الثقيل) وفيها (مساس بالأمن العام). وما أكثر الكلمـــات مـــن هذا النوع من العيار. وما أسهل توظيف التهمة بعد تلفيقها ، فكان ذلك مبعثا لمنـــع مسرحيات وحل جمعيات وتوقيف عروض ، ومحاكمة أفراد بعد إلصاق ما يحلـــو من التهم كل ذلك في الوقت الذي كان فيه المسرح الإسباني الذي تمثله فرق قادمـــة من إسبانيا وأخرى كونت بإيعاز من الإقامة العامة أو تشجيعا منها، فقـــدم أعمـــالا أغلبها ذو طابع ترفيهي ، لأن الغرض الأساسي كان هـــو الترفيـــه عـــن الجاليـــة الإسبانية التي عبرت البحر من شبه الجزيرة ــ راضية أو مكرهة ــ لتعيـــش فـــي جو من الاضطراب النفسي نتيجة أصداء المقاومة الشعبية للاحتلال والتي تجلـــت بقوة وبشكل عنيف بعد ذلك في الجبال وفي الريف. ونذكر أنه فـــي الأيـــام التـــي سبقت عرض مسرحية " مأساة مجنون ليلى " بدأت تعرف مزيدا مـــن المناهضـــة والمجابهة في وجـــه النظام الدولي بمدينة طنجة ، ولـــم يكن أمـــام جمعية الـــهلال ــ آنذاك ــ أي اختيار آخر سوى الالتحام مع الشعور الوطني الـــذي كـــان قضيـــة الساعة في المغرب كله(6) ...وهكذا، وقبل أربع سنوات من عرض هذه المســـرحية وصل إلى طنجة الزعيم العربي الأمير شكيب أرسلان الـــذي اســـتقبله عـــدد مـــن الوطنيين بترحاب واعتزاز ، من داخل جمعية الهلال وخارجـــها ، منـــهم الأســـتاذ العلامة المرحوم عبد الله كنون والأستاذ محمد أقلعي، وإدريس الحريشي وغـيرهم . ومنذ وصل أرسلان إلى المدينة حدث انقســـام داخـــل منظمـــة الـــهلال : فبعـــض الأعضاء استقال ليبرئ موقفه من تهمة سياسية، وهي الاجتماع بـــالزعيم العربـــي

حفاظا على منصبه الإداري، وبقي الذين اختاروا الالتزام بمبادئ الوطنية، والسير في جانبها على مصالح الوظيفة . ولكن السلطة لم تكن لديها دلائل مباشرة تدينهم بها، وفضلت انتظار الوقت المناسب لذلك . وكان يوم المولد النبوي سنة 1934 أحسن فرصة مناسبة لقهر الحركة داخل هذه الجمعية ، وكان النشيد الوطني الذي خرج به موكب الهلال في يوم المولد النبوي، بعد أن صدر أمر من السلطة بمنعه هو أجرأ تحد في وجه الهيمنة الدولية وعملائها من المغاربة آنذاك، وينتهي استعراض المواكب في هذا اليوم، ويأتي الليل، ويكون هواة الفن من أهل المدينة والوافدين عليها من باقي المدن ، على موعد مع مسرحية "مجنون ليلى" في مسرح سرفانطيس . هكذا نجد أن المسرحيات أيام الاستعمار كانت تكتب وتشخص وتعرض انطلاقا من الإيمان بأنها فعل يجب أن يكون ، فعل تتطلبه الحيلة الاجتماعية اليومية ، كما تتطلب أي شيء آخر ، وقد اعتبر الجمهور تواجده في التظاهرات المسرحية واجبا وطنيا ودينيا ، وهو تواجد مقدس . المسرح في المغرب لم يكن ترفا ــ عندما وجد ــ وإنما لأنه مؤسسة تحمي شخصية الإنسان المغربي من الاندثار وتحقق هويته المغربية العربية الإسلامية ، وتمكنه بالتالي من النضال ضد الاستعماري الفرنسي والإسباني(7) . ولعل هذا ما يفسر ظاهرة مهمة ، وهي وجود رجال المسرح في قمة الهرم المجتمعي ــ والمسرحي كان بحكم هذا الدور الخطير زعيما وقائدا ، وبهذا نجد أن رجل المسرح قد احتل المكانة الاجتماعية لسلفه الخطيب ، كما أنه أخذ دوره ووظيفته في المجتمع ، هذه الوظيفة القائمة على الريادة والقيادة وصناعة القرار السياسي . ولعل هذا ما يفسر أن يكون عبد الخالق الطريس زعيما ومناضلا وخطيبا ومسرحيا. وهذا أيضا ما يفسر أن يكون المهدي بن بركة رجل مسرح ورجل سياسة ورجل خطابة ، نفس الشيء يمكن أن نقوله بالنسبة لمحمد القري الذي دفع بحياته من أجل دوره النضالي والمسرحي ، وهما دوران متلازمان ومتحدان سواء قبل الاستقلال أو بعده. وإذا كان تجدر المسرح في العديد من المدن المغربية قد أدى برواده إلى العمل ضمن

قناعات سياسية ، فإن هذا التجدر اعتمد في الأساس علـــى نصـــوص عربيـــة ذات نزعة سلفية تعبر عن مواقف وطنية محمودة تنادي بالتغيير والمطالبـــة بالاســـتقلال وهذا يعني أن البداية إبان فترة الاحتلال كانت ترتبط بالنضـــال الوطنـــي وإحيـــاء مفهوم الوطنية . ومن ثـــم ، فإن الممارسة المسرحية كانت تكشـــف عـــن نمـــوذج أسمى للنص المسرحي ، نص يرمي إلى تقريب الخطـــاب السياســـي مـــن الواقـــع المعيش وإلى إدماج المسرح في التاريخ إلى درجـــة أن البدايـــة ظلـــت مضايقـــة ومضطهدة من جانبين :

أ ـــ جانب الدين الذي اعتبر ممارسي المسرح كفارا .

ب ـــ جانب الإدارة الاستعمارية التي اضطهدت العاملين في مجال المسرح .

إن هذه المضايقة هي التي أدت ببعض القادة السياسيين إلى الكتابة للمســـرح عـــن وعي بوظيفته المجتمعية(عبد الخالق الطريس في انتصار الحـــق بالبـــاطل (1933) وعلال الفاسي الذي كتب قصيدة يمدح فيها مجموعة من الشـــباب قـــاموا بتمثيـــل مسرحية تاريخية ، كما أدت ببعض الفقهاء إلى المساهمة فـــي التـــأليف (عبـــد الله الجراري ومسرحية : تحت راية العلم والجهاد / 1928) . وعليه ، فإذا كان المســـرح المغربي قبل الاستقلال لا يقوم على ممارسة تستند إلى أساليب فنية مستحدثة ، فإنـــه قد استطاع مع ذلك أن يفرض نفسه كمسرح فعل ، ومن هنا إلحاحـــه علـــى إثـــارة قضايا هامة كقضية التواصل التي تؤشر عليها بعض الكتابات التي تناولت وضعيـــة الجمهور ، وقضية اللغة التي دار حولها النقاش خلال الثلاثينات ، ثم قضيـــة النقـــد المسرحي . ففي ببليوغرافيا حول " المسرح المغربي قبل الاستقلال فـــي الصحافـــة الوطنية (9) تمت الإشارة إلى أن وثائق المسرح المغربي قبل الاستقلال متعددة فـــي نوعيتها ، مختلفة في أشكلها ، ولكن المشكل القـــائم باســـتمرار ، والـــذي يواجـــه الباحثين والدارسين في هذا المجال أن هذه الوثائق قد تعرضت للإهمـــال والتلـــف والضياع حتى أن الكتابات التي واكبت المسرح نادرة . خصوصا فـــي المرحلـــة الأولى ، ولكن رغم ذلك ، فإن ما كتب عن الحركة المسرحية قبل الاستقلال وفـــي

مختلف المجلات والجرائد التي واكبت هذه الحركة لا يمكن حصره لتعدد هذه المنابر الإعلامية من جهة ، ولاحتجاب هذه المجلات والجرائد وضياع أعداد منها من جهة ثانية . ومن الجرائد التي اهتمت بالحركة المسرحية اهتماما كبيرا : جريدة " العلم " ، كما أن جرائد أخرى كالسعادة والوداد والمغرب والشهاب والرأي العام لم تدخر جهدا في متابعة الحركة المسرحية التي لا يمكن الحديث عن البداية الفعلية لها انطلاقا من دخول المسرح بمفهومه الإيطالي إلى سوق الفرجة ، أي عن طريق زيارة فرق مشرقية للمغرب : محمد عز الدين ، فاطمة رشدي ، يوسف وهبي وهي فرق وجدت أمامها جمهورا لم يتكون بعد، ولكنه كان يحمل في أعماقه استعدادا كبيرا لتلقي المسرح، وبما أن هذه الفرق المسرحية قد حرصت على تبليغ الجمهور خطابا مسرحيا أنجزه كتاب يعبرون عن قيم نبيلة ، فقد كان تأثيرها عميقا على مجموعة من الشبان الذين اتخذوا المسرح ــ منذ بداية العشرينات ــ سلاحا لمقاومة الاستعمار إلى حد أن أحدهم وهو محمد القري أمسى ضحية فيه (10) أما زيارات المشارقة، فلم تكن تسعى إلينا من تلقاء نفسها باستمرار، خاصة وقد أدركنا أهميتها في ظروف المغرب آنذاك ، بل كان المغاربة أنفسهم يهيئون لها يوجهون من يدعوا إليها . ويقول يوسف وهبي في مجلة (المجلة) العدد 1982/144 إنه عندما كان مع فرقته بالجزائر حضر من دعاه لإقامة عروض مسرحية بالمغرب . وهكذا لم تقتصر زيارته على تقديم عروض مسرحية ، بل رأينا أنه اهتم بالتاريخ المغربي وألف مسرحية عن كفاح الأمير عبد الكريم الخطابي ضد الاستعمار(11) ، فيما تقول فاطمة رشدي عن رحلتها لشمال افريقيا(12) ما يلي : "... ركبنا الباخرة من الاسكندرية في اليوم الرابع من شهر أبريل 1932 . وبعد ثمانية أيام وصلنا إلى تونس ، وقد كان الميناء غاصا بالألوف من التونسيين هرعوا لاستقبالنا وللترحيب بمقدمنا وهم يرددون هتافات الود والمحبة والإخاء العربي من مشرقه إلى مغربه ، فكان الاستقبال حافلا حقا ، وعزفت الموسيقى نشيد المارسلييز فوقفنا مكرهين لنرد تحية النشيد ، فقد كانت تونس كجارتيها الجزائر ومراكش " أي

المغرب " خاضعة للنفوذ الفرنسي ، وفي آخر ليلة من الحفل ــ تضيـــف فاطمـــة رشدي ــ سمعت محاورة بين عزيز عيد وضابط فرنسي ، فســـألت عزيـــز : مـــا الخبر ؟ فقال ، إنه من ضباط المخابرات ينبئ بأن السلطات الفرنسية الحاكمـــة رأت أن تكتفي بهذا القدر من الرحلة وعلينا أن نغادر تونس فورا إلى القاهرة ، أي مـــن حيث أتينا، فصرخت في عزيز وأنا أوجه بصري إلى الضابط الفرنسي: ألا يعـــرف هذا الجاهل أننا نقدم أدبا فرنسيا عالميا ومسرحيات فرنسية عالمية باللغة العربيـــة ؟ وإذا بالضابط الفرنسي يرد علي بلهجة مصرية أنا لست جاهلا يا مدام ... وعلـــى العكس ، أنا إنسان مثقف وأتذوق الفن وأقدره لكن الموضوع هو أنكـــم تعرضـــون روايات وطنية تثير حماسة الشعب وتؤجج غضبه وفـــهمت أن الســـلطات رأت أن نغادر تونس على الفور ، لا إلى القاهرة ، ولكن إلى الجزائر ومراكش ، وقد ســـبق لهذه السلطات أن منعت جورج أبيض وفرقته من دخولهما ، ودبر لنا الضابط لقـــاء مع المقيم العام الفرنسي الذي تسلمنا منه إذنا بدخول هذيـــن القطريـــن العزيزيـــن وبذلك سجل تاريخ الفن أن فرقتي كانت أول فرقة عربية ترتـــاد هذيـــن الوطنيـــن الكريمين بعدما منعت فرق أخرى من زيارتهما ". وبـــالنسبة لـــفرقنا ومســـرحيينا ــ يقول الأستاذ عبد الله شقرون ــ إنه انطلاقا من 1934 سنجد أن الجـــوق الفاســـي سينقسم إلى فرقتين : فرقة جوق النهضة العربية بقيادة عبد الواحد الشـــاوي ، ثـــم فرقة الجوق الفني برآسة الشاعر محمد القري وعبد السلام بـــن العربـــي الفاســـي ليبدأ الشقاق وتكثر الدسائس والخصومات بين رجال المسرح وأفراد الفرق ، وذلـــك من أسباب عدم استقرار الحركة المسرحية ، كما أن الجمود على مستوى الإبـــداع والإنتاج الوطني سيكون هو الطابع الغالب على الفترة الممتدة مـــا بيـــن 37 – 33 وإذا كانت السنوات اللاحقة قد سجلت تحركا ملحوظا، إلا أن ذلك لا يمنع اعتبـــار هذه الفترة ، ستعرف ظهور العديد من الفرق التي لم تتمكن من الصمـــود طويـــلا كما ستعرف صراعا بين رجالات المسرح حول مسألة اللغة بين العامية والفصحـــى بالإضافة إلى ظهور حركة نقدية فنية حاولت مواكبة هذا النشـــاط الفنـــي توجيـــها

وتقييما ، وتبقى الحركة المسرحية بالمغرب إلى حدود سنة 1941 حركة تعيش طـور مراهقتها وتحولها الذي هو طور يفاعتها أيضا ، خاصة وأنها عانت كثـيرا خـلال هذه السنوات من الانقطاعات، وكانت تفتقر ، بوجـه عـام إلـى الاسـتمرارية . وانطلاقا من سنة 1945 وحتى سنة 1953 حيث ستتوقف حركة العروض المسـرحية العمومية ، ومعها كل مظاهر الاحتفال من جراء إقدام الاستعمار الغاشم على نفـي المغفور له الملك محمد الخامس ومعه الأسرة المالكة ، مع الإشارة إلى ما سـتعرفه هذه الحركة من انطلاقة مع مطلع عهد الحرية والاستقلال وانتهاء عـهد الحجـر والحماية سنة 1956. ولاشك أنه في عز هذه السنوات الخمسـينية نشـأ بـالمغرب مسرح البدوي الذي يقول عنه مؤسسه عبد القادر البدوي : منذ سنة 1952، ونحـن نعرف أن هذه السنة سنة نضال وكفاح والتزام ووطنيـة صادقـة وإيمـان قـوي ومعنى ذلك أننا كشباب تكوننا وسط هذه الحركة التي زودتنا بقوة كبيرة تضمن لنـا هذا الاستمرار (14) وانطلاقا من هذه القوة المعنوية، وإيمانا منـا بثقافتنـا العربيـة عامة ، والمغربية خاصة، وإيمانا منا بضرورة إيجاد مسرح مغربي أصيل يتجـاوز المسرح الأجنبي الذي كان متواجدا آنذاك ، أو للفرق التي كانت منضويـة تحـت أحزاب سياسية كانت تهدف إلى استقلال البلاد ، وبعد الاستقلال ملأت كـل هـذه الأطر الفراغ السياسي الذي كان حاصلا وملأت المناصب ، وبقيت طبقة صغـيرة جدا مستمرة في العمل الفني والثقافي ، ومن بينها فرقة البـدوي حاليـا أو جمعيـة العهد الجديد في بداية الاستقلال أو أشبال العمال سنة 1952.

وإذا كانت مرحلة ما قبل الاستقلال قد جمدت الصراع الطبقي ، فإن مرحلة مـا بعد الاستقلال هي مرحلة صراع ديمقراطـي يطمـح إلـى فـرض ديمقراطيـة صحيحة عبر قناة جماهيرية تضع حدا للانتهازيين الوصوليين الذين تسلقوا طبقيـا بطرق غير مشروعة ، تجمع بين خيانة الوطن وقضاياه وتغليب المصلحة الخاصـة والأنانية على المصلحة العامة. لقد ظهرت طبقة مستفيدة من كفاح أبنـاء الشـعب المغربي ، فكان لهذا الواقع انعكاسه على المسرح ليس على المستوى الفوتوغرافـي

بل على المستوى الفني بمعنى أن الأديب يعيد تشكيل هذا الواقع ومزجه بـالحلم لا الحلم الرومانسي الساذج بل الحلم الثوري ، إن جاز هذا التعبير ، أي الحلم بواقـــع بديل (15) . وفي هذا السياق تتدرج عدة مسرحيات يمكن الإشارة إلى بعضها لكـــي نأخذ فكرة عن هذا الصراع وهذا الحلم . ففي مسرحية " السعد " مثلا ، قام الفنـــان أحمد الطيب العلج بعملية تعرية لم يلجأ فيها إلـــى أسـلوب حدثـــي تقريـري أو تسجيلي ، بل عمد إلى مسرحية بلاغية تقوم على مجهود مزدوج : بنيوي وتحليلـــي أعطى للنص متانة وعمقا في المضمون الفكري ، فتم له بذلك تجاوز عتبة المـــهارة الصنعية إلى صف الموقف الملتزم ، ليس من الغريب إذن ، وبعفوية الفنان يصـــف العلج عمله بـــ " الشعبية " لا بالمفهوم القدحي الذي درج مجتمعنا إلى إلصاقه بكـل ما يمت إلى الشعبية السوقية ، ولكن بمفهوم يأخذ منه مصداقية المضمون كمتقـــف حقيقي يستلهم " الشعب " في فنه وأفكاره ، ويستوحي من همومه وقضاياه ليبث فيـــه الوعي ويدله بالإشارة الواضحة على ما هو إلى جانبه ومن هو ضده ، ما يضمر له الشرور ومن يعمل على ما فيه خيره ، يستعبطه ومن يقدره ويقدر مطامحـــه فـــي الحرية والكرامة والعدالة (16). وهذا حوار من هذه الكوميديا الشـــعبية ذات الســـبع لوحات ، والتي انتهى من كتابتها العلج سنة 1961 ، نورد من اللوحة الثانيـــة التـــي تدور في قصر الباشا.

ـــ الباشا : من أنت ؟

ـــ الفقيه : " مشيرا إلى نفسه زوجة الحكيم يا سيدي .

ـــ الحاجة جـــرادة : زوجي يا ســـيدي بطل الأبـــــطال ، فـــي الجـــد والنضـــال والحرب والقتال وتسخر المردة الكفرة من الجـــن والإنـــس بالأفعـــال ، لا لمجـــرد الادعاء والأقوال .

ـــ الباشا : مرحبا ، ما تطلبه .

ـــ جرادة : تكلم .

ـــ الفقيه : جئت يا سيدي لأضع خبرتي وكفاءتي في خدمتكم ... لأحقق أمامكم

معجزة الإعجاز في التنفيذ والإنجاز ... أدلكم على مكان العقد الضائع بالدليل الساطع والبرهان القاطع .

ـ الباشا : "مندهشا مهتما " ماذا تقول ؟

ـ الفقيه : القول ما سمعتم يا مولاي.

ـ الباشا : أواثق أنت من العثور على العقد ؟

ـ الفقيه : كل الثقة يا سيدي ، وفي ظرف وجيز .

ـ الباشا : طيب ... ماذا تطلب ؟

ـ الفقيه : أولا إحضار غزال يوجد ببيتكم يا مولاي .

ـ الباشا : وأي علاقة لعقد الجوهر بالغزال ؟

ـ الفقيه : في ذلك حكمة يطول بنا مقام شرحها ... الغزال يا سيدي، وبأقصى ما يكون من السرعة ... ثانيا أعطوني مبخرة والنور النور .

ـ الباشا : لتنفذ طلبته على جناح السرعة ... يا حاجب ....

ـ فضول: حاضر سيدي (للخدم) سمعتم جيدا ما قاله مولاي ... هيا أسرعوا (يباشرون العمل) .

ـ الفقيه : (يخاطب السعد) دندن يا صاحبي دندن .

ـ الباشا : (مستوضحا) مع من تتكلم أيها الفقيه ؟

ـ الفقيه : سر المهنة يا سيدي وإفشاؤه قد يضيع الجوهر .. اعني العقد .

ـ الباشا : احتفظ بأسرارك .

ـ الفقيه : تماما ، إنه هو بالذات والصفات لا جدال في ذلك ، سيدي يجب أن يذبح الغزال حالا ... رأس الغزال ؟ !

ـ الخليفة 1 : يا سيدي هذا رجل دجال " يقولها هامسا "

ـ جرادة : يا سيدي إذا ذبح الغزال وشق بطنه ولم يجدوا عقد ابنتكم الثمين يكون رأسه المقابل الوحيد لرأس الغزال ، الرأس بالرأس .

ولأحمد الطيب العلج أيضا مسرحية عنوانها " الشهيد "(17) ، وهي مســـرحية مـــن فصل واحد ، نجد فيها جنديا عجوزا رث الثياب يطرق باب منزل صغـــير تديــره أسرة مكونة من الزوج ملوك وزوجته سكينة وابناها سناء وضحى ، والثانية ابنتـــها من زوج سابق . يطرق الجندي الباب ويلح في الطرق ، وحين يفتح البـــاب تفاجـــأ سكينة بمنظر الجندي المزري ، فتكاد تطرده طردا ، وتزعم أن لا أكل بـــالمنزل ولا مأوى وأن على الجندي الغريب أن يرحل ، وهنا يدخل الزوج ويعلـــم أن الجنـــدي يملك دراهم كثيرة ، وأنه قادر على الدفع فورا ، فيعتذر له عـــن معاملـــة زوجتـــه ويأمر له بالطعام وبعده أن يبيت بالإسطبل . ينجذب الجندي انجذابـــا شـــديدا نحـــو ضحى ، ابنة سكينة من زوج سابق ، يجد لذة خاصة في أن يدعوها ابنته . ومـــن حديث يدور بين سكينة وبين الجندي ، وهـــما منـــفردان ، نعلم أن الـــزوج السـابق لسكينة هـــو هذا الجندي الرث الثياب الذي تفتك بجسمه الحشرات من قمل وبـــق(18)

نموذج من الحوار :

ـــ الجندي : شهداء ... أتسمين ضحايا هذه الحرب شهداء ؟؟ خديعة وأي خديعـــة ؟! بل اكبر خدعة عرفها الإنسان منذ الأول ... كلمة شـــــهداء هاتـــه أكـــبر مغالطـــة يستخدمها الطغاة السفاحون للتغرير بالأبرياء الســـذج وتقديمـــهم لســـاحات الحقـــد والبغض والكراهية والموت على أنها ساحات الشرف والمجد والعزة والكرامة. بكل بساطة دفاعا عن أفكار لا يعرفونها، ولا يؤمنون بها وليقضوا نحبهم قربانـــا لحـــب التسلط والتوسع والسيرة وفرض النفوذ شهداء ! ! متى كان الذي يموت في حـــرب ظالمة على غزو الشعوب وإذلال الضعف شهيدا ! ! وشخصية الجندي فـــي هـــذه المسرحية وفشله في حياته الفنية بعد تسلط النقاد عليه بالنقد اللاذع والسخط والحـــط من أعماله ، كلها عوامل حددت وعيه ، بل بواعث الفعل عنده، بعد فشله في العودة إلى زوجته وابنته . ومع أن الطيب الصديقي كان قد اهتدى إلى حل إيجـــابي عـــبر تجربة " المسرح العمالي" الذي جعله يعانق مشاكل العمال والكادحين ، فإنه ما فتـــئ أن تخلى عن هذه التجربة ليغوص في متاهات اللامعقول ، مثل اقتباسه لمســوحيات

بيكيت ويونسكو ، وهي محاولات على أهميتها لا يمكن أن تكون في متناول المتفرج المغربي العادي لأنها تؤطر لعالم تجريدي يضخم تفاهة الوجود ، ويجسد عبثيته. وإذا كان الصديقي قد ولج ميدان المسرح الطليعي من خلال هذه التجارب فإنه قد وقف عند هذا الحد سعيا وراء تغيير اتجاهه ، وذلك باستغلال مادة التاريخ التي قادته إلى تغيير اتجاهه ، وذلك باستغلال مادة التاريخ التي قادته إلى تجريب المسرح الوثائقي ـــ المغرب واحد ـــ المولى إدريس ـــ ومن ثم فإن الهاجس الأساسي للصديقي كان يرمي أولا وقبل كل شيء إلى الانسلاخ عن التجربة المسرحية الأوربية وإلى البحث عن قالب مسرحي يستوجب التمسك بالتراث ليضفي عليه طاقة حركية تثير اهتمام المتلقي (19) فالاهتمام بالتراث ، كما يؤكد الدكتور عابد الجابري ، له أكثر من علاقة بالهزائم المستمرة التي بدأ بها العرب منذ حملة نابليون على مصر ، ولعل هزيمة 67 كانت أعنف الصدمات التي زلزلت كيان الإنسان العربي ، ولا أدل على ذلك من أن أهم الدراسات التي أنجزت حول التراث قد ظهرت بعد الهزيمة مباشرة. ولقد فطن رواد المسرح العربي منذ البداية إلى غربة التكتل المسرحي العربي ، كما فطنوا إلى أن المستعمر يسعى إلى فرض ثقافته لضرب كل ثقافة وطنية لذلك لجئوا إلى البحث عن هويتهم وتميزهم فكان التراث هو المصدر الشامل الذي وجدوا فيه ضالتهم ، لأنه يمثل مقومات الأمة واستمرارية تميزها ، ومن هنا لا ننفي الأسباب السياسية التي كانت وراء التجاء المبدع الدرامي إلى التراث ، مادام يجد فيه الرمز التاريخي الذي يعلق عليه قضاياه هذه القضايا لا تسمح الرقابة بطرحها ، ولكن على الرغم من ذلك ، فإن اللجوء إلى التراث كان يحقق بعدا جماليا خاصا، وبالنسبة للمبدع ظل يدرك أن مهمته لا تكمن فقط ، في إيصال المعارف ، بل تمكن أيضا في تحقيق نوع من التأثير والجمالية ، لذلك كان يبتعد عن تناول تلك القضايا تناولا مباشرا فالتجأ إلى الرمز والأسطورة والأحداث التاريخية وغيرها من الوسائل التي تحقق هذه الجمالية (21) وتجري حوادث مسرحية " عودة الأوباش " لمحمد إبراهيم بوعلو ، في

أحد البلدان التي استقلت منذ بضع سنوات ، حيث تركت أحداث ما قبل الاســتقلال أثرها على جميع الأجزاء المكونة لمضمون المسرحية وشــكلها، إذ يتحقــق فيــها الحدث على حساب الكشف عن العلاقات المتبادلة بين الأبطال والإظــهار الدقيــق لعالمهم الداخلي والظلال السيكولوجية الطفيفة والمعقدة ... ويظهر هذا منــذ بدايــة المشهد الأول في الحوار بين الحارس وعامل المدينة (حــافظ المدينــة) ، عــامل المدينة رافعا رجليه فوق المكتب ، ناشرا بين يديه صحيفة ... ينقر الحارس البــاب ويدخل :

ـ الحارس : المقاومان

ـ العامل : من ؟

ـ الحارس : الأعرج وصاحبه .

ـ العامل : للمرة العاشرة أقول لك قل لهما أنني مشغول .

ـ الحارس : إنهما يلحان في الدخول .

ـ العامل : (يصيح فــي وجهه) مــن يعطي الأوامــر هنا ؟ أنا أم هما ؟ اذهــب من أمامي .

إن إنكار الماضي النضالي للمقاومين ، ونفي تاريخهم المليء بالتضحيات من أجــل الوطن، قد جعل الإنسان المقاوم يصبح متدهور الأحوال ، مهضوم الحقوق ، منبـوذا من قبل الطبقة التي أصبح بيدها اتخاذ القرارات، وهذا ما شكل همــا جديــدا عنــد المقاوم، جعله يشغل الأشغال الكامل للبحث عن الوسائل التي يقضــي بــها علــى مشكلات اللحظة الراهنة(22). تتسلل حوادث مسرحية " كنزة " لمحمــد بــن زيــان الصادرة سنة 1958 ، في الأيام العسيرة التي عاشها المغرب وهو يتخبط في أهــول أزمة هددته في كيانه منذ أن فرضت عليه الحماية وسلبت منه السيادة أيــام تــآمر المستعمرون مع عصابة من الخونة المجرمين الذين دفعهم الطمع والغــرور إلــى العبث بالعرش والمكر بالملك(23) . الحوادث التي جاءت في هذه الفاجعــة التمثيليــة ليست إلا صورا بنت الخيال، وقد فضل المؤلف الإبداع والابتكار على نقل الوقــائع

التاريخية توخيا لطريقة الأديب لا المؤرخ ورغبة في حرية التصرف وخلق المواقف المؤثرة كلما دعت ضرورة الفن المسرحي إلى ذلك . نموذج من حوار في المسرحية .

ـ كنزة : هوني .. هوني عليك يا أمي ، سيعود أخي إلينا بعد قليل ، ولئن طال بقاؤه عند صديقه عبد العزيز في هذه الليلة ، فهذا أمر طبيعي ، لما نشأ بينهما منذ الصغر من الود ، والصداقة ، ولما يوجد بينهما من الوئام ، وكلاهما يحمل قلبا متأججا بالإيمان والإخلاص للوطن ، كما يحملان ثقافة متينة تفسح المجال الواسع للحديث الطويل ، لهذا طال بقاء إسماعيل عند صديقه .

- أم إسماعيل : حديث السياسة طويل ! قبح الله السياسة ! فكم جرت علينا وعلى أبنائنا من ويلات ! وكم جنت علينا دون أن نجني منها فائدة .

ـ كنزة : لا قبح الله سياسة تشبث بها الأحرار وأبناء المغرب الأبرار .

ـ أم إسماعيل : أنسيت يا كنزة أن كل مذاكرة في السياسة مؤامرة في نظر الأعداء ؟

ـ كنزة : بل هي مظهر من مظاهر الوطنية وشغل شاغل لأبطال الكفاح والجهاد ، ولا يجتنبها في وقتنا هذا إلا الجبناء الذين لا إيمان لهم أو الخونة الماكرون الذين باعوا دينهم بدنياهم .

إن تخليد الأبطال في المسرحيات غرض من الأغراض الأدبية يكاد يكون منعدما عندنا ولهذا فنحن نلاحظ ويا للأسف فراغا كبيرا في أدبنا من هذه الناحية فباستثناء بعض المحاولات البسيطة لم يلتفت بعد مؤرخونا وأدباؤنا من كتاب وشعراء وروائيين إلى تحليل شخصية أبطالنا القوميين تحليلا علميا مبنيا على الواقع التاريخي. بهذا المدخل يقدم محمد حسن مسرحية " المحنة " ذات الخمسة فصول ، والصادرة عن مطبعة الأندلس بالدار البيضاء سنة 1968 مضيفا بأن هذه الدقة في سرد الحوادث ترتب عنها ، حتما وصف خاطف بسيط لبعض الجوانب من الحالة الاجتماعية والسياسية والقضائية التي كان يعيش عليها المغاربة في

العهد البائد ، وهذا التصوير يجري أحيانا على لسان أبطال المســـرحية ويستنتج أحيانا أخرى من الحوادث نفسها .

لقد أراد المؤلف أن يذكر بالفترة المؤلمة التي ـَس الجميع يرزح تحت نير الاستعمار الغاشم ، كما يريد ألا ننسى ما قاساه الشعب من محن في سبيل تحريره واسترجاع كرامته المغتصبة وعزته المفقودة وسيادته المفوتة. ولقد كان أمل مؤلف هذه المسرحية أن تصبح هذه الملحمة الوطنية يجد فيها كل مغربي صفحة مشوقة لبلاده . وهذا نموذج من حوار في المسرحية .

ــ خالد : إنه يعمل منذ خمسة أشهر ونصف كرئيس لقسم الاستعلامات بمدينتنا هذه، ولقد أدى تعاونه مع الشرطة الاستعمارية والإقامة العامة إلى اعتقال عدد من المقاومين في منظمتنا ، فمنهم من قتل ضربا ومنهم من لفظ نفسه الأخير رميا بالرصاص ، ومنهم من يعيش الآن في السجن يعامل معاملة الحيوان .

ــ أمينة : في دهشة ماذا أسمع ؟

ــ خالد : إنها الحقيقة التي أخبرك بها الآن يا أمينة ، ويؤسفني أن أزودك بإيضاحات أخرى (يخرج من جيبه مذكرة ويقرأ) ... ففي يوم فاتح أبريل الماضي اعتقل عبد الرحمان فارس بتهمة المس بسلامة الدولة الداخلي وفي يوم 6 مايو سنته اعتقلت الشرطة سليمان الرحماني بتهمة اغتيال مراقب مدني ، وفي الأسبوع الماضي أعدم المغفور له علي حكيم ونشر خبر هذه الفاجعة في الجرائد، وأعفيك من سماع فظائع أخرى قام بها هذا الجاسوس الخطير.

ــ أمينة : إنني والله لا أكاد أصدق أذني يا خالد ! في أوائل الثمانينات عرضت جمعية " الشروق " بفاس مسرحية "حكاية الريوس والكسدة في زمان الفقر والشدة" لمؤلفها رشيد جبوج وهي مسرحية من فصلين : الأول من ستة مشاهد والثاني من خمسة حيث تنشد الجماعة ما يلي :

جينـــا لكـم اليـوم بحكايـة

حكايتنـا عندهـا بـدو ونهايـة

هـــذه قصة بطلهـا الإنسـان
هـذي حكايـة الطـغـاة
نـاس تشقى تتعب عايشة فالهـم
وتروي الأرض بالعـرق والدم
ونـاس مـا كفـاهـا اللـحـم
راهـا تكـدد العـظـم
ناس فنات من الحرث والدراس وناس عيات بالراحة والنعاس
البرد جمد عروقنا والظـلام غلـف أيامنـا
بحور صارت دموعـنا بالفجيعة عرت قلوبنـا
ومع الريـح ضاعـت أحـلامنـا .

إن هذا الإنشاد تتصدره حكاية ، حكاية موحا التي يسردها في السجن بعـد أن تحلق حوله السجناء وهو يحكي عن طفولته وشدة ارتباطه بالأرض(24). فجانب من الخشبة خاص بالفلاحين والجانب الآخر خاص بالأثرياء والمسؤول وأحد المعمرين ورغم اختلاف حكاية موحا عن حكاية قدور في المسرحية دائما فإن هناك خيطـا فكريا رابطا بينها. فمن هو قدور ؟. من داخل المقهى يعرف قدور بنفسه ، ويشرع في سرد الوقائع المتعلقة بالماضي ، ويتوقف السرد ليتم تشـخيص هـذه الوقـائع المروية من طرفه . إن قدور حينما كشف عن تـورط أبيـه فـي تعاملـه مـع الاستعمار، كان ذلك الكشف ناتجا عن موقف انتقادي من جانب الابن ، من هنـا إذن ينطلق الفهم لما تعنيه الريوس والكسدة في زمن الفقر والشدة ! أما في المسـرحية الزجلية " معركة أبو فكران " وخاصة في فصلها المعنـون "المحاكمـة" : المتـهم يصير قاضيا " ورد هذا النموذج من الحوار الذي يعلق عن نفسـه بنفسـه بعـد أن ينادي رئيس الجلسة على المتهمين والشاوش يعيد الأسماء بصوت عـال " أحمـد بنشقرون ، مدان السلاوي ، الفقيه برادة ، العلمي العرائشي ، الهادي بـن الطـايع)

والتعرف على هوية المتهمين والتأكد منها حسب ما جاء في المحضر وبعد إجابات المتهمين تتدخل النيابة العامة قائلة :

ــ النيابة العامة : تهاجمات إدارة بعض الصحف الأجنبية شكون هما مالين القضية ؟ إلى ما كنتوش أنتما أسباب هاد الفساد وهاد السيبة ، وإعطونا وريونا مالين القضية .

ــ مدان السلاوي : هذا طعن ، هذا شتم ، فحق ناس التنوير وناس الوطنية .

ــ أحمد بن شقرون: ارتكبتوا غلط، واليوطي تيأكد كلامي حيث قالوا بلساني : "الحماية غلط...غلط علاش ؟ غلط لأن الإدارة الفرنسية ماعطاتش للرعية المغربية وقت وأهمية .. تتعرفوا أن الرعية هي أساس نظام الدولة ، هي المرجع هي أساس المعيشة السلمية والسلم هو السلم اللي سلمات معاه مصالح الأمة وحقوقها الوطنية ... والأمن هو اللي تيضمن للأمة سيادتها ، حريتها كرامتها تيحميها ويوفر ليها الأمان والراحة والديمقراطية.

ــ النيابة العامة : ما كانش عندنا نوايا خلفية ، ولاسوء نية ، مقصودنا كان باين واضح، قمنا بعملنا على أساس تعايش الأديان بصيغة سلمية ،

ــ أحمد بن شقرون : أحنا تنقاوموا مثل هاذ الصيغة السلمية ، تنقاوموا الاستعمار بمعزة ، كان هنا أو فغزة ... قلبنا ... إيه قلبنا الجلالب واستتكرنا ودرنا ، وشددنا على الريوس كحلة راية ، بعدما كانت بيضة رزة.

ــ الهادي بن الطايع : "... الأمر واضح ماخاصو تفسير ، هذي ماشي قضيتي ماشي قضيتنا ، هذي قضية أمة للنور بغات ، تسير ، هذه قضية شعب باسم القانون والمصلحة العامة وأمن البلاد نهبتوا أرضو، جلدتوا ، قطعتوا التامر فغراسو ... يمكن يرد لظاه تنوير، واستلطف ، واحبس انفاسو، لكي اللي فراسو ،رواه باقي فراسو ". ونختم هذا العرض المتواضع بنموذج من المسرح المغربي كان من الأولى أن نستهل به هذه النماذج، ولكننا تعمدنا أن يكون خاتمة لها لكي يترسخ في الأذهان أكثر أن مسرحية " انتصار الحق بالباطل " لعبد الخالق الطريس تعتبر أول

مسرحية طبعت في المغرب ، إذ صدرت أول مرة عن المطبعة المهدية بتطوان سنة 1351هـ (26). وقد وصفها مؤلفها في الغلاف بأنها رواية تمثيلية في ثلاثة فصول) وهذا ما من شأنه أن يقوي الاهتمام بها باعتبارها أول نص عرف طريقه إلى المطبعة، وأن يجعلها في متناول الدارس والناقد والمخرج والممثل وغيرهم ... بالنسبة للعنوان " انتصار الحق بالباطل " هو عنوان ضمن المسرحيات الاجتماعية ويشترك مع مسرحية أخرى في الكلمة الأولى من عنوانها ، وهي مسرحية "انتصار البراءة " لمحمد الزغاري . مما يلفت الانتباه أن بعض الباحثين يعتبرون أن هذه المسرحية أول إنتاج مغربي عرفته الحركة المسرحية في تلك الفترة ، وإذا كانت "انتصار الحق بالباطل" تمتاز بسبقها للنشر ، فإن " انتصار البراءة " تمتاز بكونها أول لبنة وضعت في صرح التأليف المسرحي المغربي ، وكلتاهما انتصار في فن جديد لم يعرفه أدباؤنا وجمهورنا إلا في عشرينات هذا القرن (27). وإذا وقفنا قليلا عن عنوان مسرحية " انتصار الحق بالباطل " فإننا سنلاحظ أنه عنوان غير بعيد عن الفكر التجاري، وأنه مطابق لموضوع المسرحية ، وأنه يدفع إلى توقع النهاية ، وأنه يذكرنا بالآية القرآنية : " قل جاء الحق وزهق الباطل ... إن الباطل كان زهوقا " وأخيرا إنه يدل على الفكر السياسي عند الكاتب . وسواء شئنا أم أبينا فإن جل النماذج المسرحية التي كتبت عن ما قبل وأثناء وبعد المقاومة كان كتابها ينطلقون من أفكار سياسية بالأساس.

المراجع :

1) — مجلة الفنون :"عدد خاص بمهرجان المسرح العربي " 1974.

2) — د. أحمد المديني :"في الأدب المغربي المعاصر" دار النشر المغربية / 1985.

3) — الفنون "العدد السابق " .

4) — د. محمد الكغاط :"بنية التأليف المسرحي من البدايات إلى الثمانينات "مطبعة النجاح الجديدة" / الدار البيضاء / 1988.

5) — رضوان حدادو"مجلة الفنون" نونبر 1979 "السنة 6 / ع 1 .والتوزيع الرباط 1986.

6) — عبد القادر السميحي :"نشأة المسرح والرياضة في المغرب "/ مكتبة المعارف للنشر

7) — عبد الكريم برشيد من مقدمة لكتاب :" المقاومة في المسرح المغربي" لعبد الرحمان بـن زيدان دار النشر المغربية / 1985.

8) — د.حسن المنيعي :" البدايات والتأسيس في المسرح المغربي الحديـث" آفـاق "العـدد 3 / 1989".

9) — بيليوغرافيا المسرح المغربي قبل الاستقلال في الصحافة الوطنية "مصطفى بغداد مجلـة الموقف عدد 1989/10.

10) — د. حسن المنيعي :"البدايات والتأسيس في المسرح المغربي ...

11) — د. محمد الكغاط :"بنية التأليف المسرحي بالمغرب ...

12) — " فاطمة رشدي" كفاحي في السينما والمسرح دار المعارف ـ مصر / 1971.

13) — فجر المسرح المغربي بالمغرب "عبد الله شقرون" م/ اتحاد الإذاعات العربية /1988.

14) — حوار مع عبد القادر البدوي :"مجلة المهرجان "العدد الأول 1983.

15) — عبد الرحمان بن زيدان : »المقاومة في المسرح المغربي ...

16) — مصطفى القباج :"السعد" البنية المسرحية والخطابات الفنية ضمن ثلاث دراسات فـي الكتاب المسرحية الشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط 1976.

17) — الشهيد :"مجلة الفنون" العددان 3 - 4/ أكتوبر ـ نونبر 1980.

18) — د. علي الراعي :"المسرح في الوطن العربي "عالم المعرفة الكويت.

19) — د. حسن المنيعي :"هنا المسرح العربي" هنا تجلياته منشورات السفير مكناس 1980.

20) — ماجد السامرائي : التراث منطلقنا للمعاصرة الأقلام عدد9 ص :13، 1978.

21) — د. مصطفى رمضان :"توظيف التراث وإشكالية التأصيل في المسرح العربـي " عـالم الفكر / المجلد السابع عشر العدد الرابع يناير فبراير مارس 87 .

22) — عبد الرحمان بن زيدان :"المقاومة في المسرح المغربي".

23) — من مقدمة المسرحية بقلم مؤلفها .

24) — أحمد بلخيري :"الحضور البريختي في المسرح المغربي : حكايـة الريـوس والكسـدة نموذجا " أنوال / 9 يونيو 1990.

25) — المسرحية نشرت في فصول بمجلة الأسبوع الثقافي "العدد السابع 16 مارس 84 وقـد كتبها كل من عبد الرحمان بن زيدان، محمد بنعيسى.

26) — زين العابدين الكتاني :"فهرس المسرح المغربي" الفنون 1974.

27) — د. محمد الكغاط :"بنية التأليف المسرحي بالمغرب ...

محطات في المقاومة

- احمد الحنصالي
- مظاهرات 25 يوليوز 1955 بمكناس

أحمد الحنصالي : المرجعي والرمزي في خطاب التاريخ السياسي

عبد الرحيم العماري *

افتتاحية :

يمشي الكرام على آثـار غيرهـم وأنت تخلـق ما تأتي وتبتـدع

وهل يشينك وقت كنـت فارسـه وكان غـيرك فيه العاجز الضرع

من كان فوق محل الشمس موضعه فليس يرفعه شيء ولا يضـع

شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمان البرقوقي ،ج 1، دار الكتاب اللبناني ، 1986 ص:341.

إهداء إلى راعي البندقية بالأطلس المتوسط ، أحمد الحنصالي ، وإلى كل المقـاومين وأعضاء جيش التحرير .

بصدد الإشكالية :

« Bon bled , mauvaises villes ! » " بواد حسنة ، ومدن سيئة ! "(1) .

• أستاذ باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ــ بني ملال .

ويرحل الجنرال جوان يوم 20 شنتبر 1951 ،ويكتب عنه المؤرخ الفرنسي الشـــهير شارل أندريه جوليان : «La politique de Juin avait rendi le protectorat odieux» "جعلت سياسة جوان الحماية بشعة ! "(2) .

أن يـثور أحمد الحنصالي ــ رمـز من رمـوز الباديـة المغربيـة بـالأطلس المتوسط ــ معناه سوء تقدير الإقامة العامة لفرنسا بالمغرب ، أو مؤامرة تواطـأت فيها بعض جهات هذه الإقامة(3) . ثم ، قبل ذلك ، يحق التساؤل : من حفظ لأحمـد الحنصالي موقعه ، باعتباره حدثا تاريخيا وسياسيا ، الخطاب العـالم (Savant) أم الشعبي (Populaire)؟ (4).

عن المرجعية المعرفية والمنهاجية (5):

ــ كيف تتيح لنا مرجعيتنا مقاربة الإشكال المطروح سلفا ؟

من المصادرات الابستمولوجية التي نركن إليها ، كون الخطاب ــ كان سياسـيا أو اجتماعيا أو إعلاميا أو دينيا أو فلسفيا أو أسطوريا، ... الخ ــ يفشي غالب أسـراره حسب اللغة الواصفة المتعددة التي تختبره (6). ثم إن من بيـن مسـتجدات تـاريخ ومنهاجية العلوم الطبيعية والإنسانية على حد سواء ، أن العلم عندما يقع في أزمـة شفيعه في تجاوزها عقد صلة بعلوم أخرى تمنحه إمكانات مفهومية ومنهاجية توسـع وتعمق أطروحاته .

لقد أتاحت لنا ــ غير مـا مـرة ــ السـميولوجيا عمومـا ، والسـميولوجيا الاجتماعية والسياسية فرصة الاشتغال على خطابات عديدة المظاهر ، واسـتخلاص حقائق تمنح النقاش العلمي المعاصر ثراء وخصوبة (7). تصير ــ وفق ما سـلف ــ السميائيات السياسية (Semiologie politique) أفقا مناسبا لتصـور المتـن الخطـابي المراد تحليله بمثابة نظام من أدلة لسانية سياسـية. والسياسـي هنـا يحيـل إلـى موضوعة السلطة (Le thème du pouvoir) : كل ما يحيـط بالسـلطة فـي العلـوم السياسية هو شيء سياسي ، موضوع لفكر سياسي(8).

ولا نجد ضررا في توظيف منهجية صغرية Micro-analyse للتركيز على بعض البنيات الصغرى في المتن السالف ذكره، ذي موضوع محدد يتمثل في حدث تاريخي سياسي: حركة أحمد الحنصالي ضمن المقاومة المغربية المسلحة .حان الوقت إذن أن نعيد التساؤل : ما المرجعي والرمزي في المصادر التاريخية المباشرة (المتن) حول الحدث التاريخي السياسي؟ ومن أي موقع تلفظي تشكل هذان المكونان الخطابيان ؟(9).

بالاستناد إلى معجم محللي الخطاب التاريخي " إن الوحدة الدلالية هي المعلومة التاريخية ، التي تفيد حدثا تاريخيا. ومفاد هذا الأخير فعل أو قول محكومان بفضاء تاريخي. ومن ثم ، يمسي التاريخي تراتبية للأحداث وفق منطق الفضاء التاريخي سواء أكان الفضاء مؤسساتيا (في علم اجتماع السياسية : ماكس فيبر، ب.بورديو) أو غير مؤسساتي (في علم الإناسة = كلود ليفي ستروص) "(10).

عن طبيعة المصدر المباشر :

تتحدد طبيعة المصدر في الأشكال الاتصالية التالية : ــ برقيات عسكرية .ــ إتصال هاتفي . ــ رسائل المراقب المدني . ــ رسائل المسؤولين العسكريين بالمغرب.

إثرئذ، يتعين علينا أن نشير إلى أنها محفوظة بالقسم التاريخي للقوات العسكرية الفرنسية البرية ب Château de vincennes . لكن تقتضي الأمانة العلمية أن نعترف بفضل أحد موقعي رسالة " الخمسة والسبعين "(11) في الإطلاع عليها .

سنعمل على ترتيب المصادر المباشرة ، بالشكل الذي يتيح لنا استيعاب الحدث من حيث سياقه أولا، ومن حيث وقائعه الخاصة ثانيا :

- (م.ن:127 و 128) -

Des dépêches , recueillies au S.H.A.T., indiquent que les troubles , qui se sont produits dans le Tadla, pourtant « très tenu par ses Caïds ,vont durer de trois mois :
« 3 mars 1951 – Réquisition particulière
Au nom du Peuple Français et de sa Majesté Chérifienne,Nous, Philipe Boniface, requérons en vertu de la loi, le Général commandant la division de Casablanca, de

prêter le secours de la troupe au maintien de l'ordre à ksiba » (Tadla).

Le 31 mars, l'ordre est donné au lieutenant Colonel de Ligneville de : « Prendre immédiatement le commandement des Goums, Maghzens de Protection et Troulières stationnées sur le territoire du Tadla ».C.S.T.M. 2avril 1951.N°123.

"L'agitation persiste dans région de Meknès, particulièrement Sud khenifra.Opposition population Aïn Ishak à arrestation agitateurs connus, Situation calme dans zone beni-Mellal et Kasba-Tadla. Cependant agitation demeure Promoteurs et origines n'en sont pas décelés ".
2 avril 1951. 20h 40. N°20.T.S. Situation à 18h.

1° Aït Ishak (proche de Oued-Zem) : calme actuellement . la moitié de la tribu continue à ne pas reconnaître le Caïd et délibère avec la fraction fidèle. Le Général agira si nécessaire.
2° A Kebbab (Tadla toujours) dans la matinée, des éléments refusent de reconnaître le nouveau Cheikh (adjoint de Caïd).
Téléphone du 3 avril 1951.

« Depuis 24 heures, aucun nouvel attentat ne s'est produit . Des négociations sont actuellement en cours entre le Général ;Chef de la région de Meknès et les Jamaas des Aït Ishak et de Kebbab ».

= (م.ن: 130) –

Peut-être la ténuité des rapports entre la Métropole et la Résidence en est-elle une des causes. Il est vrai que Juin, responsable des réactions du peuple campagnard marocain à sa tentative manquée du coup de force, relate de façon toute personnelle sa version des événements, comme en témoigne cette lettre qu'il envoie le 26 février 1951, à son ministre, Robert Schuman. En voici l'essentiel :

« ... En octobre 1950, le Sultan, appuyé par l'Istiqlal, avait demandé, à Paris la révision du Traité de Fès. Lyazidi et Laghzaoui profitent, en décembre 1950, du Conseil du Gouvernement, pour faire le procès du Protectorat.
Le Glaoui de Marrakech, un haut dignitaire de l'Empire, cristallisant le ressentiment de ses pairs, demandait, en leur nom, au Souverain, lors de la cérémonie traditionnelle de la Hedya, de prononcer la condamnation d'un « parti de la haine et

du mensonge », dont l'action se conjugant avec celle des communistes tendait à ruiner l'organisation tranditionnelle du territoire et à provoquer une grave division

dans le pays.

Le Sultan, n'ayant pas cru devoir se rallier au voeu du Glaoui, irrité au surplus de la vivacité de ses propos, priait ce haut digniaire de ne plus paraître devant lui.

— (م.ن: 131 و132) =

S'il est difficile de savoir ce que Schuman aura pensé de ce chef d'oeuvre, Juin, lui, en est très fier, au point qu'il en enverra une copie le 20 août 1953, à Georges Bidault, accompagnée de ces mots :

« Au moment où le Gouvernement est appelé à prendre de graves décisions en ce qui concerne le Maroc, je crois devoir vous adresser copie d'une lettre que j'avait écrite à votre prédécesseur le 26/2/51. C'est une pièce historique (sic)...Elle éclaire un peu le sujet ».

Le 28 février 1951, par une lettre n° 186, Juin informe que quatre membres du Cabinet du Comité Exécutif de l'Istiqlal viennent d'être arrêtés pour « une affaire de tracts ». Il ajoute, sans rire, que ces arrestations n'ont rien à voir avec la crise qui vient de prendre fin.

Le même jour, il signale par télégramme, 12h45, n°182-84 :

« J'ai décidé de faire mettre en résidence surveillée Mehdi ben Barka,Directeur (sic) de l'Istiqlal. Il importe de neutraliser ce personnage redoutable ».

Tandis que se déroulent les événements du Moyen-Atlas et du Tadla, la résistance politique marocaine s'organise.En avril, à Tanger, se constitue le « Front National » (Istiqlal, P.D.I. et Parti DE l'UNITE) qui déclare :

«Aucune négociation ne pourra être menée avant la proclamation de l'Indépendance.

Les signataires s'engagent à n'accepter la constitution d'aucun front commun avec le Parti Communiste.

Toute action de nature à soutenir les suggestions de la Résidence Générale préjudiciables au Sultan du Maroc sera considérée comme contraire à ces clauses : la collaboration du Maroc avec la Ligue Arabe, avant et après l'Indépendance, est une obligation nationale ».

Pourtant, rien ne semble devoir troubler l'assurance du Général Juin. Voici un extrait du discours qu'il prononce, le 18 juillet 1951, au Maroc, devant le Grand Patronat

Français :

« Le Gouvernement n'a pas le droit de me relever de mes fonctions, alors qu'il est à l'agonie.Il n'a pas le droit de prendre une décision actuellement, alors qu'il est en pleine préparation électorale, et qu'il songe davantage à se faire réélire qu'à s'occuper du Maroc.Je suis au Maroc. J'y reste ».

— (م.ن:129) :

Seul, à ma connaissance, un Contrôleur civil, resté anonyme, envoie de Beni-Mellal la lettre suivante :

«Le Contrôleur civil, chef de région, chef du territoire de Tadla. A Monsieur le Contrôleur civil, chef de la région de Casablanca.

Beni-Mellal, le 15 juin 1951.

Les récents événements du Tadla ont fait apparaître les dangers d'une trop faible concentration militaire dans la montagne berbère et dans les agglomérations importantes.

En montagne, l'installation récente d'unités supplétives vient de donner aux chefs de circonscription de Ksiba, Ouaouzerth et Azizal, lesmoyens de maintenir l'ordre en cas de troubles non généralisés. A Kasba-Tadla , l'arrivée d'un bataillon de Sénégalais résout également la question.

Reste le cas de la ville de beni-Mellal, cité en plein développement (16.000 Musulmans, 3.000 Juifs, 600 Européens), siège d'un souk qui rassemble tous les vendredis près de 20.000 Marocains, où la présence d'une unité de réguliers paraîtrait justifiée.

En effet, dans cette agglomération surpeuplée ,activement travaillée par les nationalistes, les seules forces disponibles pour le maintien de l'ordre sont 4 gendarmes et quelques mokhazenis . Prévenir les troubles vaut mieux, semble-il, que de les r »primer.

La présence effective, sur place, d'une Compagnie suffirait pour maintenir l'ordre dans une population turbulente, mais au demeurant , fort prudente... ».

Cette lettre est accueillie, à Rabat, par une remarque du Chef d'Etat Majour M.Jay.

« Le Chef d'Etat Majour n'est pas habilité à recevoir personnellement des demandes « de service »(sic).

— (م.ن : 128 و129) :

En mai 1951, trois mois après le « coup » de Juin , pendant six jours de suite, des coups de fusils retentissent dans l'Atlas surplombant le Tadla, sur la route d'Afourer à Bin-el-Oui-dane. Quelqu'un tire sur des Français en pique-nique.Il y a plusieurs morts. L'homme vise bien et reste, de plus, insaisissable.Les premières dépêches parlent de « dangereux malfaiteurs » et le mobile des crimes serait le vol. Mais bientôt, les articles, émanant pourtant de la presse Mas, changent de ton :

« Il faut que l'on découvre ceux qui, par leur propagande, ont armé son bras : qu'une lumière impitoyable soit projetée sur cette criminelle propagande qui continue, qui se propage dans le Tadla.

Nous savons que de mystérieux émissaires répandent la terreur dans de tranquilles tribus, en insinuant que tous ceux qui ont récemment signé des pétitions envers la France (sic), ont renié, ce faisant, leur foi islamique...

Nous persistons à croire qu 'il ne s'agit pas d'un fait divers, mais, bien plutôt d'un crime politique directement lié à la première(sic) tentative de déposition » .

Dix mille hommes sont transférés dans la région, en vain . les « bandits » semblent protégés par leur tribu. Une prime énorme d'un million est alors offerte. Quelques jours plus tard, un homme, un berger, du nom de El Ahansali, et son complice sont livrés, ligotés.Quant on lui demande quel est le mobil de ses actes, l'homme répont : »Dieu l'a voulu ! » et « J'ai entendu comme un appel... ».

Il est incarcéré à côté de Mr Abderrahim Bouabid, pour qui les geôles françaises n'eurent pas de secret.Au petit matin blême de son exécution, passant devant la porte de Mr Bouabid, il crie : »Nous nous retrouverons chez Dieu ! » Il est considéré par les Marocains comme le premier Résistant, et le grand Boulevard qui descend vers le Port de Casablanca porte son nom.

عن بعض القضايا المستخلصة :

البادي ــ إذن ــ أن المعلن في هذه المصادر المباشرة أقل بكثير من الضمني فيها . تحددت بنيتها اللسانية وفق أخلاقيـــات المؤسســـة الأمنيـــة العســـكرية الفرنســـية . لانحصل مثلا عن كيفية إلقاء القبض على أحمـــد الحنصـــالي . بـــل تعفينـــا بنيـــة

الإيحاءConnotation ـ (المعاني الثانية) في رسم العلاقات التأطيرية بين أحمد الحنصالي ـ المقاوم المسلح ـ وأقطاب الحركة الوطنية السياسية. من ثم ، هل يسهل رسم حجم العلاقة بينه وبين آخر مخاطب له ، كعبد الرحيم بوعبيد ؟

للخطاب العالم تحفظاته . أما الخطاب الشعبي فقد أجاب على ذلك. إذ لا يمنح ملابسات وحيثيات عديدة. والأكيد أن أحمد الحنصالي له مرجعيته في الخطاب العالم ، بيد أن رمزيته تعززت في الخطاب الشعبي.

الملاحظ ـ إذن – أن المفاجأة بالنسبة للسلطة الاستعمارية كانت مفجعة : لم يكن في الحسبان توقع انتفاضة عنيفة في منطقة محكمة من قبل قواد المخزن / المستعمر. بل تطلب الأمر ـ من خلال البرقيات العسكرية ـ العمل على نجدة القوات بمنطقة تادلة في أقرب وقت ممكن ثم إن الإحالة إلى خيوط الحركة الوطنية في هذه الثورات كانت دائما دلالة مصاحبة للبرقيات والرسائل والاتصالات العسكرية. وإن العملاء/ الخونة ـ من بين القواد الذين وضعهم المستعمر ـ كانوا الأداة المباشرة للتحكم في المنطقة. ولم يكن يخفى على القبائل التادلية ذلك ، في إدراكهم للمخطط الغازي . فكانوا يرغمون الجنرال ـ رئيس الجبهة ـ على التفاوض معهم.

يمكن التساؤل عن طبيعة المؤسسة الاستعمارية من خلال حالات محددة : حدث العرائض المشهورة الموقعة من قبل قواد المستعمر، ضمن حلف الباشا لكلاوي من تقنيات المؤسسة. ثم إن هذا الحدث كان من بين العوامل المباشرة لانتفاضات الأطلس المتوسط. كان الباشا لكلاوي يسير في اتجاه يكرس المؤسسة الاستعمارية ويضرب في العمق الحركة الوطنية بالمغرب . ألم يكن أحمد الحنصالي واعيا بذلك؟ يتبين ـ دون تمحل أو تكلف بالتأويل ـ أن انتفاضة الأطلس المتوسط وتادلة كانت مؤطرة سياسيا وعسكريا : أين وزعت المنشورات التي وضع بسببها أربعة من مكتب اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال رهن الاعتقال ؟ ولم في اليوم نفسه وضع المهدي بنبركة تحت الإقامة المحروسة ؟

أتاحت رسالة مراقب مدني ، ظل اسمه مجهولا في الوثيقـــة ، القـــدرة علـــى امتلاك معطيات بشرية وعسكرية واقتصادية وطبيعية في المنطقة ، وكذا الطريقـــة التي ارتكز بها على هذه المعطيات في تحسُب أحداث مماثلة بعد انتفاضـــة تادلـــة. لقد كان تعزيز المؤسسة العسكرية للحماية الفرنسية الحل الأول والبدئي لتفادي كـل ما من شأنه زعزعة الحماية. ثم إن هذه الأخـــيرة راجعـــت حســـاباتها لخطـــورة انتفاضة منطقة تادلة .

وأقرت الرسالة في معانيها الظاهرة حيوية وفاعلية الحركة الوطنية المغربيـــة بالمنطقة. إن أولى الدلالات التي تفضي إليها المصـــادر المباشـــرة فـــي موضـــوع مقاومة أحمد الحنصالي:

1 ــ امتلاك الشهيد أحمد الحنصالي تكوينا عسكريا ، وتدريبا على الإنفـــلات مـــن قبضة العدو، وتخطيطا محنكا في تدبير نشاطه الكفاحي المسلح. مما أوقـــع ــ دون شك ــ السلطات الاستعمارية في حيرة : تعددت تأويلاتها واجتهاداتها فـــي ترقـــب التأويل الصحيح (12).

2 ــ لم يكن أحمد الحنصالي معزولا ولا عفويا إزاء نشاط الحركة الوطنية. ولقـــد تمكنت سلطات الحماية من إدراك ذلك .

3 ــ تـــبرز مقاومة أحمد الحنصالي رد فعل المقاومـــة المغربيـــة المســـلحة ضـــد عرائض الباشا الكـــلاوي والجنرال جوان. كما تعبرعـــن شجب القـــبائل التادليـــة لهذا العمل. كما أن المقاومة نفسها كانت رد فعل عنيف ضد المحاولة الأولى لنفـــي الملك محمد الخامس.

4 ــ لقد برهن رد الفعل العسكري لسلطات الحماية حجم مقاومة أحمد الحنصـــالي في منطقة تادلا.

5 ــ تضع السلطة الاستعمارية في المنطقة مكافأة مالية. وبعد ذلـــك يســـلم أحمـــد الحنصالي ورفيقه المقاوم " سميحة " لم يفصح الخطاب عن هوية من سلمهما!.

6 ـــ من التصريحات الأولى لأحمد الحنصالي يتضح تشبعه بالروح الجهادية الإسلامية العليا، لم يكن لا أميا ولا جاهلا بفقه الجهاد ولا بالتصور الكفاحي الوطني (13).

7 ـــ أن يوضع أحمد الحنصالي في زنزانة ، قرب عبد الرحيم بوعبيد، يمنع مشروعية التساؤل : أية قرابة بينهما في النشاط الوطني ضد المستعمر ؟

لقد جعلت منه الانتفاضة في البنية الرمزية المغربية أول شهيد ضد الحماية الفرنسية.

يقرأ الباحث "دولانوي" ـــ المذكور سلفا ـــ مقاومة أحمد الحنصالي ضمن ترابط بين :

ـــ النداء الأول لبونفاص المؤرخ ب 3مارس ، ستة أيام فقط بعد ضربة جوان.

ـــ كل الأحداث الثمانية مع طلقات أحمد الحنصالي مركزة في منطقة واحد ، تادلة.

ـــ لاحظت المؤسسة العسكرية الفرنسية نفسها ، بأن تعيين الإقامة العامة لموظفي السلطة ، كان أهم عامل للانتفاضات . بحيث نظر إليها المغاربة غير شرعية.

ويضيف الباحث بصريح العبارة :

" *لا يبرهن هذا الترابط على تغيير ما للاستراتيجية من قبل الإقامة فحسب* ، وإنما كانت مكتومة بعناية عن الحكومة الفرنسية. وبالفعل لم ترسل أية من البرقيات المشار إليها سلفا والتي تظهر أهميتها السياسية ، إلى وزارة الشؤون الخارجية ولكن [أرسلت] مباشرة إلى château de Vincennes (وزارة الدفاع)" (م.ن: 129)

وعليه، تفيد المصادر المباشرة المدروسة في بناء مرجعية مقاومة أحمد الحنصالي على شكل وقائع لها حجمها في التاريخ السياسي للمغرب الحديث المستقل . وأما رمزيته، فإن العديد من شوارع المدن المغربية حافلة باسم أحمد الحنصالي : رمز الشهادة الأولى للحرية ، والاستشهاد الخالص لأجل الاستقلال .وعندما نود مساءلة الخطاب الشعبي بهذا الصدد ، فإن رمزية الحدث تعلو إلى أن تصير بعدا

أسطوريا ، يظهــر فيه الشهيد أحمد الحنصالي كائنا إنسانيا له قــدرات وكرامـــات خارقة ، وذلك من خلال أشكال السرد الشعبي ، كما في الحكايات والأحاجي (14).

على سبيل الإقتراح العملي :

إسمحوا لي – أيها الحضور الكريم – أن أحشر نفسي ، لأقترح القرب بيننا دومـــا وبين تاريخ حافل بالمقاومة المغربية ضد الغازي :

1 – ألا يستحق منا الشهيد أحمد الحنصالي تسمية مدرج مـــن مدرجـــات الكليـــة باسمه، مثلما لا تخلو أغلب مدن المغرب من شارع يحمل اسمه ؟

2 – ولم لا نفكر في توقيع ميثاق التعاون العلمي في مجال البحث العلمي التـــاريخي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي حول المقاومة المغربية بتادلا. وذلك بين كليـــة الآداب والعلوم الإنسانية (مكتب أبحاث تادلا) والمندوبية السامية لقدماء المقـــاومين وأعضاء جيش التحرير؟

3 – ثم ، أليس من العملي وضع برنامج لإنجاز معجم للمقاومة المســـلحة بتـــادلا بنقل كل ما كتب حولها في المصادر المباشرة خصوصا الموجودة بفرنسا بأرشـــيف القسم التاريخي للقوات العسكرية الفرنسية (Château de Vincennes) ؟

– هل بهذه الاقتراحات سنوفي حق أمثال أحمد الحنصالي والزرقطوني وموحـــى أو سعيد ومحمد العتابي(15) ؟ المقاومون المغاربة رموز قيم بها ترقى الأمم إلـــى قمـــم التاريخ مغرب الحرية والوطنية الخالصة لن يكون أبدا من صنيع الباشـــا الكـــلاوي بل هو عصارة مثل عليا جسدتها المقاومة المغربية ، سياســـيا وعســـكريا. ســـنذكر المقاومين دائما. ولا عبر للأجيال اللاحقة دون ذكرى المقاومين . لا نملـــك إلا أن نقول ما قاله أبو الطيب المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قـــدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

الهوامش :

(1) — Delanoë , Guy 1988: lyauty , juin, Mohamed V : Fin d'un protectorat, Tome 1, l'Harmatan, p: 130.

والعبارة — أصلا — مستوحاة من نص لشارل أندري جوليان : « Le mythe du Bon Bled » .
نحيل إلى :

Julien , ch.A. 1978: Le Maroc Face aux imperialismes, p : 435.

(2) — م.ن : 132.

(3) — ذلك ما يركز عليه الباحث المذكور سلفا في فصل :
-Les conséquences de l'affrontement Juin – Mohamed V . Les premiers mouvements dans le Tadla

(4) — من المقاييس الأكثر نجاعة في التمييز بينهما مقياس "المؤسسية" ولاستيعابه، نقترح الرجوع إلى قواميس العلوم الإجتماعية والإنسانية .

(5) — ترجمة ل : - Référentialité épistemologique et methodogique

(6) — هذا هو المسار العلمي الذي اخترناه أفقا لتحليل العديد من أنواع الخطاب.

(7) — أنظر بعض دراستنا في هذا الصدد .

(8) — يمنح هذا التحديد احتمال تعامل إجرائي مع موضوع العلوم السياسية.

(9) — المرجعي : Le référentiel ، الرمزي : Le symbolique .

(10) — عبد الرحيم العماري : انتفاضة وادي زم : مقاربة سميائية لخطاب تاريخي ، الندوة العلمية حول "المقاومة بإقليم خريبكة 1912-1956 ، المنظمة من قبل المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير وجامعة الحسن الثاني ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك — الدار البيضاء ، بتاريخ 18فبراير 1993.وحسب ما بلغنا ، فإن مؤلف الندوة قيد الطبع .

(11) — هو الفرنسي Guy Delanoë المولود بالمغرب سنة 1916، بحيث طبعت الرسالة بباريس والدار البيضاء في الوقت نفسه ، وتم انتخابه — فيما بعد — رئيسا لجمعية "الضمير الفرنسي" ، الفكرة التي تمخضت عن الرسالة. وهو مؤلف الكتاب الذي عولنا عليه في بعض الاستنتاجات. بحيث أفادنا أيضا في طريقة التأليف بين المصادر المباشرة التي تهم أحداث انتفاضة الأطلس المتوسط وتادلة. وله مؤلف آخر في السياق نفسه :

- Delanoë, Guy 1991 : Le retour du roi et l'independence retrouvée, l'harmattan, Paris.

(12) — فهل يصح النظر إلى أحمد الحنصالي راعيا سلمت له بندقية ؟

(13) — للعقيدة الإسلامية الدور الأساس في التشبع بمقومات وقيم الجهاد لدى أقطاب الحركة الوطنية المغربية والمقاومة المسلحة. ولقراءة اللطيف دلالته العميقة.

(14) — هكذا تكفل الثقافة الشعبية ذكريات أبطال الشعوب والمجتمعات.

(15) — د. محمد بكراوي : مساهمة منطقة تادلا في مناهضة الاستعمار الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى ، ندوة "تادلا": التاريخ ، المجال ، الثقافة" أيام 15-16-17 أبريـــل 1992 ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء 1993 ص ص : 123 - 128.

مظاهرات 25 يوليوز 1955 بمكناس

بوشتى بوعسرية *

تميزت الأوضاع العامة في المغرب قبيل تعييـــن المقيـــم العـــام كرانفـــال Grandval باضطرابات في مختلف المدن المغربية وخاصة الــدار البيضـــاء ، لأن المستعمرين بدأوا يتخوفون على مصالحهم مع اندلاع الانتفاضات في جــل أنحـــاء البلاد خاصة بعد نفي السلطان سيدي محمد بن يوسف ، يوم 20 غشت 1953 فمنـــذ ذلك التاريخ لم يهدأ للمعمرين بال ولا ذاقوا طعـــم الراحـــة ، فتجنـــدوا بوســـائلهم الخاصة للدفاع عن مكتسباتهم والحفاظ عليها وإن اقتضى الأمر اللجوء إلى الأعمـــال الإرهابية والاغتيالات السياسية التي لحقت أبناء جلدتهم.

حاولت حكومة ادكارفور E. Faure التغلب على الموقف فعزلت المقيم العـــام لاكوست La coste وعينت مكانته كرانفال لعله يتمكن من عودة الهدوء إلى البلاد

---

* – المرحوم الأستاذ بوشتى بوعسرية ،كان أستاذا باحثا بكلية الآداب والعلوم الانسانية مكناس.

وقبل مجيئه إلى المغرب عقد عدة لقاءات مع شخصيات فرنسية لها دراية بالشؤون المغربية ، وأخرى مغربية ، وحاول الاطلاع على ملف القضية المغربية في باريس قبل حلوله بالرباط . وأراد المقيم العام الجديد معالجة الأوضاع بنفسه في عين المكان فقرر القيام بجولات في أهم المدن المغربية مثل مراكش ومكناس وفاس وكانت « العاصمة الاسماعيلية » المحطة الثانية لزيارته بعد مراكش لكن هذه الزيارة لم تمر كما رسمت لها القيادة العسكرية والمسؤولة على الأمن بها ، فقد تحولت المظاهرات العنيفة التي قام بها المكناسيون إلى اصطدامات دموية أسفرت عن استشهاد العديد من السكان وجرح بعضهم واعتقال آخرين ، فألغى كرانفال زيارته لفاس.

الوضعية العامة بالمغرب قبيل تولية كرانفال الإقامة العامة:

شهدت المدن المغربية بصفة عامة اضطرابات ومظاهرات قبيل تولية كرانفال الإقامة العامة وخاصة الدار البيضاء ، ففي النصف الأول من شهر ماي 1955 اندلعت أحداث دموية بهذه الحاضرة حيث تم تسجيل 150 عملية إرهابية أدت إلى مقتل 12 شخصا وجرح 28 ، في حين قتل 29 شخصا منهم 20 في يوم واحد و98 جريحا في النصف الثاني من الشهر المذكور(1) ومن بين الشخصيات التي ذهبت ضحية الإرهاب الفرنسي والإرهاب المضاد التي كانت تتزعمه حركة الوجود الفرنسي Présence Française وذلك يوم يونيه 1955 أحد أرباب الصناعة الأغنياء الذي ينتمي إلى أسرة فرنسية مشهورة وهو: لوميجر دوبراي Le Maigre – Dubreuil الذي اعتبره مواطنوه خائنا للقضية الاستعمارية ، وقد شارك دوبري في الحربين العالميتين وهو صهر الرئيس العام للشركة الصناعية لإنتاج زيت المائدة جورج لوسيور Géorges Lesieur ، واشترى دوبري من جان والتر Jean Walter بتاريخ 24 فبراير 1955 95% من أسهم جريدة Marc Presse وكان من أنصار الليبرالية بالمغرب ، فصارت جريدته منبرا حرا لنشر آراء بعض المغاربة كمولاي العربي العلوي وغيره مما جعلها عرضة لهجمات متكررة وزار

باريز يوم 10 يونيه 1955 وكانت لــه محادثات مــع ادكارفور E.Faure وخـــلال وداعه لــه أخبره أنه ســوف يغتال من قبل الإرهابيين الفرنسيين ، وكــذلك كـــان الشأن حيث أفــرغ فيه أحدهم 13 رصاصة أثناء عودته إلى الدار البيضـــاء فـــي اليوم الموالي (2) .

وأحدث مصرع دوبري رجة قوية أفادت القضية المغربية وخدمت الوطنييـن فصارت صحف باريز تمتلىء بالتقـــارير عـــن اشـــتراك البوليـــس والمعمريـــن (Colons) الفرنسيين في نسف مقرات الجرائد في الوقت الذي كانت فيه كل التـــهم موجهة للفدائيين المغاربة(3) وأثناء التحقيق في اغتيـــال دوبـــري تبيـــن أن هنـــاك جماعتين إرهابيتين فرنسيتين .

* منظمة الدفاع ضد الإرهاب .
* الحرس الأمامي للأيديولوجية الجمهورية .

ولم يتمكن المحققون من الوقوف على علاقتهما بالجنـــاح اليمينـــي La Presence Française ، والخطير في الأمر أن رئيس الجمهورية الفرنسية روني كوتي René Coty (23 دجنبر 1953 ـــ 8 يناير 1959) كان قد أخبر بـــأمر الاغتيـــال المحتمـــل لدوبري فعارض في ذلك بشدة واتهم البوليس والمعمرين باغتياله (4) ، كما اغتيـــل العديد من المغاربة الذين كانوا على صلة به ومنهم أبناء أسر غنية بالدار البيضاء.

عقب اغتيال دوبري عين مقيم عام جديد للمغرب هو كرانفال كمـــا تـــم نقـــل العديد من ضباط الأمن الفرنسي من الدار البيضاء وسرح البعض الآخر .

تعيين كرانفال Grandval مقيما عاما بالمغرب (21 يونيه 28 غشت 1955) :

استنكرت حكومة ادكارفور الأعمال الإرهابيـــة المضـــادة التـــي قـــامت بـــها عصابات الوجود الفرنسي Présence Française لكن في الوقت ذاته لم تستطع هـذه الحكومة اتخاذ قرارات حاسمة تهدف من ورائها إلى القضاء على ذلـــك الإرهـــاب ولم تقبل بعودة محمد بن يوسف إلى المغرب واســـتقلال البـــلاد، واكتفـــت بدعـــوة البرلمان الفرنسي إلى تبني صيغة غامضة تدعو إلى إدخال نظم الحكم الحديثة فـــي

المغرب وربط مصيره بفرنسا على أساس ما يسمى بالتكافل Interdependance وهو مصطلح يستعمل رسميا لأول مرة (5)، وقد أوكلت مهمة تطبيق هذه السياسة لـ كرانفال فمن هو هذا الشخص الذي تم تعيينه في وقت كان فيه المغرب كمرجل يغلي تجاوزت حرارة أحداثه المائة درجة ؟ . ولد كرانفال جيلبر سنة 1904 داخل عائلة يهودية تولى عدة مهام اقتصادية ، في مقدمتها إدارة شركة الاتحاد الفرنسي للمواد الكيماوية والأسمدة ولم يبلغ العقد الرابع من عمره ، وبذلك صار اقتصاديا وإداريا محنكا ، وإثر اندلاع الحرب العالمية الثانية التحق بالجيش التابع لفرنسا الحرة لمقاومة الاحتلال النازي لبلاده .

وبعد انتهاء الحرب المذكورة سنة 1945 اختير لمنصب الحاكم العام لمقاطعة الصار، ويعرف عليه استقلاله في الرأي والاعتزاز بشخصه ، وعلى إثر اشتداد الأزمة المغربية في صيف سنة 1955 وبعد اغتيال رجل الصناعة Dubreuil استدعاه رئيس الحكومة ادكارفور بواسطة إيميل روش Emil Roche رئيس المجلس الاقتصادي بالمغرب يوم 14 يونيه 1955 وعرض عليه منصب المقيم العام بالمغرب لتعويض لاكوست La Coste (يونيه 1954 يونيه 1955) بعدما اقتنع بشخصه وفضله عن كل من بوايي دولاتور Boyer de la Tour وروني دوبوا René du bois بعد استشارة الجنرال دوكول Degaulle الذي زكى كرانفال (6) وبعد أسبوع من الاستقبال السالف الذكر (21 يونيه) تم تعيينه بصفة رسمية مقيما عاما بالمغرب، لكنه لم يلتحق للتو بمقر عمله في الرباط وبقي لما يزيد عن أسبوعين في باريس لأمرين اثنين ، أولهما لاختيار الجهاز الإداري الذي سوف يعتمد عليه في تطبيق سياسته ، وثانيهما للتعرف على الأوضاع العامة في المغرب والاطلاع على الملفات الخاصة بالمسألة المغربية في العاصمة باريس ، ولتحقيق هذين الغرضين اتصل كرانفال في إطار المشاورات بعدة شخصيات لـها علاقة بالشؤون المغربية سواء الفرنسية منها أو المغربية.

وهكذا عقد جلسات عمل مع كل من : فرانسيس لاكوسط المقيـــم العـــام الـــذي سيعوضـه، وإيريك لابون Eric Labonne (مارس 1946 ماي 1947) المقيم العـــام الأسبق بالمغرب ثم عبد الرحيم بوعبيد من الحركة الوطنيـــة المغربيـــة وامبـــارك البكاي المناصر لسيدي محمد ابن يوسف . وهكذا انكـــب كرانفـــال علـــى دراســـة الملفات المتعلقة بالأزمة المغربية والأسباب الكامنة وراءها ، وبتوجيه من الحكومـــة الفرنسية التي كان يرأسها ادكارفور جاء لتطبيق البرنامج الآتي :

- تنفيذ فصول معاهدة الحماية أي عدم مناقشة استقلال المغرب .
- لا عودة للسلطان الشرعي للبلاد سيدي محمد بن يوسف .
- رحيل بن عرفة ضروري.
- تأسيس مجلس للعرش أو اختيار ملك آخر .
- تغيير شامل في الإدارة الفرنسية بالمغرب (7) .

ووصل كرانفال إلى المغرب يوم 7 يوليوز 1955 ، وفي ظرف أقل من أسبوع علـــى إقامته بالرباط وذلك يوم 12 يوليوز عمد إلى إقالة مجموعة من الموظفين السـلمين الذين كانوا على رأس القطاعات الحيوية في البلاد صناعيـــة كـــانت أم تجاريـــة أم إدارية .(8). وعكس ما ذهب إليه عبد الكريم غلاب فإن المـــهدي بنونـــة ذكـــر أن كرانفال لم يأت بأية تعليمات واضحة ولا برنامج محدد ، فتعرض لغضـــب غـــلاة الفرنسيين من جهة وانفجار الشعب المغربي من ناحية ثانيـــة(9) والواقـــع أن رأي بنونة لا يستند على حجج أو أدلة ثابتة مما يجعـــل هـــذا الـــرأي لا يصمـــد أمـــام تصريحات كرانفال خاصة في كتابه المشهور كما سنرى في ما بعد .

ومما يفسر ما ذهبنا إليه ، أنه بمجرد وصول هذا المقيم العام إلـــى المغـــرب حاول الوصول إلى حل للمشكلة المغربية ، فلم يضيع وقته في التشاور مـــع ابـــن عرفة لأنه اعتبره منتهي وعليه الرحيل كما عمل على إطلاق سراح عـــدد كبـــير من المعتقلين السياسيين، ومع ذلك ظل المغرب في حالة حصار واســـتمر النشـــاط

الفرنسي المضاد لأعمال المقاومة رغم تراجع الأعمال الإرهابية نتيجة طرد زعماء الحركة البارزين (10) .

وكانت عملية 14 يوليوز 1955 بالدار البيضاء بمرس السلطان التي أدت إلى تفجير قنبلة بمقهى أغلب زبنائها من المعمرين حيث قتل على إثرها ستة أوربيين وجرح ما يزيد عن ثلاثين منهم ، واعتبر محمد اليزيدي هذه العملية من تدبير جماعة الوجود الفرنسي الإرهابية موجهة ضد المقيم العام كرنفال، في حين حمل شارل أندري جوليان مسؤولية انفجار هذه القنبلة للوطنيين الاستقلاليين(12) مما أدى إلى تظاهر ما يعرف بـ:Petits Blancs في المعاريف مرددين شعارات معادية لكرانفال وبالمقابل هتفوا بحياة الكلاوي.

وأراد كرانفال التخفيف من تصعيد موجات العنف في باقي المدن فوضع جدولا زمانيا لزياراته لها في مقدمتها مراكش التي حدد تاريخ الزيارة يوم 21 و22 يوليوز 1955 في حين قرر زيارة مدينة مكناس في يومي 25 و26 من نفس الشهر وأخيرا التوجه إلى فاس يومي 28 و29 ، وهكذا قبل زيارة مراكش وبالضبط يوم 20 يوليوز استقبل كرانفال امبارك البكاي في الرباط وتحادث معه حول ما يجري في البلاد . وصل كرانفال إلى مراكش على متن طائرة خاصة في التاريخ المحدد أعلاه وغادرها يوم 29 يوليوز دون حوادث دامية. وبعد عودته إلى الرباط التقى ثانية بالبكاي إضافة إلى بعض الوطنيين المنتمين لحزب الاستقلال وهم : عبد الرحيم بوعبيد العائد من باريس ومحمد اليزيدي والمهدي بن بركة ، كما استقبل أيضا عبد الهادي بوطالب ومحمد الشرقاوي والحاج أحمد معنينو عن حزب الشورى والاستقلال (13) . وبعد هذه الاستقبالات تابع كرانفال إنجاز برنامجه الخاص بالزيارات لباقي المدن المغربية المبرمجة في هذا الصدد فكانت وجهته المقبلة مدينة مكناس.

زيارة كرانفال إلى مكناس 25 يوليوز 1955.

قبل التطرق لهذه الزيارة لابد من إعطاء نظرة ولو موجزة عن الأوضاع العامة

التي كانت عليها المدينة قبيل قدوم المقيم العام كرانفال إليها ، فقــد تميزت هـذه الأوضاع بقيام المكناسيين بعدة عمليات فدائية داخل المدينة أو خارجـها وكـانت جلها بالأحواز منصبا على إحراق المحاصيل الزراعية في ضيعـات المعمريـن الذين استأسدوا على الأهالي وأصبحوا بدورهم ينظمون عمليـات إرهابيـة تجـاه المكناسيين ، كـما لـم يسلم مـن هذه العمليـات المغاربيـة المتعـاونين مـع الفرنسيين (14). وكانت أهم الأعمال الفدائية الخاصة بإحراق منتجـات المعمريـن تلك التي نفذت في أكبر مزارع هؤلاء ونخص بالذكر منهم أشهرهم على الإطـلاق بأحواز المدينة إيميل بانيو (15) Pagnom Emile وكوستاف أوكوتوريـي Gustave Aucouturier وبالنسبة لهذا الأخير فقد كان رئيس الغرفة الفلاحية بمكناس ورئيـس نفس الغرفة على صعيد المغرب ونائب رئيس الغرف الفلاحية فـي فرنسـا وقـد أوردت صحافة الوقت يوم 24 يونيه 1955 عدد هذه الأحداث فتم إحصاؤها منذ بداية هذا الشهر فقدرت بـ : 20 عملية في أحواز مكناس أهمها ما وقع يوم 10 من نفـس الشهر إذ تم إحراق 160 هكتارا ، كما تم إتلاف مئات الأمتار من الخطوط الهاتفيـة وتفجير العشرات من القنابل (16).

وبالرغم من كل هذه الأحداث والعمليات الفدائية المقاومة للوجـود الفرنسـي بالمدينة وأحوازها ، فإن الجنرال أندري ميكـل André Miquel حـاكم مكنـاس والجنرال لوبلان Le Blanc أعطيا للمقيم العام الضمانات اللازمة لنجـاح زيارتـه لأن المدينة كانت هادئة في نظرهما وليست هنـاك مظـاهرات تتطلـب اسـتعمال القوة(17) مما شجع المقيم العام على المغامرة والإقدام على زيارة مكنـاس يـوم 25 يوليوز 1955 صباحا . اتخذت السلطات الأمنية بمكناس التدابير اللازمـة لمـرور زيارة كرانفال في جو هادىء وبأقل تكلفة من حيث الخسـائر البشـرية والماديـة وهكذا أعطى الجنرال ميكل أوامره لمختلف رؤساء الفرق العسكرية مـن مدفعيـة وقناصة ودرك وكوم وغيرهم بما في ذلك البوليس لوضع المتاريس والحواجز فـي كل الأبواب والطرقات التي تربط ساحة الهديم وزنقـة دار السـمن وحـي روى

أمزيل بالأحياء المجاورة لهذه الساحة كقصبة سيدي عمرو ، وقصبة هدراش وسيدي بابا ، وابني امحمد والفخارين وتواركة وتولال ... والسماح لسكان المدينة القديمة فقط باستقبال المقيم العام ، وهكذا بدأت المناوشات الأولى بين قوات الأمن المرابطة في باب الجديد وبين سكان حي سيدي بابا القريب منها الذين أرادوا التوجه إلى ساحة الهديم وعددهم ما بين 600 و700 شخص وأدت هذه الاصطدامات الأولية إلى سقوط قتلى وجرحى في صفوف المكناسيين مما اضطرهم إلى رشق قوات حفظ النظام بالحجارة والاشتباك معها في معركة حقيقية ، وتم نقل الشهداء والجرحى إلى مسجد باب بريمة . إن هذه الاصطدامات الأولية لم تمنع سكان باقي الأحياء من التوجه إلى نفس الأماكن المخصصة لمرور الموكب المقيمي ، كما أن الدرك الفرنسي وضع حواجز في الطرقات المؤدية من المدن المغربية إلى مكناس وما إليها . ويذكر كرانفال في كتابه Ma mission au Maroc أنه توجه صباح يوم 25 يوليوز 1955 إلى مدينة مكناس حيث استقبله الجنرال ميكل عند حدود الإقليم غربا على بعد 20 كلم تقريبا في المكان المعروف بعين عرمة وأخبره بأن الأمن شاملا في المدينة (18).

ولما وصل المقيم العام إلى ساحة الهديم فوجيء بتلك الجماهير الغفيرة المحتشدة في انتظاره ، لا للترحيب به ولكن للتعبير له عن عدم رضاها على برنامج حكومته التي أوفدته لتطبيقه في الوقت الذي لم يعد فيه وقت للانتظار لتبث فيه فرنسا للمغرب استقلاله ورجوع ملكه الشرعي سيدي محمد بن يوسف.

حاول المسؤولون في مكناس تنظيم استقبال عادي لكرانفال حيث قدمت له فرقة عسكرية التحية بساحة الهديم في الوقت الذي استقبلته الجماهير برفع الرايات المغربية وصور السلطان ، وزغاريد النساء فوق السطوح كلما رفع شعار يحيي الملك، وقد قام زعماء الحركة الوطنية بمكناس بدور رئيسي في تأطير السكان ومطالبتهم بالحضور بكثافة للضغط على ممثل فرنسا وإبلاغه عدم رضاهم عن بقاء فرنسا في بلادهم ، ورغم كل هذا الصخب ، فقد قدم باشا المدينة المختار بن حمو

التمر والحليب للمقيم العام على العادة في مثل هذه المناسبات كما أخبر الجـــنرال ميكل بأن الأحداث اندلعت منذ الصباح الباكر .

خلال حفل الاستقبال حاولت الجماهير التوجه صوب المقيم العام فعملت قـوات الأمن على ردعها ، لكن لما عيل صبرها أطلقت النار عليها مما أدى إلـــى ســقوط عدد من الجرحى والقتلى أمام أعين كرانفال فكتب هذا الأخير في منكراتـه .Nous voilà loin du calme annoncé . ورغم هذه الأحداث انطلقت الســيارات المرافقــة للسيارة المقيمية بصعوبة أمام احتشاد المتظاهرين في الطريق المؤدية من الــهديم إلى حمرية مرورا بدار السمن وروى أمزيل. وأثنـــاء مــرور ســيارة كرانفــال بصعوبة أمطره الجمهور بعرائض الاحتجاج والشعارات المعادية لفرنسا وللخونـــة لكن هذا لم يمنع من ترديد يحي كرانفال من قبل بعض العملاء المدفوعين من قبـــل سلطات الحماية بالمدينة فكان ثمن هذه الحماقة هجوم الجمهور عليـــهم وأشـــبعوهم ضربا ، وطردوهم من أماكنهم وبذلك تبين له أن الجنرال المكلف بضبط الأمن لـــم يتمكن من ذلك. ولما بلغت سيارة كرانفال إلى دار فرنسا بحمرية كـــانت الوحيـدة صحبة سيارة الأمن التي سمح لهما الجمهور بمتابعة السير، في حين تـــم حجــز باقي السيارات المكونة للموكب المقيم وعددها 14 كسر زجـــاج بعضـــها وبداخلـــها شخصيات فرنسية ومغربية ، أرغمها المتظاهرون على ترديد شعارات يحي الملـــك وتسقط فرنسا وكان من بين هؤلاء الذين رضخوا للمكناسيين المراقب المدني أودبير Audebert والقائد ميمون ابن الباشا المختار، كما طوقت الجماهير الفرقة التـــي أدت التحية للمقيم العام المكونة مـــن القناصـــة المغاربـــة Tirailleurs Marocains وشتموا أعضاءها ونعتوهم بالخونة ورشقوهم بالحجارة مما أدى إلى تدخل الفـــرق الخاصة بالوقاية (Groupe specials de protection (G.S.P التـــي بـــدأ جنودهـــا يطلقون الرصاص على السكان فضاعف ذلك من عدد القتلى والجرحى، وفي هـــذا الوقت كانت طائرة تحلق على علو منخفض تراقب السطوح وترهب النساء اللائـــي كن يشجعن المتظاهرين وترمين بالحجارة على القوات الفرنسية التي انتقـــل منـــها

للتمركز في باب بوعماير منعا لصعود الجماهير إلى حمرية وبذلك تم فصل المدينتين القديمة والجديدة عن بعضهما ، في الوقت الذي تمركزت فيه قوات قناصة افريقيا Chasseurs d'Afrique في المناطق المرتفعة لنفس الهدف. وخلال هذه الأحداث تم إحراق مجموعة من سيارات المسؤولين بالمدينة وغيرهم كما هم بعض المتظاهرين بإحراق مستوصف بولان Poulain داخل المدينة القديمة لولا تدخل قوات الأمن. وعموما شملت المظاهرات كل أحياء المدينة القديمة دون استثناء واستمرت عمليات حرق السيارات ومتاجر بيع السجائر طيلة اليوم لدرجة أن بعض السكان كادوا يختنقون بلهب النيران وكثرة الدخان .

وعند الزوال أخبر المقيم العام أن حصيلة الاضطرابات كانت 17 قتيلا من المغاربة و50 جريحا منهم 10 من قوات الأمن حسب الإحصاءات الرسمية في حين أوردت جريدة الأهرام (19) الصادرة يوم 27 يوليوز 1955 أن عدد القتلى بلغ 60 و2500 جريحا بينما بلغ عدد المعتقلين 30 مكناسيا وواحد من خارج المدينة . أما الخسائر المادية فلم يقدر ثمنها رغم جسامتها.

والواقع أن هذه الأرقام الرسمية لم تكن في غالب الأحيان حقيقية بل تقريبية مع مراعاة الأوضاع المحلية والوطنية والدولية ، والحقيقة هي أن هناك مئات من القتلى وما يفوقهم من الجرحى كما أكد ذلك المشاركون في هذه الأحداث(20) علما أن عدد المقبورين زوال الأحداث 20 شهيدا كما هو مثبت في مقبرة الشهداء أمام باب البرادعيين ، وتركت قوات الأمن للمكناسيين تنظيم جنازة الشهداء دون تدخل خوفا من اندلاع حوادث أخرى بل أن رئيس الفرق التي أوكلت لها مهمة المراقبة أدت التحية للجمهور أثناء مرور وفد الجنازة.

وقضى المقيم العام ليلة 26-25 يوليوز عند الباشا المختار كما تقتضيه عادة الضيافة لكن خيم على هذه الليلة جو من الحزن على كل سكان مكناس. وبعد عودة الهدوء إلى المدينة أعلن الجنرال ميكل حالة الطوارىء ومنع التجول داخلها

من الساعة التاسعة ليلا إلى الساعة السادسة صباحا ، كما طالب من عدة قيـــادات تعزيزات عسكرية من فاس والقنيطرة وعين لوح والحاجب .

26 يوليـوز 1955

بالرغم من الأحداث الدامية التي عرفتها مدينة مكناس يوم 25 يوليوز فإن ذلك لم يمنع المقيم العام من إتمام زيارته وإنجاز برنامجها كما سطر له ، ففـــي اليـوم الموالي للأحداث زار كرنفال القطاع الفلاحي العصري لمجاط على بعـــد 10 كلــم جنوب مكناس Secteur de Modernisation du paysannat de M'jatt وأعطيت لـــه توضيحات حول سير أعمال هذا المركز . وتوجه فيما بعد إلى الضيعة النموذجيـــة لأحد المعمرين واسمه Canitrot ورجع إلى مكناس لزيارة المدرسة العسكرية التـــي كان يسميها الفرنسيون سان سير Saint-cyr (21) المغرب، حيث اســتقبلا مديرهـــا العقيد داي لهومو Delhumeau والقبطان سير عبد القادر رئيس قدماء هذه المدرســة الذي أخبر المقيم العام بموالاة تلاميذ هذه المدرسة للسلطان ســـيدي محمـــد بـــن يوسف لأنهم جزء من الشعب المغربي. وبعد حفل الغذاء الذي نظمه كرنفال ميكـــل على شرف كرانفال ومرافقيه ، استقبل أيضا 52 قائدا من إقليم مكناس، ومن بيـــن الذين تم استقبالهم في هذا اليوم المحامي إدريس المحمدي عـــن حـــزب الاســـتقلال وإبراهيم الهلالي عن حزب الشورى والاستقلال ، وطالبـــا منـــه إطـــلاق ســـراح المعتقلين فلبى طلبهما . وعلى إثر هذه الأحداث ألغيت زيارته لفاس بعـــد استشـــارة الجنرال لوبلان Le Blanc.

عواقـب زيـارة كرانفـال لمكنـاس .

جاءت زيارة مكناس بعد زيارة مراكش إلا أنها كانت متعبة ومكلفـــة للإقامـــة العامة، مما اضطر معه كرنفال إلى إلغاء زيارته لفاس، باعتبارها كـــانت تجربـــة قاسية فلاداعي لتكرارها، لكنه لم يحسم الموقف لصالح الإقامة العامة، فقد حدثـــت تطورات خطيرة ليس فقط في المدن ولكن في البوادي مما عجل باستقالة كرانفـــال يوم 22 غشت 1955 بعدما قضى بالضبط في مهمته 60 يوما لاغير.

وكان لأحداث مكناس يوم 25 يوليوز 1955 صدى قويا داخليا وخارجيا فأقيمت صلاة الغائب في المدن المغربية على شهداء مكناس.

وفي فرنسا استدعى رئيس الحكومة ادكارفور المكلف بالشؤون المغربية والتونسية بيير جولي Pierre July وطالبه بفتح تحقيق في الموضوع، كما أن الصحافة الفرنسية والباريسية منها على وجه الخصوص أولت هذه المظاهرات أهمية بالغة وأفردت لها صفحاتها الأولى وبأحرف بارزة وقارنتها بأحداث بوفكران (1937)، كما أن كرانفال فشل في إنجاز برنامجه ولم يحقق منه أي شيء ذلك أن ابن عرفة بقي حاكما صوريا ولم يتكون مجلس العرش ولم يتنازل سيدي محمد بن يوسف عن العرش، في حين ظل الشارع المغربي فوق فوهة بركان ومرجل يغلي مطالبا بعودة الملك الشرعي للبلاد.

والغريب في الأمر أن ابن عرفة أصدر نداء إلى المغاربة يطلب منهم فيه الهدوء واحترام النظام وعدم الاستماع إلى المحرضين ويقصد بذلك الوطنيين(22).

وحاول كرانفال تهدئة الأوضاع لكن الأحداث كانت أقوى منه لذلك كانت ــ كما قال هو نفسه (الأيام 27 إلى 30) يوليوز من الأيام المشهودة في حياته السياسية بالمغرب بسبب ما عرفته القضية المغربية من تطورات Les quatre journées du 27 au 30 juillet vont être Parmi les plus chargées de celles que jamais connus au Maroc (23) وعاد كرنفال في بداية شهر غشت 1955 لإجراء محادثات مع حكومة ادكارفور لإيجاد حل للأزمة المغربية ، لكن كانت هناك قوى بارزة داخل هذه الحكومة وعلى رأسها بيناي Antoin Pinay وزير الخارجية تعارض أية تسوية أو رجوع سيدي محمد بن يوسف (24) . ومن التطورات التي عجلت بتقديم كرانفال استقالته ما حدث بجبال الأطلس المتوسط والكبير ، ذلك أن 55 قائدا مما كانوا قد وقعوا عريضة لعزل سيدي محمد بن يوسف تراجعوا عن موقفهم وطالبوا بعودته باعتباره السلطان الشرعي للبلاد فتعرض سكان الجبال الأطلسية للقصف بالطائرات التي كان على متن إحداها الجنرال دوفال Duval قائد القوات العسكرية في المغرب (شتنبر 1949 ــ غشت

1955) فأسقط المقاومون المغاربة هذه الطائرة يوم 22 غشت فكان فيها حتفه ، وفي هذا اليوم قدم كرانفال استقالته نهائيا ليعوض بالجنرال بوايي دولاتور دومولان قــدم فيه Boyer de la Tour du Moulin (31غشت 1955 ـــ نونـــبر1955) وكمـــا جــرت العادة كلما تأزمت الوضعية داخل المغرب إلا وتولى منصب الإقامة العامـــة أحــد العسكريين. ولكن لا هؤلاء ولا أولئك تمكنوا من كبـــح جمـــاح حركـــة التحريـــر المغربية التي عجلت بعودة سيدي محمد بن يوسف إلى وطنــــه وكـــان الأســبوع الفاصل بين استقالة كرانفال وتنصيب الجنرال بوايي دولاتـــور دومـــولان حـــافلا بالمشاورات والحوار مع بعض أعضاء الحركة الوطنية وبيناي والجنرال بيرمـــاري كونيغ Koening وزير الدفاع وبيير جولي Pierre July وزير الشـــؤون التونســية المغربية وأجريت هذه المفاوضات ما بين :

ـــ عن حزب الاستقلال : محمد اليزيدي وعبد الرحيم بوعبيد والمهدي بن بركة.

ـــ عن حزب الشورى والاستقلال : محمد الشرقاوي وعبد الهادي بوطالب وأحمد بن السودة.

ـــ غير المنتمين امبارك البكاي والفاطمي بين سليمان وعباس التازي.

كما شارك في هذه المفاوضات : محمد المقري الصدر الأعظم (15ســـنة) وعبــد الرحمان الحجوي رئيس تشريفات بن عرفة والتهامي الكلاوي وعبد الحي الكتـــاني ـــ وكانت المحادثات فيايكس ليبان(25).

كانت أحداث مكناس المرتبطة بزيارة كرانفـــال للمدينـــة مناســبة للتعبــير للمسؤولين الفرنسيين عن رفض جزء من الأمة المغربية ـــ وباقي الأمة أيضـــا ـــ لسياسة فرنسا في المغرب وأن التعنت ومحاولة فرض الأمر الواقع لم يعد يجــدي. كما أن هذه الأحداث ـــ وغيرها ـــ عجلت باسترجاع المغرب لاستقلاله، وملاحظـــة ثالثة وهي أن سكان مكناس كانوا دائما سباقين للاصطدام مـــع الفرنســيين فــي مناسبات متعددة (أحداث بوفكران 1937 وأحداث سي عبد الســـلام 1956) فكـــانت نموذجا للتظاهرات الشعبية الدامية في تاريخ الحماية الفرنسية بالمغرب.

الهوامش :

1) – Julien (ch. An) : Le Maroc Face aux Imperialismes 1415-1956.Editions jeune Afrique Paris 1978, P : 411.

2) – المصدر نفسه .

3) – دوجلاس أي اشفورد : التطورات السياسية في المملكة المغربية ، ترجمة ذة : عائشة سليمان عارف – د. أحمد مصطفى . أبو حاكمة. دار الكتاب ، الدار البيضاء 1964 ، ص : 109.

4) جريدة Le Monde العدد المؤرخ بـ 19يوليوز1955 – وأنظر كذلك : المرجع السابق ص : 575، الهامش 45 ص:.576.

5) – بنونة(المهدي) : المغرب ... السنوات الحرجة – شركة المدينة للطباعة والنشر – جدة – 1989ص :.346.

6) – غلاب (عبدالكريم) : تاريخ الحركة الوطنية المغربية من نهاية الحرب الريفية إلى بناء الجدار السادس في الصحراء، الجزء الثاني، مطبعة الرسالة – مرجع سابق – .

7) – غلاب (عبدالكريم) : تاريخ الحركة الوطنية المغربية – مرجع سابق –.

8) – Le Monde n° 3256. du 14/7/1955.

9) – بنونة (المهدي) : المغرب ... السنوات الحرجة ... مرجع سابق .

10) – دوجلاس أي اشفورد : التطورات السياسية في المملكة المغربية – مرجع سابق ص : 110.

11) – غلاب (عبدالكريم) : تاريخ الحركة الوطنية المغربية ... مرجع سابق ص : 690 . ذ

12) – Julien(ch.An): Le Maroc Face aux Imperialismes Ibid. P / 427.

13) – Grandval (gilbert): Ma Mission au Maroc, Libraire - Plon , Paris 1956.P :100.

14) – للمزيد من التفاصيل عن هذه العمليات يمكن الرجوع إلى أرشيف المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير بمكناس أو لصحافة الوقت .

15) – للمزيد من التوضيح عن هذا المعمر وغيره يستحسن الرجوع إلى أطروحتنا حول : مكناس : المدينة الجديدة. التأسيس – البنيات الإدارية – التناقضات (1939–1911) الفصل الخاص بالمعمرين – توجد نسخ منها بكلية الآداب الرباط.

16) – Julien (ch.An) : Le Monde Face aux Imperialismes Ibid - P : 418, note 133.

17) ــ المرجع السابق ص : 429.

18) – Grandval (G) : Ma Mission au Maroc - Ibid - P : 110.

19) – Julien (ch.An) : Le Monde Face - Ibid.

20) ــ أنظر لائحة بأسماء الشهداء في الملحق المرفق في نهاية البحث.

21) ــ للمزيد من التوضيح عن هذه المدرسة بمكناس يستحسن الرجوع إلى أطروحتنا الســالفة الذكر الباب الثاني الفصل الثاني .

22) – Le petit Marocain n° 118777 du 26/7/1955. – La vigie Marocain du 26/7/1955.

23) ــ دوجلاس أي اشفورد : التطورات السياسية في المملكة المغربية مرجع سابق ص : 111.

25) ــ بنونة (المهدي) : المغرب ... السنوات الحرجة ــ مرجع سابق ــ ص ص : 348-349.

ملحــــق رقـــم 1

1) Appel au calme de S.M. le Sultan)

« A notre peuple et à nos sujets dévoués.

Notre Majesté cherigienne élevée par dieu le Trés-haut est profondément attristée à la pensée des trop nombreux victimes et manifestations qui se sont succédé depuis quelques jours dans notre Empire ... Il nous apparu nécessaire de vous invites à faire àconserver le calme et la sagesse ... Nous vous invitons triompher la reflexion et la tranquillité et à ne pas vous laisser entraîner par les criminels qui vous trompent et ne cherchont que l'occasion favorable de consommer la perte de Maroccain...

ملحوظـــــة : أخذ هذا النص من مصدر الهامش رقم 22.

ملحــق رقــم 2 : لائحة بأسماء شهداء حوادث مكناس 25 يوليوز 1955.

ــ لالــــة خديجــــة . ــ عبد اللطيف القلعــي . – أحمد التواتـــــي . – محمد بن الـــيزيد الصحراوي . ــ عبد العلي التازي. – محمد الرجراجي . ــ محمد بن عبيد الصحراوي

ــ لحسن لمنبهي. – بنعيسى المشتاقي . ــ صالح بن بوعزة. – محمد عس الزرهوني.

ــ الجيلالي بن الغزاوي. ــ عبدالسلام الصنــــهاجي. ــ أحمــد الشــقرني 15 ــ الغـــازي الصحــــــراوي ــ اليزيد الصحراوي . ــ إدريس الوردي ــ عمر الفيلالــــي . ــ إدريــس الهواري . ــ بوشتى المجاطـــي .

من قـضـايا المـقاومـة

- المغاربة والدعاية الأجنبية
- أسئلة الكتابة عن تاريخ الحركة الوطنية

المغاربة والدعاية الأجنبية أثناء الحرب العالمية الثانية

عبد الحميد احساين *

تجدر الإشارة في البداية إلى أننا انطلقنا في كتابة هذا الموضوع مما سبق أن كتبه باحثون أبرزوا أهميته وخصوبته (1).. فكتاباتهم أنارت لنا بعض المعالم وزادتنا رغبة وحماسا لتناوله والكتابة فيه فهو مجال يسمح لنا بمقاربة قضايا ذات ارتباط بوسائل التواصل الجماهيري والتقنيات والوسائل العصرية التي استعملت في الدعاية . ويفسح لنا المجال، من جهة ثانية، لتجاوز ما هو حدثي واقتحام فضاءات ذات علاقة بالبعد الثقافي والذهني وبعالم التمثلات والتصورات. ومن هذا المنطلق فإن السؤال الذي شغلنا في هذا البحث يتعلق بنوعية وطبيعة تعامل المجتمع المغربي، المتميز بخصوصية ثقافته والمُكبّل بقيود الاستعمار، مع الدعايات

* - أستاذ باحث بكلية الآداب بنمسيك الدار البيضاء

الأجنبية العصرية و الشرسة التي انتعشت ، بشكل مثير للانتباه، في نهاية الثلاثينيات وبداية الأربعينيات من القرن العشرين ، و كانت تعبيرا جليا عن التناقضات والتوترات التي طبعت المجتمع الدولي في تلك الفترة التي عرفت قيام الحرب العالمية الثانية العصيبة ، ابتداء من صبيحة يوم الاثنين 3 شتنبر 1939.

حرب الدعايات

لم تكن الدعايات السياسية الأجنبية بالمغرب وليدة الحرب العالمية الثانية. فالسنوات والعقود التي سبقت فترة الحرب العالمية الثانية تركت لنا سجلا حافلا بالمعلومات التي ارتبطت فيها الأحداث بالحملات الدعائية. فالحرب العالمية الأولى مثلا فسحت المجال أمام القوى المتصارعة لنشر دعايتها بالمغرب. وكذلك الأمر بالنسبة لفترة الثلاثينيات التي عرفت صعود نجم النازية والفاشستية، والأنظمة الجمعية أو الكليانية بشكل عام. فقد تميزت هذه الفترة باشتداد الحروب الإيديولوجية والإعلامية واحتدام المنافسة بين وسائل الإعلام سخّرت نفسها لخدمة مصالح الرأسمالية والبرجوازية الكبرى أو للدفاع عن المذاهب الإيديولوجية التي فرضت نفسها في فترة أزمة الرأسمالية الليبرالية. وكان صدى تلك التوترات السياسية والعسكرية والصراعات الإيديولوجية يصل إلى المغرب، بل كانت عدواها تفعل فعلها في الساحة السياسية المغربية. فمجلة " ليكو ديتاليا " الأسبوعية التي أشرفت عليها الغرفة التجارية الإيطالية بالدار البيضاء مثلا، كانت اللسان المعبّر عن قضايا وانشغالات الجالية الإيطالية بالمغرب، والفضاء أو المنبر الذي استغلته الحركة الفاشستية للدعاية للدوتشي موسوليني وإطلاع القراء على خطب وأعمال المسؤولون الإيطاليون ونشر مقالات تمجد قوة الاقتصاد الإيطالي وتبرز مزايا الفاشستية وتنتقد فرنسا التي غرقت، في نظر الفاشستيين، في بحر من المشاكل الاقتصادية بسبب تبني النظام البرلماني الذي قاد إيطاليا من قبل إلى الهاوية .

ومع اقتراب الحرب العالمية الثانية، اشتدت وطأة الدعايات والدعايات المضادة وازدادت حدة التوتر داخل الجاليات الأوربية المقيمة بالمغرب(2). ولم

ينحصر أمر هذه الدعايات داخل نطاق الجاليات الأجنبية. بل تجاوزه ليشمل كل فئات وشرائح المجتمع المغربي. فقد دعم الاسبان دعايتهم وسط القبائل المغربية الشمالية محاولين إقناع أفرادها بالانخراط في الجيش الاسباني من أجل المشاركة في حرب تحريرية لا تنتهي إلا لانتهاء احتلال المغرب. وشدد الإيطاليون حملاتهم الدعائية المضادة لفرنسا وانجلترا. وسار الألمان في نفس الاتجاه. ففي المؤتمر الوطني الألماني المنعقد بمدينة "بريم" Brême، بين يومي 25 و27 ماي 1938، أكد ممثلو الجيش والشؤون الخارجية ، على أهمية دعم نفوذ الألمان خارج أوربا، و خصوصا ب" غينيا " والمناطق الخاضعة لإسبانيا ، وعلى ضرورة ربط الاتصال بالوطنيين في المغرب والجزائر. وتم، في هذا الإطار، بعث بعض الضباط الألمان ، بشكل سري، إلى بلدان المغرب العربي وتكثيف نشاطهم ودعايتهم بالمنطقة الشمالية الخليفية وبجزر الخالدات والمنطقة الصحراوية الجنوبية(3).

وبعد اندلاع الحرب العالمية، ازداد الأمر خطورة. فقد أخذت الأطراف المتصارعة تتسابق في البحث عن التحالفات ونقاط الارتكاز واستعمال كل الوسائل التي تضمن لها الفوز وتحقيق النصر . وكانت الدعاية السياسية من أخطر الوسائل التي لجأت إليها مختلف هذه الأطراف. وفي هذا السياق، حرصت ألمانيا ،الراغبة في زعزعة الاستعمار الفرنسي بالمغرب، على استمالة رجال الحركة الوطنية وتأليب المغاربة ضد الفرنسيين . واستعانت في ذلك، ببعض الشخصيات الإسلامية والعربية البارزة. ومن أبرز هذه الشخصيات شكيب أرسلان الذي وصل في شتنبر 1939 إلى برلين من أجل تكثيف الدعاية عبر الراديو في الأوساط الإسلامية(4). ولم تكتف ألمانيا بالخطب التي كانت توجهها باللغة العربية إلى كل الشعوب العربية. فقد عملت على إجراء اتصالات مباشرة مع الشخصيات البارزة في هذه المجتمعات . ففي المغرب، مثلا، أجرى " لانكانهايم " Langenheim وهو من رجال "مانسمان" Mannesmann، اتصالات عديدة مع عبد الخالق الطريس

مباشرة بعد اندلاع الحرب. وكان الهدف، بناء على ما ذكرته مصالح الاستخبارات الفرنسية التي نقلت الخبر، تهييئ حملة دعائية ضد فرنسا وانجلترا (5). ولجأت الاستخبارات الألمانية إلى أسلوب المناشير أيضا. ففي شهر أكتوبر من نفس السنة مثلا، وزعت منشوراً بمدينة الرباط حرصت فيه على نفي تهمة الوثنية على أدولف هيتلر الذي كان ، حسب نفس المنشور ، يمر بمرحلة انتقالية قد تقوده إلى الإسلام(6)..

وكان الفرنسيون يتوقعون أن تلعب ألمانيا ورقة القومية العربية وأن تعمل على إذكاء روح الثورة في سوريا والمغرب العربي وتشجيع الحركات الوطنية والأفكار المعادية لليهود. ولمواجهة الأمر، حاولوا تنظيم حملات دعائية مضادة . ومن الوسائل التي استعملوها لتحقيق هذه الغاية، إذاعة الرباط التي عملت تحت إشراف المصالح الإعلامية التابعة للإقامة العامة. وقد بلغت هذه " الحملة الإعلامية ذروتها ...يوم إعلان الهدنة "بعد انهيار خط ماجينو وهزيمة فرنسا واستسلام قائد قواتها الماريشال فيليب بيتان Philippe Pétain في يونيو 1940(7).

لكن انهزام فرنسا في الحرب لم يكن الحدث العابر الممكن تجاوزه بسهولة بل كان حدثا بالغ الأهمية. فتراجع قوات الحلفاء وسقوط باريس بين أيدي جيوش هيتلر، لم يضعف موقف فرنسا بالمغرب فحسب، بل إنه أعطى الفرصة للكوديو فرانكو ، الذي فضل الانضمام إلى صف دول المحور، للاستيلاء على مدينة طنجة الدولية و شجع الحزب الفاشستي الاسباني على القيام بمظاهرات، في جميع أنحاء إسبانيا، مطالبا بالاستيلاء عسكريا على المناطق المغربية الخاضعة للحماية الفرنسية. وانسجاما مع هذه التطورات الخطيرة، فسح فرانكو المجال للقوات الألمانية لإجراء التدريبات العسكرية في المنطقة الخليفية واحتلال بعض المواقع المغربية(8).

وكان أمرا طبيعيا أن تقل وتتقلص حدة الدعاية الفرنسية بعد استسلام فرنسا وقيام نظام فيشي وتشكيل لجان الهدنة. لكن ذلك لم يعن أبدا انتهاء مفعول ونشاط

الدعايات المختلفة؛ ولو أن صيرورة النشاط الدعائي تأثرت بشـــكل كبـــير بـــنزول الحلفاء بالسواحل المغربية في 8 نونبر 1942 ، وبتقلص خطر وتـــأثير الدعايـــة الألمانية التي بعد أن أخذت جيوش هيتلر تتقهقر وتتراجع جيوشـــها فـــي إفريقيـــا الشمالية أمام زحف قوات الحلفاء (9).

النخبة المغربية والدعاية الأجنبية بالمغرب

استعانت فرنسا في حملتها المضادة للدعايات الأجنبية علـــى شـــخصيات مغربية وبعض عناصر المخزن والنخبة المغربية. فقد جندتهم، في إطـــار برنـــامج إذاعي كان يقدم كل يوم خميس (10) للتعبير عن ضرورة تضـــامن المغاربـــة مـــع فرنسا في حربها ضد دول المحور، ولإبراز محاسن ومزايـــا الوجـــود الفرنســـي بالمغرب أو على الأقل للتأكيد على ضرورة التزام المغاربة بالعهد أو الميثاق الـــذي يشدهم إلى فرنسا البلد الحامي. وإذا كان بعض الوزراء قد شاركوا في هذه الحملـــة المؤيدة لفرنسا، فإن ذلك انسجم مع موقف السلطان سيدي محمد بن يوســـف الـــذي أعلن الحرب رسميا على ألمانيا في 3 شتنبر 1939 ، واختار التضامن مـــع فرنســـا في حربها ضد دول المحـــور، ومناهضـــة " الحركـــات العنصريـــة المضطـــهدة للشعوب"(11). كما انسجم أيضا، مع موقف الحزب الوطني الذي فضل ، بعد القمـــع والاضطهاد اللـــذين عانت منه الحركة الوطنية برمتها، على يد الجـــنرال نوكَيـــس سنة 1937، تأييد موقف السلطان والتعبير عن تضامنه مع الإقامـــة العامـــة ممثلـــة فرنسا بالمغرب.

وقد شكل هذا الأمر عنصرا إيجابيا بالنسبة لإدارة الشؤون السياســـية التـــي أُلقيت عليها مسؤولية تتبع حركات وسكنات المغاربة. فإذا كانت هذه الإدارة تتتبـــع بقلق وحذر شديدين نشاط الاستخبارات الألمانية بالمغرب(12)، فإنها وجدت فـــي مواقف النخبة المغربية المتضامنة معها، خصوصا في فترة ما قبـــل يونيـــو 1940 ما جعلها تشعر ببعض الاطمئنان. وتدعم هذا الشعور أو الإحســـاس فـــي نفـــوس مسؤولي هذه الإدارة لاعتقادهم أولا، بأن انضمام تركيـــا ، " القـــوة الإســـلامية

الكبرى التي اشتهرت بواقعيتها، للحلفاء ، عزز الشعور بالارتياح لدى النخب المغربية التي زادت اقتناعا، في نظر الفرنسيين، بضرورة الثقة في الحلفاء و في مزايا التضامن مع الاستعمار الفرنسي (13)، ولاقتناعهم ثانيا، بضعف تأثير الدعاية الألمانية على المغاربة . فهؤلاء، في نظرهم، كانوا متشبثين بدينهم وثقافتهم الإسلامية ومحصنين ضد " الآراء الإلحادية والوثنية الجديدة " الألمانية و الروسية (14). وتأكيدا على هذا المعطى، أشارت بعض التقارير الفرنسية إلى أن أحد الأعيان المغاربة والوطنيين البارزين بالرباط ذكر في أحد المجالس ، أن النازية تناقض الإسلام وتعد من أشد أنواع الاستعمار خطورة. وفضل عليها الاستعمار الفرنسي الذي كان في رأيه أكثر نعومة وأقل فظاظة . ولم ير في تأييد المغاربة لفرنسا تعبيرا عن الولاء للدولة الحامية فحسب، بل أيضا نضالا من أجل الحرية والنزعة الإنسانية اللتين تتمثلان في الديموقراطيات الغربية (15).

لكن هذه الرؤية لا ينبغي البتة أن تدفعنا إلى الاعتقاد بأن النخبة المغربية كانت موحدة الرأي فيما يتعلق بمسألة التضامن مع فرنسا أثناء الحرب(16). ويتجلى ذلك بشكل واضح في أوساط الوطنيين الذين التزم بعضهم الصمت أو مالوا، كما فعلت الحركة القومية ، إلى أسلوب التحفظ والحذر (17). ولم يقف الأمر بالنسبة للبعض عند هذا الحد، ففي مراكش مثلا، كان السجن والاعتقال مصير العناصر التي فضلت التعبير عن رفضها لفكرة " التضامن "(18). وتدعم هذا الاتجاه بفكرة سرت بين الناس ، وهي فكرة الاعتماد على ألمانيا لضرب فرنسا. فسياسة "الحماية الهوجاء " ، التي أثارت امتعاض الوطنيين وأججت مشاعر الحقد ضد فرنسا تسببت في تعاطفهم مع " أعداء الغاصب "(19)، وخصوصا مع الألمان الذين اكتسبوا ونالوا ، لقوتهم وسياستهم المعادية لليهود، عطف وإعجاب شرائح واسعة في المجتمعات العربية(20).

وقد وجد هذا الخيار صداه، بشكل جلي، في المنطقة الشمالية الخاضعة لاسبانيا. فبعد الاتصالات التي جرت مع الوطنيين ، وخصوصا مع عبد الخالق

الطريس ، وبعد الوعود التي قدمت لهم من أجل تلبية مطالبـــهم، اســتعمل هــؤلاء "راديو شبيلية " و " جريدة الريف "(الطريـــس) و " الوحـــدة المغربيـــة " (المكـــي الناصري) لشن حملة واسعة ضد النظام الاستعماري الفرنسي بالمغرب والمطالبـة بإطلاق سراح الوطنيين المعتقلين وتطبيق خطة الإصلاحات المغربية والتعبير عــن الاستعداد للدفاع عن حرية المغرب وبرنامج الحركة الوطنية.

ولم يشكل الاعتماد على الحركة الوطنية بالشمال إلا عنصرا مـــن عنـاصر الخطة التي هيأتها اسانيا لضرب الفرنسيين بالمغرب. فالدعاية الاســـبانية نشــطت حتى داخل المنطقة الخاضعة " للحماية " الفرنسية. بل إن بعض المغاربـــة أنفســـهم ساهموا في ذلك وجعلوا من أنفسهم أدوات في أيدي النظام الفرنكوي . فقــد أوردت بعض التقارير الفرنسية أخبارا غير مؤكدة تفيد بأن دعايةً لصالح اســـبانيا وصــل تأثيرها إلى مدينة سلا، كانت تتهيأ وتنتظم على يد تجـــار أو شـــخصيات تنتمـــي لمنطقة الغرب بناحية سوق أربعاء الغرب(21).

ولا يجب من جهتنا ، أن نبالغ في الحديث عن تأثير وخطورة هذه الدعايـــات المناوئة لفرنسا وبريطانيا. فرغم حرص إسبانيا ودول المحورعلى تقويـــة وســـائل الدعاية المضادة للفرنسيين ونشر مجال امتدادها، فإنها لم تعمل على تعزيز حملاتها الإعلامية والدعائية بإجراءات فعلية ومبادرات عملية تساعد على تقوية الحركـــات الوطنية في المغرب العربي. فألمانيا مثلا، لم تحاول أبدا تجـــاوز مجـــال الحـــرب السيكولوجية، ورفضت منذ البداية الحرب، مساندة هذه الحركات بالسلاح أو المـــال. فهي لم تكن تسعى إلا لكسب ثقة سكان المنطقـــة وزعزعـــة ثقتـــهم فـــي الحلفـــاء وإضعاف المواقع الفرنسية و فشلت نتيجة ذلك، رغم كـــل الجـــهود التـــي بذلتـــها و"الأكاذيب " التي لجأت إليها، في إثارة الاضطرابات خطيرة بالمنطقة(22). وذلـــك لا يعني عدم انتفاء العلاقة بين امتداد الحركات الوطنية بالمغرب الكبيروالدعايـــات المضادة للفرنسيين ، وخصوصا الدعاية الجرمانية الواسعة والقوية. فهذه الأخـــيرة حسبما أشار إليه بعض الباحثين، ساهمت، وبشكل خاص بعد انهزام الفرنسيين فـــي

يونيو 1940، في خلق بعض الدينامية في العمل الوطني المناهض للاستعمار الفرنسي(23). فقد كان للدعاية الجرمانية أثرها في نفوس المغاربة. ونستدل على ذلك بما أوردته بعض التقارير الفرنسية من معلومات عن نشاط الوطنيين. فالتحريات التي أجرتها السلطات الفرنسية بمدينتي الدار البيضاء وسطات لم تكشف عن وجود تطور أو نمو في نشاط " العناصر الإصلاحية "(والمقصود بهم الوطنيين) ، لكن الأخبار التي حصلت عليها الاستخبارات الفرنسية من "إحدى الشخصيات المغربية الواسعة الاطلاع " جعلتهم يعتقدون بأن "عش الثعابين الحقيقي" لم يعد موجودا بفاس وإنما انتقل إلى الرباط ، وخصوصا إلى سلا التي نشأت بها بناء على ما ألحت عليها التقارير الفرنسية، إحدى الخلايا المتميزة بنشاطها الكبير وبميلها للألمان. وقد بلغ هذا الميل درجة جعلت البعض يُقبل على تعلم اللغة الألمانية(24).

ولم تكن فكرة الاستقلال غائبة عن الأذهان في تلك الفترة. ففي الوقت الذي راجت فكرة تتعلق بإمكانية حصول المستعمرات الانجليزية على الاستقلال ، في نهاية سنة 1939، أكد بعض الوطنيين على ضرورة تهيئ دفتر للمطالب من أجل تقديمه للسلطات الفرنسية عند الضرورة(25). وأشار علال الفاسي ، من جهته، إلى أن لجنة الهدنة التي قدمت إلى المغرب بعد انهزام فرنسا في يونيو 1940، لم تجد "في الأوساط الوطنية أدنى صدى لدعايتها "، إذ أخذت تنتشر في تلك الأوساط، منذ ذلك الوقت، " فكرة الاستعداد للقيام بحركة جديدة "(26). وبموازاة ذلك، شرع قادة الحزب الوطني ، مباشرة بعد انهزام الفرنسيين أمام الألمان، في إعادة تنظيم حزبهم بفاس وإعداد برنامج عملهم .وانشغلوا بمسألة جمع الأموال لدعم عمل الحزب. وانتخب، في هذا الإطار، أحمد مكوار أمينا على مالية الحزب. ونظرا لوعيهم واقتناعهم بضرورة القيام بعمل جاد يمكنهم من تفعيل نشاطهم ومضاعفة قدرتهم على الضغط على الفرنسيين، فقد توجهوا إلى الأسواق بالبادية ، تحت ذريعة المتاجرة، لممارسة الدعاية للحزب(27).ودعما لهذه الفكرة أكد علال الفاسي ما يلي:

"منذ سنة 1940، أخذ تيار عام يجري وسط الحزبيين كما يسمونهم، ويذكرهم بما قامت به فرنسا من فظائع، وكيف أنها لم تتأثر بالظروف ولا اتعظت بالأحداث ولا راعت الدماء المغربية التي تسيل في صفوفها، واتجهت الأنظار إلى ضرورة الخروج من نظام الحماية والبحث عن وسائل التحرر والانعتاق "(28). وكانت كل هذه الأمور تجري في ظرف انشغل فيه المغاربة قاطبة بتتبع أخبار الحرب. ولذلك، فإن تأثيرها شمل كل الفئات ولو أن رد فعل الوطنيين والنخبة اختلف بعض الشيء عن ردود فعل الفئات الشعبية والبسيطة التي ظلت ملتصقة في نظرتها للاستعمار، بهموم حياتها اليومية.

رد الفعل على المستوى الشعبي

كان المغاربة يتتبعون أخبار أوربا والسياسة الدولية. وتزايد اهتمامهم بتتبع أخبارها بعد قيام الحرب العالمية الثانية واشتداد حرب الدعايات التي حمي وطيسها بين الأطراف المتنازعة. و لم تكن الفئات الشعبية تعرف شيئا عن فلسفة هيتلر العنصرية ونواياه التوسعية؛ كما أنها لم تكن تأبه بالتحليلات السياسية. لكنها كانت شديدة الاهتمام بالوقائع والأحداث وبأخبار الانتصارات والانهزامات. فقد كان الناس يتداولون فيما بينهم أخبار "راديو برلين" والمعلومات المتعلقة بانتصارات جيوش دول المحور، بانبهار شديد أحيانا . وتدعم هذا الانبهار بمشاعر الحقد التي خالجت صدورهم ضد الفرنسيين .

وكان هؤلاء، من جهتهم، منشغلين برصد حركات المغاربة بالمدن والبوادي المغربية، لكنهم كانوا، استنادا إلى ما ورد في تقاريرهم، يشعرون بارتياح كبير لـ "الهدوء" الظاهر الذي ساد مختلف أرجاء البلاد. فقد ألحت هذه التقارير على أن الفلاح المهتم بتتبع أطوار الحرب انشغل بشكل أكبر بأسباب معيشته اليومية. وحرصت على تسجيل وتثبيت كل المناسبات التي عبر فيها المغاربة عن تضامنهم مع الفرنسيين . وتدخل في هذا الإطار، عمليات الاكتتاب أو حملات التبرع بالأموال لدعم المجهود الحربي وعمليات التجنيد أو انخراط المغاربة في الجندية

ومشاركتهم في الحرب. وعملت ، من جهة ثانية، على اختراق المجتمع بوسائلها الدعائية. ولم تكتف في هذا المجال بالوسائل المكتوبة أو السمعية، بل استعملت أيضا الأشرطة السينمائية التي كانت تعرضها القوافل السينمائية في الهواء الطلق . واستقبلت الفئات الشعبية تلك العروض المصورة التي كانت تقدم أخبار الحرب بمنظور فرنسي، بتلقائية وحماس كبيرين. واقتحمت الصورة بذلك، فضاءات تقليدية ومجالات لم تنخرط بشكل قوي في مسلسل التغييرات التي مست المدن الساحلية الكبرى. وكان الهدف من تكثيف الدعاية ووسائل الاتصال الجماهيري وتنويع أساليبها قولبة الأذهان والتأثير على المواقف و السلوكات(29). فخطة الإقناع عن طريق التواصل كانت ، في فترة الحرب العالمية الثانية ، بمثابة موضة تتبني على فكرة التحكم في الوسائط ووسائل الإعلام والتواصل للتمكن من التحكم في المجتمع لكن المجتمع المغربي ، مع ذلك، لم ينسق مع معطيات هذه الدعاية، انسياقا تاما يفقده قدرته على التمييز والانتباه. ويرجع ذلك ، أولا، لتشبته بخصوصية ثقافته وتقاليده الاجتماعية والدينية التي ميزته عن القوى الامبريالية الكبرى المتصارعة في الحرب ؛ وثانيا، لضعف تغلغل وسائل الاتصال والإعلام في المجتمع المغربي لأسباب تقنية ومادية . وذلك لا يقلل من أهمية انتشار الدعاية الأجنبية في الأوساط المغربية .وفي هذا السياق ذكر الأستاذ جامع بيضا أنه من الصعب الإجابة عن السؤال المتعلق بحجم المستمعين إلى الدعاية الألمانية الراديوفونية بالمغرب، لكنه علق على ذلك قائلا بأننا إذا " كنا نعرف أن عدد أجهزة الراديو بالمغرب لم يكن يتجاوز 4660 جهازا في أوائل أكتوبر 1938، فإنه لا شك أن لهذا الرقم المتواضع أثر مضخم في مجتمع ترسخت فيه التقاليد الشفوية. فالخبر في بادئ الأمر لا يمس إلا فئة قليلة من الناس التي تتولى تناوله في الأسواق والجوامع وغيرها، فتتوسع بذلك دائرة أصدائه.."(30).

وكان لذلك تأثيره على المغاربة في تلك الظروف التي اشتدت فيها معاناتهم وتواترت فيها الأحداث العسكرية والسياسية وتكاثر فيها الحملات الدعائية . وقد

أثر ذلك، بقوة على المخيلة و الذهنية الجماعية المشبعة بمعطيات الثقافة الشـــفوية. فالأخبار الحربية والسياسية امتزجت بالشائعات التي حملـــت بصمـــات المغاربـــة وأصبحت معطى يقابل، إن لم يكن يناقض أحيانا، الدعاية الفرنسية. وكمثال علـــى ذلك، الانفجار الـــذي وقـــع في ربيع سنة 1940، بســـفينة كانت راســـية بمرســـى الدار البيضاء . فهذا الانفجار أدى بشكل سريع إلى رواج أقاويل وإشاعات ،شـبيهة بالتي راجت بعد انفجار السفينة "بلوتون" Pluton قبل ذلك. فقد شاع بين المغاربـــة أنهما تعرضتا للقصف من طرف طائرات أو غواصات ألمانية(31). وفـــي الوقـــت الذي انشغل فيه الانجليز بمدينة الدار البيضاء ، ، بالدعاية لصالح الجنرال ديغـــول "ممثل فرنسا الحرة" ، في شـــهر شتنبر مـــن نفس السنة ، أخـــذت تروج إشـــاعات قـــوية عـــن قرب احتلال الألمان والإيطاليين لإفريقيا الشمالية(32). وفـــي مدينـــة الدار البيضاء دائما، رأى المغاربة في العرض العسكري الذي نظم بمناسبة عـودة بعض الفرق العسكرية إلى "إفريقيا الغربية الفرنسية" ، في شهر فبراير 1941، دليـلا على قرب انسحاب الفرنسيين من المغرب. فالجيش الفرنسي، وفق ما شـــاع بيـــن الناس وقتئذ، كان يستعد لحمل أعلامه حتى لا يستولي عليها الألمان. وأثـــار خـــبر هذه الإشاعة التي راجت بالمدينة غضب السلطات الإقليمية الفرنسية التي طلبت من مدير الشؤون السياسية إصدار تكذيب ب"راديو-المغـــرب" يفنـــد هـــذه الإشـــاعة المغرضة التي كانت وراءها، حسبما أشارت إليه ، الدعاية الألمانية في الغالب(33).

ولم تكن الإشاعات العنصر الوحيد الذي عبر من خلاله المغربي العادي أو البســـيط عن رؤيته للأمور في ظل الحرب. فالأغنية أيضا كانت وسيلة استغلها للتعبير عـــن مشاعره وآلامه. وكانت المصالح الفرنسية المتتبعة لحركـــات وســـكنات المغاربـــة تسجل بقلق، كل الأغاني أو الكلمات التي تلمس فيها تناقضا مع مضمون دعايتـــها وأعمالها بالمغرب. ومن جملة ما سجلته مصالحها بناحية الأطلس المتوسط (مركـــز قصبة تادلا) في شهر مارس من سنة 1940 أغنية أمازيغية أنشدها أحـــد المغنيـــن المتجولين في أراضي آيت خويا احمد المنتمين ل" آيت عبدي " ب(ناحية) كوســـير

Coucer. والمثير للانتباه هو أن صاحب هذه الأغنية ، " التافهة " حسب قول الفرنسيين، اعتقل وسُجِن لمدة ستة أشهر؛ فهي كانت ترمز ، في نظرها ، إلى "حالة ذهنية" أو عقلية جديرة بأن تُرصد عن كثب وتراقب عن قرب(34). ولم يكتف واضعو بمركز قصبة تادلا بتقديم هذه المعلومات ، بل إنهم أرفقوها وعززوها بورقة ملحقة تضمنت كلمات المغني المتجول أو المقطع الذي أثار قلقهم. واستعملوا في نقلهم لذلك النص الأمازيغي الحروف الفرنسية. ونقدم فيا يلي مضمونه:

Ad-inser rebbi wadèh d-idan a-dig jawi sa irden i-sa

ونقدم، من جهتنا، ترجمةً للترجمة التي وضعوها للمقطع الأمازيغي. وهو كما يلي:

" لينصر الله ذلك الذي يأتي من أجل أن يتمكن الجار من سلب قمح جاره ".

وفي ناحية بني ملال ارتأت السلطات الإقليمية ضرورة أن تبلّغ إلى الإدارة المركزية مضمون أغنية كان الناس "يتنغمون" بها في تلك النواحي(35). وتقول الأغنية:

الكَيرا لهبيلا دّات القبيلة *

ما حسيتو حتى تشرجيتو **

كّولوا لْمّي كْليتي الجبري***

ما تشوفي قبري*

بغيتي ميتين*

هذا العام تجيك كيتين *

إن الدعاية الفرنسية كانت تحاول أن تبرز تحمس المغاربة للالتحاق بالجيش لمحاربة الألمان، وتعبّر عن رغبة الفرنسيين في ضمان استمرار تأييد المغاربة لهم في محنتهم ،خصوصا بعد سقوط باريس في براثين الاحتلال النازي في يونيو 1940. لكن هذه الأغنية تظهر زيف هذه الدعاية. فهي تظهر لنا الوجه الآخر المتمثل في المعاناة من القهر والبؤس والعسف . وتعبّر عن انفعالات ومشاعر الناس الذين اضطروا لإرسال أبنائهم للحرب ، لمواجهة مصير مجهول

محفوف بالمخاطر، لأسباب ارتبطت بضغط الظروف الاقتصادية القاسية أو الإكـراه الذي كان يمارس عليهم من طرف القواد و الباشوات، ممثلو السلطة الاستعمارية.
وهذه الأحاسيس والمشاعر ازدادت حدة بعد انهزام فرنسا في الحرب ضد الألمـــان. فالهزيمة كانت ضربة قاسية بالنسبة للاستعمار الفرنسي بالمغرب. وهذا ما نلمســـه من هذه الأغنية التي انتشرت في دائرة الشاوية الجنوبية ، في صيف نفس الســـنة. ومضمنها ما يلي:

العسكر بقى مكركس
مع فرنسيس المفلس
بحرا تكلمت الكورا
والفرنسيس كبض الطريق و مشى

وهي أغنية تتحدث عن اندحار الجيش الفرنسي وجبـــن الفرنســـيين الـــذي انسحبوا (من ساحة المعركة؟) بمجرد ما انطلقت أصوات المدافع(36). لم تعبر هـــذه الأغنية وحدها عن مثل هذه الأحاسيس . فقد ورد في تقرير رئيس دائرة الشـــاوية الجنوبية، مثلا، أن أطفالا ب" سطات " رسموا على فوق الطريق المعبـــدة صـــور جنود ألمانيين وانجليز ورسوم دبابات وطائرات . وكتبوا أســـفل الرســـوم عبـــارة "تحيى فرنسا " وإلى جانبها كلمة بالعربية تحمل معنـــى honteuse . وقـــد يكـــون المقصود ، بشكل عام: " تحيى فرنسا الملطخة بالخزي (خزي أو عـــار الهزيمـــة)؟ ويسير في نفس الاتجاه ما أوردته نفس الوثيقة من معلومات تفيد بأن النـــاس فـــي سوق الحد المنعقد في قبيلة أولاد زيان يوم 21 يوليوز لم يكونوا يقبلـــون التعـــامل بورقة خمسة فرنكات فرنسية. وذلك لأن الإشاعات المتعلقة بتدخـــل الألمـــان فـــي شؤون الوطنيين المغاربة وصلت أيضا إلى سطات والـــدار البيضـــاء (37). وفـــي الوقت الذي توالت فيه الأخبار عن تزايد انتشار دعاية دول المحور فـــي منـــاطق المغرب الداخلية، انتشرت ، في مواقع ومراكز مختلفة، "حكايـــات وأغـــاني تنـــذر بقرب انتصار الألمان وحلول الفرج والازدهار". هـــذا مـــا لمســـته الاســـتخبارات

الفرنسية ، وسجلته تقاريرها، بشكل واضح عند حدود ناحية وادي زم، في بعض مراكز الدير ، وخصوصا ب " بني ملال "، حيث كانت تنعقد كل سنة مواسم هامة. ولمواجهة هذا الأمر طلبت السلطات الفرنسية من رؤ ء المركز تشديد المراقبة على " الشيخات " والفرق الموسيقية والمغنين ومنظمي اللعاب البهلوانية (38).

وهكذا، فقد كانت فترة الحرب العالمية الثانية فترة عصيبة بالنسبة للمغاربة الذين عانوا من ثقل الظروف الصعبة ومن ويلات الاستعمار والاستغلال . لكنها كانت أيضا فترة ازداد فيها انفتاح الوعي المغربي على المحيط الخارجي والبعد الدولي ومرحلة نشاط الدعايات المختلفة التي استعملت، بنوع من الحنكة والخبرة وسائل متطورة و تقنيات ترتكز على أسس ومناهج عقلانية. وانعكس ذلك على المغاربة، وخصوصا الفئات الشعبية والكادحة التي كانت تعيش حالة توتر وانفعال وترقب وانتظار؛ مما أدى إلى خلق مناخ ملائم لظهور أغاني شعبية وإشاعات وتمثلات تناقض أهداف ودعاية المستعمر وتعبر عما كان يختلج في صدورهم من انفعالات وتوترات وطموحات.

وإذا كانت الحركة الوطنية قد التزمت، بشكل عام، بمبدأ " التضامن " مع المستعمر الفرنسي بعد اندلاع الحرب. فإن الجو العام الذي ميز أطوار الحرب العالمية الثانية وسمح ببروز تلك الأشكال التعبيرية التي عبر المغاربة من خلالها عن آلامهم وطموحاتهم ، ساعدت على إيقاظ الهمم ومغازلة فكرة الاستقلال التي راودت نخبة من الوطنيين ، ابتداء من نهاية سنة 1939، قبل أن تنمو وتتضج لتتبلور في عريضة المطالبة بالاستقلال في 11 يناير 1944.

الهوامش:

(1) ـــ أنظر: جامع بيضا، المغرب والدعاية النازية، ص 9- 30

J. Baida, Perception de la période nazie au Maroc:quelques indices de l'impact de la propagande allemande sur l'état d'esprit des Marocains, in Marocains et Allemands: la perception de l'autre, Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Série colloques et séminaires n° 44,

pp. 13-19;ibid., Le Maroc et la propagande allemande , hespéris-Tamuda, volume 28, 1990, pp. 91-106; CH. R. Ageron, "contribution à l'étude de la propagande au Maghreb pendant la deuxième guerre mondiale", Revue d'histoire Maghrébine, n° 7-8, janvier 1977, pp. 16-32; ibid., les populations du Maghreb face à la propagande allemande, Revue d'histoire de la 2ème guerre mondiale, XXIX, n° 114, 1979, pp. 1-39...

(2) ــ كانت عناصر الجالية الإيطالية، المقيمة بمدينة خريبكة مثلا، عرضـــة للقلـــق والانفعـــال المتزايدين .أما المجموعة الشيوعية الاسبانية الموجودة بالدار البيضـــــاء ، البـــالغ عددهـــا 600 عضو، فقد كانت تقوم، حسب ما ورد في التقارير الفرنسية،" بنشاط مثير للاستفزاز" Direction des affaires politiques(Section politique), Bulletin d'informations, 22 septembre 1939, p. 1-2, (Bulletins d'informations, Bibliothèque générale, Rabat)

(3) ــ Bulletin d'informations, juin 1938, p. 2.

(4) ــ أنظر فيما يتعلق بوسائل ومراكز الدعايـــة النازيـــة J. Baida, Perception de la période nazie au Maroc... وأيضا مقاله السابق الذكر" المغرب والدعاية النازية".

(5) ــ Direction des affaires politiques(Section politique), Bulletin d'informations, . n° 115, le 22-09- 1939, (Bulletins d'informations, Bibliothèque générale, Rabat).

(6) ــ Bulletin de renseignements (Région de Rabat), n° 76, Rabat 4 octobre 1939,(Bulletins de renseignements, Bibliothèque générale, Rabat).

(7) ــ عبد الهادي بوطالب، ذكريات ، شهادات ووجوه، الجزء الثاني،الشركة السعودية للأبحاث والنشر، 1993، ص 23.

(8) ــ علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، عبد الســـلام جســـوس، طنجـــة، د.ت.، ص 231 .

(9) ــ وتأسيسا على ذلك، أصبحت الدعاية التي كانت تقوم بها ذات طابع دفاعي ، فـــي الوقـــت الذي لم يعد بمقدور الألمان أن يقدموا شيئا للوطنيين .أنظر: CH. R. Ageron, "contribution à l'étude de la propagande au Maghreb pendant la deuxième guerre mondiale", p. 21.

(10) ــ عبد الهادي بوطالب، م س، ص 23-24.

(11) ــ علال الفاسي، م س، ص 229.

(12) ــ ذكر "شارل روبير أجيرون " أن الاستخبارات الفرنسية بالغت، في تقاريرها، في التـــأكيد على خطورة الدعاية الألمانية. م س، ص 17- 18.

(13) ـ أفادت بعض التقاري الفرنسية أن المفاوضات الروسية التركيـــة أثــارت قلــق النخبــة المغربية. لكن فشل هذه المفاوضات وتوقيع الاتفاق بين الفرنسيين و الانجليز والترك مباشرة بعــد ذلك وبدء المحادثات العسكرية بين الجنرال "فيكان" Weigand القائد العام للقــوات الانجليزيــة بالمشرق والقيادة التركية كان لها صدى قويا في نفوس هذه النخبة التي استحوذ عليــها الشــعور بالارتياح لانضمــــام تركيـــا للحلفـــاء. Direction des affaires politiques(Section politique), Bulletin d'informations, n° 144, 21 oct. 1939, (Bulletins d'informations, Bibliothèque générale, Rabat).

(14) ـ Direction des affaires politiques(Section politique), Bulletin d'informations., n° 124, oct. 1939, (Bulletins d'informations, Bibliothèque générale, Rabat).

(15) ـ Bulletin de renseignements, (Région de Rabat), 5 octobre 1940, Bulletins de renseignements, Bibliothèque générale, Rabat).

(16) ـ عبد الهادي بوطالب، م س، ج 2، ص30- 31.

(17) ـ ن م، ص29.

(18) ـ ن م، ص28-29.

(19) ـ م ن، ص31.

(20) ـ CH. R. Ageron, "contribution à l'étude de la propagande au Maghreb ...pp 16-17; J.Baida, Le Maroc et la propagande allemande , p. 91. ذكر جامع بيضا أن "ألمانيا كانت تتمتع إبان الثلاثينيات برصيد من التعاطف في المغرب .ويرجــع عهده إلى العقد الأول من القرن العشرين، عندما أخذت نخبة من الكتاب المغاربة تبدي تعاطفـــها مع "الدولة الغليومية"..وتعزز هذا الرصيد أثناء الحرب العالمية الأولى عندما كانت ألمانيا تحارب في نفس صف العثمانيين.."("المغرب والدعاية النازية، ص9).

(21) ـ Direction des affaires politiques(Section politique), Bulletin d'informations n° 210, le 26 sept. 1940 (Bulletin d'informations, Bibliothèque générale, Rabat)

(22) CH. R. Ageron, "contribution à l'étude de la propagande au Maghreb, pp. 18,21,31.

(23) ـ م ن ، ص32.

(24) ـ أنظر : عبد الهادي بوطالب، م س، ج2، ص 32.

(25) ـ Bulletin de renseignements, (Région de Rabat), n° 133, Rabat le 4 - 12 - 1939, (Bulletins de renseignements, Bibliothèque générale, Rabat).

(26) ـ علال الفاسي، م س ، ص231.

(27) – Direction des affaires politiques(Section politique), Bulletin d'informations, le 23 août 1940

(28) – علال الفاسي، م س، ص 230.

(29) – J.Baida, le Maroc et la propagande ..., p. 105

(30) – جامع بيضا، المغرب والدعاية النازية ، ص13.

(31) – Bulletin de renseignements, (Région de Casablanca), n° 24, Casablanca le 5avril 1940, (Bulletins de renseignements, Bibliothèque générale, Rabat).

(32) – Bulletin de renseignements, (Région de Casablanca),n° 64, Casablanca le 17septembre 1940

(33) – Bulletin de renseignements du 14 février 1941

(34) – Bulletin de renseignements, signé par le Colonel Hurel, chef du territoire de l'Atlas central (Bureau regional), Kasba- Tadla , le 30 mars 1940, 2p(Bulletin de renseignements de l'Atlas central, Bibliothèque générale, Rabat).

(35) – Bulletin de renseignements,, région de Casablanca, Casa le 5 avril 1940, n° 24

* – أي إن الحرب المجنونة ذهبت بالقبيلة (إلى الأسوأ)

** – لم تحسوا بخطورتها حتى فات الأوان وامتلأ الكأس

*** – قولوا لأمي بأنها أكلت الجبر أي بذور القمح التي كان الباشا يقدمها للفلاحين تعبيرا عـــن التضامن الأخوي في فترة الحرب

⊖ – لن تري قبري

∞ – أردت مائتين (أي أن أمه أرادت أن تقبض المبلغ الذي يدفع للمجندين بعد التحاقهم بالجندية. وفي النص الذي كتب بالفرنسية سجل رقم 1000 فرنك فرنسي

∞ – تجيك كيتين تعني حرفيا تصيبك مصيبتان وهذا يعني ـــأن أمه طمعت في المبلغ الذي يدفـــع لمن يجند في الحرب فرزئت في ابنها

(36) – Bulletin de renseignements, Région de Casablanca, Casablanca, le 23 juillet 1940, B.R. n° 56, 2 p.

(37) – م ن.

(38) – Bulletin de renseignements, n° 28 A, Casabanca, le 26 avril 1941

أسئلة الكتابة عن تاريخ الحركة الوطنية

عبد اللطيف حسني *

لقد بات الوقت سانحا ، لطرح مسألة الكتابة عن تاريخ الحركة الوطنية المغربية في إطار فكر تاريخي ، نقدي ، فكر متقدم ، غير مرتبط بالواقعية الظرفية ، ملم بشروطها مشكك في بداهاتها ، ضمن هذا السياق ، سنمثل لما ننوي القيام به بنموذجين للكتابة عن هذا التاريخ ، الأول يمثله المرحوم علال الفاسي والثاني يمثله عبد الله إبراهيم بديهي أن اختيار هذين النموذجين ، تقف من ورائه اعتبارات متعددة ، لعل أكثرها وجاهة ، القواسم المشتركة التي تجمع بين هذين المفكرين ففضلا عن كونهما ساهما بشكل أساسي في معركة الوطنية المغربية وكتابتهما من هذا الموقع عنها ، فإن تكوينهما المعرفي يبدو متشابها إلى حد ما ، إذ

* أستاذ باحث بكلية الحقوق المحمدية

تلقى عبد الله إبراهيم تكوينه الأساسي بمدرسة ابن يوسف بمراكش في الوقت الذي تلقى فيه علال الفاسي نفس التكوين بجامع القرويين الأمر الذي متعهما بثقافة تقليدية متينة ، لم تحل دون انفتاحهما معا على الثقافات العصرية.

من هذه المواقع ، سيكتب كلا منهما عن الحركة التي انخرط فيها ، وستتمتع كتاباتهما بسيمات مشتركة ومنازع مختلفة .

هدفان متباينان ، يستهدفهما كل من علال الفاسي وعبد الله إبراهيم من وراء كتاباتهما عن تاريخ الحركة الوطنية المغربية .

فبالنسبة لعلال الفاسي ، تتدرج رؤاه للكتابة عن تاريخ الحركة الوطنية ، في إطار أعم وأشمل ، تستمد مقوماتها من النظرة الإسلامية للتاريخ، فالتاريخ من حيث هو عبرة. والتاريخ من حيث كونه حجة . يبدوان كهاجس محوري لدى مؤلف " الحركات الاستقلالية في المغرب العربي " ، يكتب "سي علال" في مقدمة كتابه هذا ، مستوحيا التاريخ في معنى العبرة قائلا :

" وقد توخيت في هذا العمل غايات قومية مفيدة ، أولاها أن أعرف الناشئة العربية عموما، والمغربية خصوصا بالأطوار التي مرت فيها حركة بلادنا. والمجهودات التي بذلها مؤسسو هذه الحركة ومعدوها، المتعاقبون ليكون لهم في ذلك عبرة طيبة وقدوة حسنة..."(1).

فالتأريخ للحركة الوطنية هنا، أو بصياغة أكثر تاريخية، بعث أخبار الماضي هنا ليس الهدف منه تسجيل للإنجاز المدهش قصد حفظ ذكر الماضي فقط بل إن رواية أخبار ووقائع الحركة الوطنية ، هي هنا بهدف استخلاص العبر المختفية خلفها وهذه النظرة للتاريخ لدى علال الفاسي، تبدو في أساس التصور الإسلامي لهذا الحقل المعرفي ، يبدو ذلك جليا في عناوين المؤلفات التاريخية الإسلامية. إذ تتمحور جلها حول مفاهيم " العبر" و" مرايا الزمان " ، ويبدو أن التاريخ في معناه هذا ، ليس نتيجة تأمل المسلمين في الحوادث، بقدر ما هو نتيجة الكيفية التي

بمقتضاها توجب على المسلمين النظر إلى التاريخ وفق النظرة التي جاء بها القــرآن والتي مفادها الاهتمام بما كان يعتبر تاريخا وقت نزوله : " قل سيروا فـــي الأرض وانظروا كيف كانت عاقبة المجرمين "، انطلاقا من هذه الرؤيـــة سـيتولى " ســي علال " استجلاء نواقص الحركة الوطنية المغربية في نهايات تأليفه إذ كتب في هــذا الشأن يقول : "... مواطن النقص ، أولها ما يرجع لتكوين النظرية وأعني بــه مــا يتعلق بخلق برنامج مفصل للنظام السياسي والاقتصادي الذي يجب أن يكون عليــه المغرب في وقت استقلاله ..."(2).

وإذ نصرف النظر عن هذا المعنى للتاريخ ، إلى معنى الحجة فإن ذلك يبــدو واضحا أكثر فأكثر لدى علال الفاسي الذي كتب يقول : "... أما الثالثة فهي إقامــة الحجة أمام الرأي العام الدولي ، على أن شعوب المغرب العربـــي لــم تقبــل أبــدا الاحتلال الأجنبي ... وهذا الصراع الذي يجليه للناس هــذا الكتــاب دون أن يكتــم بواعثه وعوامل تطوره أعظم حدة ، على أن مشكلات المغرب العربي ليس لـــها إلا حل واحد ، هو الحل المعقول العادل غياب عهد الاستعمار، وإشـــراق عصــر الاستقلال التام الكامل..."(3).

هذه النظرة للتاريخ هي كسابقتها ، نظرة ذات عمق إسلامي ، فالمتــأمل فــي كتب التاريخ الإسلامي الكبرى مــن " الطبري " إلى " ابن الأثير" لا يمـــكنه إلا أن يلحظ هذا المعنى ، إذ تنقسم هذه الكتب عموما إلـــى ثلاثـــة أقســام : الأول منـــها يتحدث عن الذي حدث قبل ظهور الإسلام ، ويمكن القول أن هـــذه الأحــداث قــد رويت بدافع تقديم المثل عما كانت عليه الشعوب المعنية بتلك الأحداث من ضلالـــة القسم الثاني ، وهو الأصل في التأليف يعنى أساسا بتاريخ الرســـول ، أمــا القســم الثالث ، فهو عبارة عن إضافات ، غير أنها لا تعدو كونها توضيح للقسم الثــاني(4) فالتاريخ المقترح علينا إذن من قبل علال الفاسي تاريخ ليس مجانيا ، تاريخ تمــتزج فيه معاني الحجة ، والعبرة .

لدى " عبد الله إبراهيم " ينعتق تاريخ الحركة الوطنية المغربية من أسر هذه الرؤية التقليدية للتاريخ ، ففي آخر مؤلفاته بهذا الشأن يكتب قائلا : " ... التقاطعات ، والتزيد وعمليات البتر والمغالطات ، تظافرت لجعل تاريخ النضال الوطني من أجل الحرية في المغرب تاريخا ممزقا ، مشوها ، وغير مفهوم ، إذ ليست له بداية معروفة ولا مطامح إنسانية مسلم بمشروعيتها ، ولا فضائل عليا معترف بها ، لتستطيع الذاكرة الجماعية أن تصهر الأحداث الوطنية عندئذ في الوعي العام ، وتوجهها مع بعضها ، وبالتالي أن تربط المغاربة مع أنفسهم باعتبارهم مسكونين جميعا في شروط مجتمعهم، بتجربة وطنية واحدة يتشاطرون فيما بينهم آثار إيجابياتها وسلبياتها في تفكيرهم ، وفي ظروف حياتهم وآفاقهم المستقبلية . إذ المجتمع الذي لا يستطيع أن يرتفع بمجموعه إلى مستوى القدرة الذاتية على أن يتمثل تجربته الوطنية المشتركة ، فيتموضع فيها ، وتنعكس أهدافها في حساسية أفراده وإدراكهم العام ـ لا يستطيع بالتالي أن يستفيد من تلك التجربة في تقييماته ورؤاه ـ "(5).

هنا نضع اليد عن إحدى الاشكالات الهامة في الكتابة التاريخية بصورة عامة والكتابة عن تاريخ الحركة الوطنية المغربية بصورة خاصة ، فبحسب ما ذهب إليه "عبد الله العروي" ، فإن ما يميز المجتمعات التاريخية وغير التاريخية ، ليس التاريخ باعتباره وقائع ، لأن هذه تحدث بدون انقطاع ، ولكن بوجود أو انعدام وعي تاريخي وهذا بدوره إنما يتعلق بذهنية العموم لا بإنتاج المؤرخين ، قد يوجد في البلد عدد كبير من هؤلاء ، يؤلفون كتبا كثيرة ، ولا يشاركون بشيء في رفع مستوى الوعي بتقلبات التاريخ إذ يفتقدون أنفسهم ذلك الوعي، هناك مجتمعات تعيش التاريخ عفويا ، تكتب عنه تلقائيا تعتقد أنه في المتناول ، قابل للفهم بدون وساطة ، يكتب المؤرخ في ذلك المجتمع بدون إشكال ، لأن فكر العموم المتحكم في جميع المباحث ، غير نقدي ..."(6).

وفــق هــذا المنظور ، تبدو الكتابة عن تاريخ الحركة الوطنية المغربية لدى "عبد الله إبراهيم" كتابة هادفة إلى رفع وعي العموم ، بتجربتهم الوطنية، وعي مـــن شأنه أن يؤهـــلهم لتمثلها بصورة أفضل ، بقصد نبذ نواقصـــها، وتبنـــي فضائلـــها الأمر الذي يجعلنا في مواجهة كتابـــة تنظيريـــة ، أكـــثر مـــن كونـــها مهوســـة بكرونولوجيا الوقائع.

لا ينبغي أن يغيب عن أذهانـــنا ، أنـــنا لسنا أمـــام مؤرخين محـــترفين فـــ"سي علال" و"عبد الله إبراهيم" هما قبل كونهما مؤرخين، رجلا سياسة، همومـــهما السياسية تطغى عن سائر الهموم الأخرى ، إن السياسي غالبا ما يجد فـــي التـــاريخ ملجأ دافئا ، خزانا هائلا للتجارب لا ينضب معينه ، إن التاريخ هـــو بنظـــر أحـــد المعنيين العلم الذي ينبغي عليك أن تستقي منه على الدوام، فلا تقرأه لتتعلـــم ســـرد القصص ، بل لتتعلم الحرب والأخلاق السياسية ، فنحن إذن أمام سياسيين يقـــرأون تاريخا معينا ، أو بالأحرى يتأملون تجربة انخرطوا فيها والسياسي فـــي قراءتـــه للتاريخ يبدو مسكونا ومهوسا بأسئلة الآن بقضايا راهنة ، ينتهي علال الفاسي إلـــى الإقرار بالفقر النظري للحركة الوطنية المغربية بمعنى افتقادها لبرنـــامج مدقـــق ومفصل لما ينبغي أن يكون عليه المغرب المستقل ، في الوقت عينه ينتـــهي "عبـــد الله إبراهيم " إلى التساؤل حول التعثر في شروطنا السياسية الراهنة والـــتردي فـــي أوضاعنا الاجتماعية باعتبارهما غرامة باهضة فـــي المغـــرب المســـتقل ، يرتفـــع التاريخ عند هـــذا الحد إلى التساؤل عن مكامن المسؤولية في هذه الاخفاقـــات..." أولا تقع المسؤولية الكبرى في هذا على القيادات السياسية لمراوغتها أو لقصورهـــا عن إدراك طبيعة الربط العضوي بين صدمة الاستعمار مـــن جهـــة ، وصدمـــة الغرب من جهة أخرى ، للعلاقة الجدلية القائمة حضاريا بين الاثنين ؟؟..."(7).

ينضاف إلى هذه الملاحظة ملاحظة أساسية أخرى، إذ لا يمكن أن نتناسى أن مؤلف " الحركات الاستقلالية ... وضع في سنة 1948 أي في ظل ظروف وشـــروط الحركة ذاتها بينما مؤلفات "عبد الله إبراهيم" وضعت في شروط وظـــروف مغـــايرة

فمؤلفات " صمود وسط الإعصار"و " ثورة تقدمية ذات طابع حضاري" و"نداء الحرية " هي مؤلفات تأخذ من زمن الأحداث مسافة معينة .

تأخذ الأحداث في مؤلف " الحركات الاستقلالية في المغرب العربي" طابعا كرونولوجيا ، تتتابع وتتوالى في الزمن ، بينما تحضر الوقائع والأحداث عينها في مؤلفات عبد الله إبراهيم ، ضمن قضايا أعم وأشمل ، فالرجلين معا ينظران للحركة الوطنية في سياقاتها التاريخية، فهي لم تنبعث من عدم بل تمتد عميقا في تاريخ المغرب ، من هذا المنطلق يخصص علال الفاسي الصفحات الأولى من تأليفه للحديث عن مجمل تاريخ المغرب، وفي نفس السياق ، يضع عبد الله إبراهيم مؤلفه "صمود وسط الإعصار" كمحاولة لتفسير تاريخ المغرب الكبير ، منذ 3000 سنة ممسكا بزمام المشاكل والقضايا الكبرى لهذا التاريخ ، يلتقي المؤلفين معا، ففي محاولتهما تحرير التاريخ الكبير للمغرب من أسر النظرة الاستعمارية الأمر الذي يسم كتاباتهما في هذا الشأن، بحس وطني لا يلغي ولا ينفي حسهما التاريخي يلتقي المؤلفين مرة أخرى ، في إحالة الحركة الوطنية في إرهاصاتها الأولى إلى أعمال المقاومة المسلحة التي عرفها المغرب مباشرة بعد عقد الحماية سنة 1912 ، كما يلتقيان أيضا في الدلالة التاريخية لسنة 1930 و1944 كمنعطفات حاسمة في تاريخ الحركة الوطنية ، تتردد نفس الأحداث ونفس الوقائع ، فيما بين السنتين سالفتي الذكر (ثورة الريف كتلة العمل الوطني ــ مطالب الشعب المغربي ــ الحركة الوطنية لتحقيق المطالب ــ الحزب الوطني ــ)، هذا الالتقاء ، لا ينفي وجود فراغات بيضاء في تاريخيهما ، تتجسد هذه الفراغات لدى عبد الله إبراهيم ، في تجاوزه للمعطى الفكري الثقافي ، المتمثل في الفكرة السلفية ، التي يوليها علال الفاسي أهمية قصوى في مؤلفه ، كما تتجسد هذه الفراغات لدى علال الفاسي ، في تأريخه لوقائع الحركة الوطنية التي عايشها ، إذ تغيب هذه الحركة أو تنعدم ، طيلة سنوات المنفى في الغابون ، أو بحكم التواجد في القاهرة .

إذا تجاوزنا نقاط الالتقاء هذه ، والفراغات البيضاء ، بكـل مـا تحملـه مـن دلالات نصل حتما إلى نقاط الاختلاف ، فالنظرة الكرنولوجيـة لتـاريخ الحركـة الوطنية لدى علال الفاسي تتحكم لا محالة في تحليله للأحداث ، بل قـد لا نكـون مبالغين إذا قلنا بأن الهم الأساسي لدى مؤلف الحركات الاستقلالية فـي المغـرب العربي" هم تأريخي محض استعراض أكبر ما يمكن من شواهد تـاريخ الحركـة الوطنية، وربطها بسنوات حدوثها بينما اقتضى التنظير والتأمل في تاريخ الحركـة الوطنية لدى عبد الله إبراهيم، تجاوز الأحداث والوقائع ، إلـى محاولـة الإمسـاك بالخطوط الموجهة لها ، ومن هذا المنظور اعتبرت الحركـة الوطنيـة المغربيـة حركة تاريخية ، حركة جاءت مستجيبة في الزمان والمكان لطموحـات ورغبـات مجتمع متطلع لحياة أفضل ، إنه أحد أسرار النجاحات المتوالية التي حققتها الحركـة ووجهت المغرب نحو الاستقلال ، يتقابل المغرب العميق ممثلا في جماهير البـوادي المغربية مع المغرب الجديد ممثلا في جماهير المدن ونخبها ، ويتواصلان ويلتقيـان عبر معبر الحركة الوطنية. مغرب البوادي حمال بنـادق ، ومغـرب المـدن ، أو بالأحرى نخب المدن مهوسة بالعمل السياسي ، فينتصر الشعار على البندقية ، وفـي ذلك أحد أسرار انطلاق الحركة الوطنية ، واستمراريتها . لم يكن ذلك ممكنـا فـي رأي عبد الله إبراهيم ، لولا الحس التاريخي للنخب الموجهـة لـهذه الحركـة ، أو بتعبير أدق لو لم تكن الحركة المعنية ، حركة تاريخية.

يتوارى عبد الله إبراهيم خلف الأحداث عند كتابته عن تاريخ الحركة الوطنيـة لا يحضر إلا بمقدار ما يقتضيه التعليل والتأويل ، منطلقا من فـهم معيـن للتـاريخ باعتباره من صنع البشر، لا من صنع الأشخاص. في الوقت الذي يكتب فيه عـلال الفاسي " الحركات الاستقلالية " ، من موقع ضمير المتكلم ، "...نظمت عـدة دروس شعبية ومحاضرات عامة في المدارس والمساجد والاجتماعـات الخاصـة ، كنـت أشرف عليها بنفسي وأشارك فيها بما أستطيعه من كتابة وإلقـاء . وهكـذا حصـل الحزب الوطني على فوز باهر ، وشعبية أخافت المستعمرين في كل جهات البـلاد "

"...ولقد فكرت في أن الحركة المغربية بعد أن بعثت الوعي القومي في نفوس الناس يجب أن تعمل بكل قواها للحصول على الاستقلال، وأن تصرف جهودها وتحصرها على هذا الاستقلال ..."

حين يحضر ضمير المتكلم لدى علال في تأريخه للحركة الوطنية المغربية نصبح في مواجهة إشكال حقيقي أيضا إذ يغيب التاريخ ، وتحضر المذكرات، لكن أليست المذكرات هي شكلا من أشكال كتابة التاريخ ؟ أو ليس الرصيد التاريخي المكتوب حتى الآن في الحركة الوطنية ، في أغلبه مشكل من مذكرات الوطنيين ؟.

الهوامش :

1 ـ علال الفاسي : الحركات الاستقلالية في المغرب العربي . طبعة تطوان بدون تاريخ . ص . أ ـ من المقدمة .

2 ـ الحركات الاستقلالية ....ص : 440 .

3 ـ الحركات الاستقلالية ... ص . ب .

4 ـ د. نيقولا زيادة : لماذا تعثرت كتابة تاريخنا على أيدينا ؟ مجلة الفكر العربي المعاصر. العدد 12 . ماي 1981 . ص.82-81

5 ـ عبد الله إبراهيم : نداء الحرية . ص:.8-7 الطبعة الأولى ، الدار البيضاء 1995.

6 ـ عبد الله العروي . تاريخ المغرب ،ج 1 . ص : 24. الطبعة الثانية ـ الدار البيضاء ـ 1992

7 ـ عبد الله إبراهيم : نداء الحرية. ص : 6.

من أسئلة المقاومة والاستقلال في الخمسينات

- المقاومة والاستقلال خلال النصف الأول من الخمسينات
- البحث عن المخاطب السياسي في مرحلة البحث عن حل الأزمة
- حكومة البكاي الأولى ومحاولة تقعيد الاستقلال

المقاومة والاستقلال بالمغرب
خلال النصف الأول من الخمسينات
مقدمات من أجل مقاربة سوسيولوجيـــة

عثمان أشقرا *

المداخلة التي نقترح المساهمة بها في هذه الندوة العلمية الهامـــة والكـــبرى هي محددة من حيث الموضوع، نقصد بذلك بالضبط المقاومـــة المســـلحة وأعمـــال الفداء في المغرب الجنوبي أي ذلك المستعمر من طرف فرنسا ، سوف لا أتكلم عن منطقة الشمال ليس لأنه لا علاقة لها بالموضوع ولكن في اعتقـــادي ذلـــك إطـــار آخر يحتاج إلى معطيات أخرى وربما إلى منهج في التحليل آخـــر. المداخلـــة إذن محددة من حيث الفترة الزمنية في النصف الأول من الخمسينات وبـــالضبط مـــن سنة 1951 إلى 1955 ، ومحددة ثالثا من حيث منهج المقاربة وهو ما سميته بمقاربـــة سوسيولوجية وهنا لابد من التوقف مليا : لماذا مقاربة سوسيولوجية ؟ و ما فائدة

* أستاذ باحث بالمدرسة العليا للأساتذة تطوان

القيام بهذه المقاربة السوسيولوجية لحادث ولواقعة أساسا تهم التاريخ. ففي اعتقـادي أن السوسيولوجي يمكن أن يتدخل في موضوع مثل هذا لا لينافس المؤرخ في عمله على مستوى تأريخ الأحداث والتدقيق فيها وتقديم كل الحيثيات المتعلقة بهذه الواقعة أو تلك وضبط المصادر المكتوبة والشفوية ، ولكن انطلاقا من هذا العمل الذي هـو عمل المؤرخ يمكن للسوسيولوجي أن يدلو بدلوه على مستوى مسألة الإطار العـام السوسيواقتصادي ، السوسيوثقافي ، السوسيوسياسي الذي أدى إلـى انبثـاق هـذه الوقائع، وخضوعها لمنطق معيـن وبالتـالي فالتـاريخ كمـا يقـال هـو مختـبر السوسيولوجيا على أساس أن السوسيولوجي لا يمكنه أن يمارس عمله بـدون حـد أدنى من تراكم أعمال تاريخية حول موضوع الاهتمام، وهذا ما أعتقد شخصيا أنـه قد تحقق نسبيا فيما يخص ظاهرة أو واقعة المقاومة المسلحة وأعمال الفـداء فـي المغرب الفرنسي ، إذن ماذا سيكون مضمون هذه المقاربة السوسـيولوجية التـي أقترحها، مضمونها سأحدده في طرح إشكالي أمحوره حول تساؤلين : تسـاؤل أول: ماذا بالضبط تمثل ظاهرة المقاومة المسلحة وأعمال الفداء فيما يخص تاريخ العمـل الوطني وتاريخ الحركة الوطنية ككل ؟ هل نحن إزاء نوع مـن الاسـتمرارية ؟ أم بالعكس نحن إزاء نوع من القطيعة ؟ وبالتالي يلزم التساؤل قطيعة إزاء مـاذا ؟ وقطيعة بالنسبة لمن ؟ التساؤل الثاني الذي يمكن أن يثير فضول السوسيولوجي فـي هذا الصدد ، هو ما آلت إليه المقاومة المسلحة في سـنة 1955 ومـا بعـد 1955 ؟ ماآلت إليه من تشتت ، من تبعثر، ما آلت إليه في عجزهـا الموضوعـي علـى أن تفرز ما يمكن أن يعتبر نوعا من المشروع التحريري الجذري والعميق لما كـانت تطمـح إليه وما كان في أساس انطلاقها . إذن التساؤلان المركزيان هما اللـذان ــ في حدود الوقت المسموح به ــ سينصب عليهما تحليلي ، ومن أجل أن يكـون هذا التحليل موضوعيا وخاضعا لقواعد البحث العلمي الدقيق والصرف لابـد مـن تقديم معطيات دقيقة والإتيان بوقائع موضوعية، ولا أعتقد أن الوقت سيسمح لـي بتقديم كل ما أعددته في هذا الصدد ، ولكن سأركز بطبيعة الحال على ما أعتـبره

جوهريا وأساسيا . وضعت سؤالين وسأكشف فورا ليس عن الجواب ولكــن عــن الأطروحة أو الفرضية التي أعتبر من خلال تعاملي مع الوقائع كمــا ســأعرضها بعد حين أنها تصلح كإطار لممارسة البحث في هذا الصدد، منذ الآن أقدم أطروحتي أو فرضيتي ثم أعود إلى تقديم الحيثيات والمعطيات التي يمكـــن أن تبنــى عليــها مصداقية هذه الفرضية . فبالنسبة إلي تمثل المقاومة المسلحة وأعمال الفداء امتـدادا ونتيجة لما آل إليه الوضع الاستعماري القائم بمغرب الحماية الفرنسية ، وفي نفـــس الوقت تمثل قفزة خارج دائرة العمل الوطني الحزبي بالشكل الذي كان عليه الأمـــر في مطلع الخمسينيات وعليه فهي واقعة / ظاهرة تجد تفسيرها أساسا فـــي احتـداد التناقضات الاستعمارية وبلوغها مرحلة ما يعبر عنـــه سوســيولوجيا " بالوضعيــة الاستعمارية " أكثر مما تجد تفسيرها في نضج معطيات العمـــل الوطنـــي الحزبـــي وبلوغه مرحلة إفراز المشروع الوطني العنفي المتطور. ومن هنا في تقديري، مـــن جهة ، وقوع سوء الفهم الأصلي بين قيادات العمل الوطنـــي السياســـي والحزبـــي والمبادرين إلى أعمال المقاومة والفداء، ومن جهة أخـــرى، مـــا يمكـــن اعتبـــاره الهشاشة النسبية للفكر والإيديولوجية التي قامت عليهما حركة المقاومة والفداء. هـذا حكم عام يحتاج إلى تفسير ويحتاج إلى تبريرات، والتبريرات يمكن تقديمها انطلاقـــا من تقديم نوعين من المعطيات، معطيات أوليـــة تتعلـــق بمـــا آل إليـــه الوضـــع الاستعماري والواقع الاستعماري في مغرب الخمسينيات فـــي المنطقـــة الخاضعـــة للحماية الفرنسية ، ثم ما وصلت إليه حالة الحركة الوطنيـــة الحزبيـــة فـــي نهايـــة الأربعينات ومطلع الخمسينات. فيما يخص النقطة الأولى أي ما آل إليـــه الوضـــع الاستعماري في نهاية الأربعينات ومطلع الخمسينات سوف أنطلق مما تمـــيز بـــه الاستعمار الفرنسي كخصائص. هذا الاستعمار تميز أساسا بأنه قام على نوع مـــن الاستيطان الاستعماري، وأنه أنشأ ما يمكن اعتباره نوعا من الجـــهاز الســلطوي العسكري الإداري أو مركب سياسي عسكري. فيما يخص نقطـــة أن الاســتعمار الفرنسي هو استيطاني فهذه حالة لم تعرفها تجارب استعمارية أخرى في منـــاطق

أخرى من العالم . بالنسبة للاستعمار الفرنسي في المغرب يمكن القول أن دخول فرنسا إلى المغرب لم يأت فقط بالجيش ووسائل القهر المادي ولكنه جاء أيضا بجالية سعت إلى الهيمنة والسيطرة على ما يمكن اعت'ره حيرات البلاد الممكنة والقائمة. فماذا كان حال هذه الجالية في نهاية الأربعينيات ومطلع الخمسينيات ؟ لحسن الحظ نتوفر على إحصاء رسمي عام أجري في المغرب سنة 1951 : في سنة 1951 : قدر عدد السكان غير المغاربة 357,38 منهم 321,858 فرنسيون أي نسبة 98 % والبقية من جنسيات أوربية أخرى . ومن جهة أخرى فـ 36% من هؤلاء السكان غير المغاربة ولدوا بالمغرب بمعنى أنه مضى جيل وجاء جيل آخر من المعمرين ولد بالمغرب ، وهذا شيء أساسي ومهم ستترتب عنه نتائج . كما أن 80% يعيشون بالمدن و9% بمراكز حضرية تتجاوز 2000 نسمة مقابل 11% فقط في البوادي هذا على المستوى الديمغرافي، أما على المستوى الاجتماعي فيمكن القول أن جزءا كبيرا من هذه الجالية كانت تقوم بعملية التأطير والاستغلال وكانت تستحوذ على ما يمكن اعتباره النسبة العليا في الدخل الوطني المغربي آنذاك، فخلال سنة 1952 بلغ الدخل الوطني 486 مليار فرنك نال منه المغاربة المسلمون فقط 320 مليار مقابل 136 مليار للأوربيين وهذه الإحصائيات دائما مأخوذة من الإحصاء العام الفرنسي الذي أشرت إليه . ما دلالة هذه الإحصائيات وهذه المعطيات؟. دلالتها سوسيولوجيا تتمثل في أنه في نهاية الأربعينات ومطلع الخمسينات حصل في المغرب ما يمكن اعتباره الوضعية الاستعمارية بامتياز وهذا مصطلح أو مفهوم أستعيره من الباحث الفرنسي المعروف جورج بلانديي . ففي سياق تطور الأوضاع الداخلية بالمغرب وهذا شيء لم يخطئ إدراكه لا السلطان ولا الوطنيون، طرح المقيم العام الجديد ، مخطط إصلاح جديد يمثل بدون جدال النتيجة السياسية والمنطقية والمآل الطبيعي لمسلسل التطور الاقتصادي والاجتماعي بالمغرب إبان الثلاثينات وما بعد أي التطور نحو قاعدة الوجود الاستعماري بالمغرب من نطاق الحكم المباشر بمقتضى الأمر الواقع إلى نطاق الحكم المباشر

بمقتضى الشرعية والمشاركة القانونية في السيادة ، فـــالمخطط الإصلاحـــي الـــذي طرحه الجنيرال جوان طرح تغييرات همت أساســـا حكومـــة المخـــزن ومجلـــس الشورى الحكومي، والمجالس البلدية ، وهذا ما سيشرع في تطبيقه بالنسبة لحكومـــة المخزن انطلاقا من 21 يونيو 1947 بمقتضى ظهير شريف صدر آنذاك. أما بالنســـبة لإصلاح مجلس شورى الحكومي والمجالس البلدية فالجدير بـــالذكر أن معارضـــة السلطان والوطنيين كانت أبرز وأقوى ــ من موقع الدفاع عن الســـيادة المغربيـــة ذلك أن مشروع مجلس شورى الحكومة طرح فكرة تكوين مجلس شـــوري مختلـــط نصفه من المغاربة ونصفه من الفرنسيين مع إعطاء الفرنسيين حق الانتخاب الحـــر المباشر، وإعطاء المغاربة حق الانتخاب على درجتين . أمـــا مشـــروع إصـــلاح المجالس البلدية فطرح منح المعمرين الفرنسيين بالمغرب حق التصويت لانتخـــاب ممثليهم في بلديات في تساو من حيث الأصوات وعدد الممثلين مع المغاربة وهـــذا يعني عمليا اكتساب المعمرين حق وممارسة الســـيادة المشـــتركة ، هـــذا التغيـــير الجذري والنوعي فيما يخص واقع الحماية أي بروز ما أسميته بالحالة الاســـتعمارية بامتياز وبروز ما يمكن اعتباره مشروع لهذه الجالية لأن تحكم وتسود ليس بمنطـــق استعماري ولكن بمنطق يمكن أن نقول سيتخذ نوعا من الغطاء القانوني وغطـــاء الشرعية، هذا ما انتبه إليه الوطنيون وانتبه إليه السلطان بالدرجة الأولى، الســـلطان من حيث هو المؤتمن وفق معاهدة 1912 ، على السيادة المغربيـــة كاملـــة وبـــدون منازع ، فيما يخص العنصر الثاني وهو الوضع الذي آلت إليـــه الحركـــة الوطنيـــة سأختصر الكثير بحكم أن المعطيات تعرفونها لأشير فقط إلى معطى واحد أعتـــبره أساسيا، وهو أنه بعد 1944 وواقعة تقديم وثيقة الاستقلال التي أصبحت مطلبا شـــعبيا وجماهيريا برز عنصران فيما يخص الوضع الخاص بالحركة الوطنية ، العنصـــر الأول تمثل في بروز نوع من البرجوازية المغربية التي منحتها ظـــروف الحـــرب نوعا من الانتعاش الاقتصادي المهم جدا ، ويتعلق الأمـــر هنـــا بالنســـبة لـــهذه البرجوازية المغربية بأفراد لا يتعدى عددهم بضع آلاف منحدريـــن أساســـا مـــن

عائلات تجارية فاسية استقروا خصوصا بمدينة الدار البيضاء التي تطورت إبان الحماية تطورا هائلا مراكمين أموالا ومكونين ثروات من جراء تملكهم لاحتياطات نقدية هامة استعملوها بطرق شتى ، فقد اشتروا البضائع والمجوهرات والأملاك القروية ، واشتروا الأراضي والفيلات وعمارات الإيجار بالأحياء الأوربية ، كما أنهم استثمروا الرساميل في الشركات التجارية بالاشتراك أحيانا مع الرأسماليين الفرنسيين والأمريكيين إنها إذن نوع من فئة التجار التقليديين التي انقلبت وتكيفت مع الظرفية الجديدة بدون أن يعني هذا أنها انخرطت تماما في سيرورة التحديث المفترضة، فمن جهة ، فمساهمتها الاستثمارية في الشركات الشريفية لم تتعد قط % 5 حيث أنه مع نهاية الاستعمار وجد فقط 12 صناعي مغربي في قطاعات هي قريبة على أية حال مما كان موجودا تقليديا أي مطاحن ونسيج ، ومن جهة أخرى ، وبالاستناد إلى بحث ميداني أجري لدى الأبناك وقتئذ من أجل معرفة مدى مساهمة الرأسماليين المغاربة في الاقتصاد القائم كانت الحصيلة هي التالي : هناك إجماع فيما يخص الجواب ، بأن هؤلاء الأخيرين هم فقط مجرد مساهمين وليست لهم أية ايداعات ولا يقومون بأية عمليات تنقلية لاأريد أن أسترسل في تقديم المعطيات وهي كثيرة، ولكن فقط أريد انطلاقا مما أشرت إليه الإشارة إلى أنه في هذه الفترة انتعشت وضعية فئة اجتماعية معينة وبرز طموحها لأن تتقدم أكثر فيما يخص منافسة الرأسمال الأجنبي . هذا ستكون له تأثيرات على الحركة الوطنية ككل لأنه في هذه الفترة يمكن القول أن الحركة الوطنية اشتد عودها ، وأحست بأنها يمكن أن تحلق بجناحيها أن يصير لها ليس البرنامج لأن مسألة البرنامج حسمت سنة 1934 ، ولكن أن يصير لها نوع من المشروع التاريخي التحديثي الحضاري الكبير . فبالإضافة إلى مطلب الاستقلال سنجد لأول مرة بروز ما يمكن اعتباره النواة المركزية والأساسية للمشروع الوطني التحديثي التنويري وأشير هنا إلى نموذجين فقط : النموذج الأول معروف وهو كتاب النقد الذاتي الذي جاء في إطار ما أشار إليه أحد الزملاء سابقا من

انتقاد الأستاذ علال الفاسي للحركة الوطنية بأنها لم تكن تمتلـــك هــذا المشـــروع كتاب النقد الذاتي معروف ، ولكن هناك كتاب آخر غير معروف ولا يقل أهمية فـــي نظري من الناحية التاريخية عن كتاب النقد الذاتي وإن كان لا يساويه مـــن حيـــث القيمة المعرفية ومن حيث عمق التحليل ودقة الأفكار، وهو كتـــاب "باقـــة نظـــرة" للتهامي الوزاني الذي نشره آنذاك في جريدة الريف ابتداء من 1947 نشـــره علـــى شكل حلقات وعلى شكل مقالات ، نفس الشيء كان يعمله المرحوم علال الفاســـي في مجلة أخرى. إذن في هذه الفترة الحركة الوطنية كانت بصدد إحـــداث نـــوع من الطفرة والتحول النوعي في بنيتها الاجتماعية وفي أفقها النظري العام ، ولكـــن أحداث ووقائع معينة جاءت لتجهض هذا المسلسل في بداية الخمسينات لنجد أنفســـنا من جهة إزاء واقع استعماري تقوى وأصبح يطمح إلى أكثر مما لديـــه، وحركـــة وطنية رفرفت وقتا ما بجناحين ولكن سرعان ما وجدت نفسها محبطـــة . عنصـــر آخر ينبغي الإشارة إليه ، وهو عنصر مهم جدا. وهو بروز فئات اجتماعيـــة هـــي عبارة عن الفلاحين الذين هاجروا من البادية إلى المدن وبالتالي كونوا مـــا يمكـــن اعتباره نوعا من البروليتاريا التي ستسكن في ضواحي المدن ، فـــي هـــذه الفـــترة سيبرز مشكل الأحياء القصديرية والأحياء الهامشية وابن مسيك واحد منـــها، وفـــي هذه الفترة سيقوم روبير مونتاني وهو استعماري فرنسي ، ســـيقوم بتوصيـــة مـــن الإقامة العامة بإنجاز أول عمل وأهم عمل حول ميلاد الطبقـــة العاملـــة بـــالمغرب والنتائج التي سيتوصل إليها أن هذا التنامي الكبير لهذه الفئات الهامشية ولهذه الفئـــات الفلاحية المبلترة من شأنه أن يشكل خطرا على المجتمع القائم لماذا ؟ لأنـــه مجـــال لتفريغ العنف والعنف المضاد. الحركة الوطنية لأسباب موضوعية وأســـباب ذاتيـــة عجزت عن أن تستوعب هذه الجماهير كلها، سندخل في الخمسينات لنجـــد أنفســـنا أمام هذه الوضعية المتفجرة من جهة الجالية الأوربية بالشكل الذي حاولت وصفـــه والإقامة العامة بالشكل الذي حاولت الإشارة إليه، وهـــي أنـــها أصبحـــت تطمـــح وتتحدى أحيانا السلطة المركزية وسلطة الميتروبول في فرنسا، ومن جهـــة أخـــرى

حركة وطنية بمختلف أجنحتها وأحزابها وقعت في نوع من الإحباط ، ومن جهة أخرى جماهير عمالية جماهير الفلاحين المهجرين من البادية هذه كلها عناصر اجتمعت ليبدو أن فتيل العنف هو على وشك أن يشتعل، ومن هنا سأصل إلى الخلاصة سوف تنطلق حركة المقاومة وأعمال الفداء باعتبارها ليست عملا يمكن القول أنه كان منظرا له وكان مبرمجا وكان يدخل في سياق تطورنوعي وموضوعي للحركة الوطنية ، ليست حركة وطنية انتقلت من عمل سياسي معين إلى عمل عنفي معين ، لم تكن هناك استراتيجية ولا منظور في هذا الإطار، وإنما حركة مقاومة وأعمال الفداء سوف تتفجر من تلقاء نفسها على أساس أنها تشكل نوعا من الامتداد لما سبق ونوعا من القطيعة في نفس الوقت له، لماذا ؟ لأنه إذا رجعت إلى بعض الوقائع سأجد مثلا بأن فتيل المقاومة الذي لم يبدأ في 1953 بحيث يمكننا الرجوع إلى 1947 إلى 1951 ، مثلا في 1951 هناك ما أشار إليه الزملاء صباحا ، من العمليات التي قام بها البطل الحنصالي، هناك مجموعة أحمد البقال بمراكش وقد تحدث عنها بتفصيل الأستاذ الحبيب الفرقاني في كتابه " الثورة الخامسة " ، هناك شهادات كثيرة لدي نصوصها تشير إلى أن أعمال المقاومة انطلقت ليس بتوجيه حزبي ولكنها انطلقت على أية حال في سياق معين،(مثلا أشير هنا إلى ما كتبه العرايشي في كتابه المعروف انطلاقة حركة المقاومة بالمغرب أنه كان هناك صراع وتنافس وتناقض داخل حزب الاستقلال بالخصوص لماذا ؟ لأنه كانت هناك لجنة تسمى لجنة " التزيين " تأسست أساسا من أجل إعداد حفلات عيد العرش الذي كان رمزا وطنيا كبيرا جدا وهذه اللجنة كبرت وصارت في نظر القيادة السياسية آنذاك مصدر حيطة وحذر، ثم كانت هناك لجنة "الجنوب" التي كانت مهتمة أساسا بما يمكن اعتباره تقديم يد المساندة والمساعدة للمعتقلين السياسيين ولضحايا القمع ، هذه اللجنة نفسها كبرت وكبر حجمها وتحولت إلى مصدر قلق لبعض القيادات السياسية.

إذن حاولت ما أمكن في هذه العجالة أن أقدم ما اعتبره الإطار الموضوعـــي السوسيواقتصادي، والسوسيوثقافي ، السوسيوسياسي، لبروز مـــا ســميته بظـــاهرة المقاومة وأعمال الفداء في المدن بالأساس، إذن هذه الظاهرة أو هذه الحركة ولـــدت وهي تحمل في ذاتها بذور ضعفها إذ بقدر ما أنها كانت قوية في بطولاتـــها وفـــي تضحياتها فهي كانت ضعيفة وهشة فيما يخص الإطار الذي كانت تتحـــرك ضمنـــه لهذا لا غرابة أن تحل سنة 1955 ويعود محمد الخامس رحمه الله إلى أرض الوطـــن وبهذا تحقق مطلب مهم جدا وأساسي من المطالب التي رفعتها حركة المقاومة هـذه. ولكن أتساءل أين هـــو المشروع التاريخي ؟ أيـــن هي الدولة الوطنية التي كـــانت ــ يمكن القول ــ في أساس عمل الحركة الوطنيـــة ككـــل ؟ بعـــد 1955 ســـيدخل المغرب في مسلسل آخر وتكفي الإشارة فقط إلى أنـــه بعـــد 1955 تبيـــن أن ثمـــن المقاومة رأسمال الفداء كان غاليا جدا ولكن المحصول والنتيجة لـــم يكونـــا فـــي مستوى البطولات ومستوى التضحيات .

البحث عن المخاطب السياسي في مرحلة البحث عن حل الأزمة

محمد العربي المساري *

تقريبا سأبني على الأرضية التي بينها الأستاذ أشقرا الذي قـــام بتشـــخيص الأزمة ووصف لنا المشهد كما كان في الخمسينات. وسأتحدث مـــن جـــانبي عـــن الآليات السياسية التي تحركت وأحدثت التفاعل في ذلك المشهد.

نفي محمد الخامس ففتح سلسل جديد ووقع تفاعل فيما بين أطـــراف المشـــهد الذي سمعنا وصفه منذ قليل . وكل نزاع لابد أن ينتهي بحسم تبعا لميزان القـــوى. وفي الحالة التي نحن بصددها كـــانت المبـــادرة فـــي لحظـــة أولـــى بيـــد الإدارة الاستعمارية. وحينما وجدت أنها وقعت في مأزق أخـــذت تبحـــث عـــن مخـــاطب. وحينذاك اشتغلت آليات معقدة للبحث عن مخرج.

يجب القول إن الأزمة التي أدت إلى نفي محمد الخامس هي نتيجـــة تعـــارض إرادتين. الـــجانب الفرنسي كلن يريد فرض الاتحاد الفرنسي وسياسة الاستيطان

* أستاذ باحث من الرباط . سياسي وصحافي سفير ووزير سابق

والجانب المغربي كان على العكس يطمح إلى الاستقلال واستعادة الدولة الوطنية. في هذا السياق كان محمد الخامس يرفض التوقيع على ظهائر كانت تسير في اتجاه السياسة الفرنسية وكذلك كانت المذكرات التي كان يوجهها إلى باريس للمطالبة بمراجعة الحماية. ولمواجهة ذلك كانت سياسة جوان الذي وصل به الأمر إلى التهديد بالعزل إذا لم يلب محمد الخامس بعض المطالب ومنها التخلص من حزب الاستقلال. ونتيجة تعارض الموقفين حدثت سلسلة من الأحداث كان أهمها أحداث ديسمبر 1952 التي اغتنمتها الإدارة للتخلص من حزب الاستقلال. وبعد ذلك جاء 20 غشت 1953.

حينما فتح ذلك الفصل الجديد من الأزمة بدأت مواجهة المشروع الاستعماري بأسلوب آخر. كان محمد الخامس في المنفى بكورسيكا ثم بمدغشقر مبعدا بآلاف الكيلومترات مما جعله في حالة استحالة للقيام بأي مجهود مباشر. وانتقلت المبادرة إلى مجال آخر استدعت القيام بأعمال في الداخل كما في الخارج. ومعلوم أن تدبير الأمور أصبح بيد قادة العمل الوطني. فبعد ثلث ساعة من النفي كان " نداء القاهرة " الذي كان منعطفا كما نجد في " التحدي ".

نشأ حينئذ منطق جديد في التعامل بين الجانب الفرنسي وبين الحركة الوطنية بكل فصائلها. في الجانب الفرنسي كانت هناك باريس وكانت هناك الرباط. في باريس كانت الحكومة تتصرف نظريا في ملف المغرب عن طريق الخارجية. وليس معنى هذا أن وزير الخارجية هو الذي يرسم السياسة المتبعة في منطقة الحماية. إن هذه السياسة كانت هي المعدل الذي تتفق عليه الحكومات التي كانت تفرزها الجمهورية الرابعة وهي حكومات ائتلافية أحيانا من وسط يمين وأحيانا من وسط يسار . وكان هناك دائما اضطراب في السياسات الفرنسية بسبب الصراعات التي كانت تنشب بين مكونات الحكومة. وكان وزير الخارجية يتصرف أحيانا وفق قناعاته الشخصية. وفي حكومة جوزيف لانييل كان وزير الخارجية جورج بيدو مقتنعا بأن الوسيلة الوحيدة لفرض الاتحاد الفرنسي والاستيطان هي التخلص من

محمد الخامس ومن الحركة الوطنية. واعتقد الفرنسيون أنه بعـد ضربـة ديسـمبر 1952 وحظر حزب الاستقلال قد أمكنهم التخلص من الجسـم الرئيسـي للحركـة الوطنية باعتقال القيادات كلها وبتصفية الجهاز وإسكات الصحافة. وبعـد التخلـص من محمد الخامس صفا لهم الجو وانتهى الغموض .

وإذا كان هـذا هو تصور الحكومة في باريس ففي الرباط كان هناك جـهاز الإقامة العامة وإلى جانبه قوة ضغط كبيرة يمثلها المعمرون وأصحاب المصـالح. إلا أن الفرنسيين في المغرب لـم يكونوا على شاكلة واحدة. كان هناك العاملون فـي اتجاه سياسة القوة كـما كان هناك من يعمل من أجل التعايش والحـوار. فكـانت هناك الكنيسة التي كانت تطالب بسياسة رحيمة وكـان هنـاك ليـبراليون ينـادون بالتفاهم مع الوطنيين.

ومع هؤلاء وأولئك كان هناك المتعاونون من المغاربة مثـل جـهاز القـواد والباشوات الذي كان ضالعا مع الإدارة وكان ألعوبة في يد الاستعمار.

إزاء هذا الوضع كانت هناك خطة جاهزة. وكل شيء يدل ، حسب ما أصبـح بأيدينا من وثائق ، على أن الأمور لم تكن تتطور بكيفية عشوائية أو نتيجة مـزاج هذا القائد أو ذاك وبالأحرى ثمرة عمل فردي. إن الأمور كانت تسير نتيجة تطـور أفرزته تراكمات عديدة تواصلت منذ سنة 1930 حتى الخمسينات. كـانت الحركـة الوطنية قد أصبحت قوة. كان لها صيتها وحضورها المتعدد الأشكال فـي الحيـاة الوطنية . وكان جهازها مؤهلا للعمل . وهكذا لم تنتظر نداء القاهرة لكي تتحـرك . فإن النفي والنداء كانا الإشارة المتفق عليها والمقررة في اجتماع المجلس الأعلـى لحزب الاستقلال حيث أبلغ الفقيه غازي قرار القيادة بأن تبدأ خلايا العمـل المسـلح بمجرد المس بمحمد الخامس. كانت سياسة القوة واضحة المعالم منذ جوان. وإذا لـم يتمكن هو من تطبيق كل بنودها تولى غيوم تنفيذ العزل الذي كان منتظرا من قبـل. وهكذا كانت الخواطر جاهزة للانتقال إلى مرحلة القوة. أي أن الأمور التي سـنراها فيما بعد لم تكن عشوائية ولكن وفق ترتيب مبيت ولهذا سنرى أن هنـاك تسلسـلا

منطقيا في الأحداث. وحينما أفرج عن اللجنة التنفيذية للحزب في عهد لاكوسط في 1954 فإنها تولت ضبط التطورات التالية وفق ما كان مرتبا وهو ما عبر عنه "نداء القاهرة " بأن السلاح لن يلقى إلا إذا تحقق غرضان هما عودة محمد الخامس إلى عرشه وتحقيق الاستقلال الوطني .

ولابد أن نشير هنا إلى العمل الذي قامت به الحركة الوطنية في الخارج وخاصة بباريس وفي القاهرة وفي نيويورك حيث كان لابد من تأليب الرأي العام الدولي ضد سياسة القوة التي طبقها الفرنسيون في المغرب. وسنرى من نتائج العمل في نيويورك بروز تحالف عربي آفرو – آسيوي حول القضية المغربية. وحدث تصعيد في الحملة على فرنسا إلى درجة طرح القضية المغربية، وبالذات قضية عزل محمد الخامس، على مجلس الأمن وهو أمر لا يحدث إلا بشأن ملفات تكون طرفا فيها حكومات مستقلة .

وكانت حكومة فرنسا تجد نفسها ضعيفة إزاء الحملة الشاملة التي كانت تواجهها في نيويورك والقاهرة. وفي باريس نفسها تمكن الوطنيون من تأليب الرأي العام السياسي ضد سياسة القوة. وتحرك البرلمان وبعث إلى المغرب فيما بين سبتمبر 1953 ومايو 1954 ثلاث بعثات للاستطلاع. إذ كان لنفي محمد الخام وقع كبير في السياسة الفرنسية. وتمكن الوطنيون من تكوين لوبي قوي قادته لجنة فرنسا / المغرب برئاسة الكاتب الكاثوليكي فرانسوا مورياك . كما استطاع الوطنيون اكتساب شرائح متنوعة من الوسط السياسي الفرنسي من اليمين الليبرالي في MRP إلى الحزب الاشتراكي. وكان الحزب الشيوعي يعارض سياسة القوة في المغرب من منطلقات أممية ولكنه لم يستوعب ما كانت تمثله قضية العرش بالنسبة للمغاربة وبسبب صعوبات في المفاهيم لم يقو قادة الحزب الشيوعي الفرنسي على أن يؤيدو بكيفية واضحة قضية عودة الملك إلى العرش ولم يفعلوا ذلك إلا في آخر لحظة .

ونجح الوطنيون في أن يوظفوا جيدا الخطاب المعتدل لسياسيين مغاربة مـــن معسكر محمد الخامس مثل المرحوم البكاي. وكانت تلك إضافــــة مهمــة لعنــاصر الحملة التي تمت في باريس. وأدى كل ذلك إلى إحداث اضطـــراب فـــي الســاحة الفرنسية وأخذ الفاعلون السياسيون في البحث عن مخرج للأزمة. وفي هذا الخضــم وقع تحرك مهم في الداخل بالرباط والدار البيضاء تصدرتــــه جماعـــة الفرنســيين الأحرار. فعلى إثر مقال في ماروك بريس للكومندان ســـارتو فـــي وقــت مبكــر (سبتمبر 1953) وقعت ردود فعل سريعة وحماسية للتنديد بالنفي كعمل شنيع وبسياسـة القوة كخطأ يجب الإقلاع عنه. وعبر عن هذا الموقف أساتذة ومحـــامون ورجــال أعمال. وتألف تيار سمي بمجموعة ال 75 على إثر توجيـــه رســالة إلـــى رئيــس الجمهورية الفرنسية في فبراير 1954 وكانت نداء حارا من أجل مراجعـــة سياســة القوة والبحث عن حلول مع المغاربة.

جاءت النتائج الأولى في شكل تنحية كيوم رجل الأزمة وتعييــن ديبلوماســي في مكانه هو فرانسيس لاكوسط. وأتي هذا بمقاربة جديدة قوامــــها تطعيــم الإدارة بالمعتدلين والتخلي شيئا فشيئا عن سياسة القوة بإطلاق الحريات ورفع الأجور لكــن مع الأسبقية للأمن بتصفية الإرهاب. ولكن الإصلاحات التي جاء بها لاكوســط لــم تعمر طويلا، وإن كانت قد أسفرت عن نتيجة سيكون لها ما بعدها وهي الإفـــراج عن اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال التي كانت في السجن منذ ديسمبر 1952.

وعلى الفور انتقل العمل إلى باريس حيث تولى ع.ب. بوعبيد مكتب الحـــزب هناك وأخذ يوطد القنوات التي كانت قائمة منذ أوائل الخمسينات بقصـــد مواصلـة الحوار مع الأوساط الفرنسية وجمع التأييد للمشروع الوطنـــي المغربـــي . وكـــانت الأفكار ناضجة للبحث عن مخرج بمفعول المبادرات المختلفة التي كانت قد مـــلأت الأجواء ومنها أعمال قام بها مغاربة لم يكن ممكنا رميهم بـــالتطرف مثـــل الســادة البكاي والفاطمي بن سليمان والقايد العيادي. كما كانت هنـــاك مجـــهودات حـــزب الشورى والاستقلال الذي وجه وفدا إلى باريس في ســـبتمبر 1954. وتوخـــت كـــل

الجهود تركيز الضغط على البرلمان والأحزاب والصحافة إلى أن ظهرت في غمار تكوين حكومة مانديس فرانس في يونيو 1954 معالم مترددة من جانب الفرنسيين للبحث عن مخرج. إذ أن م.فرانس انشغل بقضية الهند الصينية وأقدم على بعض الأفكار الواضحة فيما يخص تونس. أما بخصوص المغرب فإنه لم يكن قد أسفر عن تحرك حاسم. وفي أثناء المناقشة البرلمانية لبرنامج حكومته ظهر أن الرجل كان غير قادر بعد على معالجة الملف قبل إنهاء الملف التونسي . وعلى أي حال فإنه كان ضد عودة محمد الخامس إلى عرشه .

هذا هو الشيء الواضح الوحيد الذي ورد في خطاب التنصيب. ومع ذلك ظهرت في مجلة " ليكسبريس" مقالة للباشا البكاي. واعتبرت جريدة "الأمة" الصادرة بتطوان أنه نظرا لقرب المجلة الفرنسية المذكورة من الرئيس م.فرانس فإن المقالة ربما كان موعزا بها . إذ أن البكاي بعد أن دافع بقوة عن الصداقة المغربية الفرنسية والتبشير بالتصالح وبإعادة صياغة العلاقات بين البلدين دعا بوضوح إلى معالجة قضية العرش ولو بالتدريج. وتصورت " الأمة " أن هذه الأفكار التدريجية ربما تجد قبولا من لدن م.فرانس. وذكرت " الأمة " بأن فكرة التدريج مرفوضة وأن شعار الشعب المغربي يتلخص في مطلبين العودة والاستقلال .

لكن كان هناك إدراك لكون المسألة تتطلب تمهيدا. وفي غمرة التطورات السريعة التي اكتنفت المسألة المغربية وقع حادث كان له أكبر الأثر في فرنسا. ذلك أن المعمرين الفرنسيين كانوا قد تجمعوا في هيئة سموها " الوجود الفرنسي" دخلوا في مرحلة جديدة لمواجهة الاتجاه إلى الانفراج فشكلوا ميليشيات مسلحة وجهت عدة ضربات ومن ذلك اغتيال رجل أعمال فرنسي ليبيرالي كان يعمل من أجل الوفاق هو لوميغر دو بروي. وإزاء هؤلاء كان هناك تنظيم آخر لفرنسيي المغرب هو " الضمير الفرنسي " الذي كان يبشر بالتصالح ويعمل على مد الجسور وتسهيل العثور على مخرج.

وبعد اغتيال دوبروي ، وكان قد حدث في ظل حكومة إدغـــار فـــور ، فـــي صيف 1955، اتجهت الحكومة الفرنسية إلى إعطاء الأسبقية للملف المغربـــي. ولنـــا شهادات مباشرة تتحدث عن استدعاء إ.فور لبوعبيد إلى منزلـــه حيـــث اســـتقبله بمعية مساعده في مكتب باريس للحزب امحمد بوستة، وأســـر لـــهما بـــأن النخبـــة الفرنسية عازمة على مراجعة المسألة المغربية من أساســـها وأبلغـــهما أن الأمـــر يتطلب إعدادا وأنه لابد من إقناع المترددين من ذوي القرار بمصداقيـــة التصـــور الوطني لمستقبل العلاقات بين المغرب وفرنسا. وأدى الحوار إلى تكوين لجنة مـــن خمسة وزراء فرنسيين للاستماع إلى عدة أطراف مغربية قصـــد التعـــرف علـــى تصوراتها ومواقفها. وهذا ما يعرف بموائد الحوار في إيكس ليبان.

ويجب القول إن إيكس ليبان لم تكن في الحقيقة تفاوضا ولا مؤتمـــرا وإنمـــا كان لقاء بين لجنة وزارية فرنسية وبين مغاربـــة يمثلـــون مختلـــف الحساســـيات. وأحاطت بتلك اللقاءات هالة ضخمت صداها. ولكنها كانت دلالة واضحة علـــى أن الفرنسيين قد أدركوا خطأهم. وكانوا قد تلافوا دائما الاعـــتراف علانيـــة بالخطـــأ وحاولوا بكل أسلوب أن يدخلوا في تفاوض مع المعسكر الوطني وبحثوا بلا كلـــل عن معتدلين. وسنرى فيما بين أبريل 1954 ويونيو1955 مجموعة من الوفود تتوجـــه إلى باريس بقصد " التداول في قضية بن يوسف " . وسنرى الجانب الفرنسي يلمـــع بعض تلك الوفود أملا في تكوين "طرف ثالث"، كان يرجى أن يتألف من "المعتدلين" الذين يمكن أن يتألف منهم فريق مؤهل ليكون مخاطبا.

ولكن كان هناك شيء حاسم أحبط تلك المحاولة إلى حين وهـــو أن المقاومـــة المسلحة استهدفت بالذات العناصر المتعاونة مع الإدارة والمتذبذبين. وأورد ســـتيفان بيرنار في كتابه الجامع عن الأزمة المغربية أرقاما يجدر التذكير بها هنا. إذ كـــان هناك 761 قتيل مغربي ماتوا برصاص المقاومة في حين بلغ عدد الأوربييـــن 159. كما أنه كان هناك 1409 من الجرحى من بين من استهدفتهم المقاومة كلهم مغاربـــة وأما الأوربيون فكانوا 598. وهذه الأرقام تدلنا على وجـــود توجيـــه مبيت لقطـــع

الطريق على بروز قوة ثالثة ولتنبيه المغاربة بقوة إلى مغبة التعاون مع الخطط الفرنسية. فالمتعاونون كانوا معزولين وكان الكلاوي والكتاني ومن معهما من القواد والباشوات الذين وقعوا على عرائض مناوئة لمحمد الخامس كانوا معزولين والمخزن لم يكن له أي اعتبار، فوقع الرهان على المعتدلين .

ولأن الموقف كان يتحرك بمنطق موحد فإن عمل المقاومة ومواقف القيادة السياسية كان متكاملا . فبمناسبة توجه المرحوم الزغاري إلى باريس ضمن وفد وهو كما هو معروف من الموقعين على عريضة المطالبة بالاستقلال، صدر بيان لرئيس الحزب في القاهرة يقول إن السيد الزغاري لم يكن مخولا من لدن الحزب لإجراء أي محادثات. وجاء في بيان آخر لزعيم التحرير صدر في أكتوبر 1954 أن المخاطبين هم حصرا محمد الخامس والحركة الوطنية والعلماء. وقد أدرج العلماء على سبيل الاحتياط لأن الأطروحة التي قامت عليها مناهضة 20 غشت هي أنه لا يحق إلا للعلماء تنصيب ملوك المغرب. ووفق هذا أدرج العلماء ضمن لائحة المخاطبين .

وبعد أن فشل الفرنسيون في إيجاد مخاطب من صنع أيديهم لم يبق أمامهم سوى أن يتحدثوا مع المخاطب الحقيقي أي الحركة الوطنية ولكن مع تعويمها ضمن ما لا يعد من الشرائح التي قد تكون لها تمثيلية ما في الأفق المغربي. وقيل للوطنيين عندئذ صحيح أنكم أنتم الذين تحركون الأحداث وأنتم المعول عليكم في الحوار بشأن المستقبل والشؤون الاقتصادية ولكنكم لستم وحدكم في الميدان. وهذا في الواقع هو مصدر كل النقاش الذي لم ينته بعد حول أسلوب إيكس ليبان. فقد حضر موائد الحوار إذ ذاك إلى جانب الوطنيين علماء وقواد وباشوات وممثلو المخزن . وتبلورت هناك فكرة أسبقية مسألة العرش مع الاتجاه إلى صياغة جديدة للعلاقات المغربية الفرنسية. ولكن الحكومة الفرنسية كانت عاجزة عن أن تتقدم بحل آخر غير الحل التدريجي.

وتمخضت الاستشارات عن معالم حل يقوم على مجيىء محمد الخامس إلـى فرنسا وتكوين مجلس لحفظة العرش يتضمن ممثلا عن محمد الخامس وآخر عـن تيار الكلاوي وثالث عن المخزن. وكان معروفا أن تيار الكلاوي يقبـل أي شـيء وأن تيار المخزن على شاكلته. وكانت المشكلة تتمثل في أن يقبل الوطنيـون ذلـك الحل المطروح. وما سمعه الفرنسيون دائما هو أنه لا يقبل سـوى عـودة محمـد الخامس إلى عرشه .

واضطر الجانب الفرنسي إلى تعديل خططه فيما بعد تحت ضغـط الأحـداث التي حفل بها صيف وخريف 1955. فكانت المهمة التي قام بها الجنرال كاترو فـي أنتسير ابي بجزيرة مدغشقر وما تلاها من محاولات كانت ترمي إلى بيان مصداقيـة الحل المرحلي. وهناك مقال كتبه المحامي جورج إيزار عن محادثات مدغشقر جـاء فيه أن محمد الخامس أبلغ مخاطبيه رسميا بأنه يقبل الحل المرحلي مبدئيـا ولكـن يجب الرجوع إلى حزب الاستقلال.

جدت في أثناء ذلك تطورات منها تعيين مقيمين عامين في فترة قصيرة همـا غرانفال وبوايي دو لاتور. وكان ما كان من انفراط مجلس حفظة العرش، وانقـلاب الكلاوي حينما قرأ بوضوح تام مجريات الأحداث، وبدء عمليات جيش التحرير فـي تيزي أسلي وأكنول وبوريد، وشريط طويل أخاذ ليس هنا مكان استعراضه . وفـي كل التفاصيل المحيطة بذلك يبرز أن الأحداث اتخذت مسارا يدل على أنه كان هنـاك طرف يتحكم في المسلسل كله وفق منطق موحد هو الذي فرض نفسه فـي سـاعة الحسم. أي أن المخاطب كان هو الجانب الذي كان يحرك الأحداث.

وأختتم هذا العرض بلائحة طريفة تركها لنا جيلبير غرانفال في كتابه "مـهمتي في المغرب"« Ma Mission au Maroc » سبق لي أن استشهدت بها في فصول كتبتها عن الفترة التي نحن بصددها. وهي اللائحة التي تتضمن أسماء من كانوا مقـترحين لكي تختار منهم حكومة تتولى التفاوض بشأن مستقبل العلاقات المغربية الفرنسـية. وتنتمي الأسماء إلى تسع فئات . منهم أربعة قال إنهم تقليديون من قبيـل الكـلاوي

والكتاني والقواد والباشوات، ثم تقليديون من بعض رؤساء الغرف التجارية والفلاحية، ثم بعض الوطنيين الذين يعتبرهم معتدلين من قبيل الباشا عباس التازي ومولاي حفيظ ومحمد عمر الحجوي، ثم مستقلين عن الأحزاب مثل أبا حنيني ورشيد ملين والمحامي كديرة وعبد العزيز الفيلالي رئيس محكمة في الدار البيضاء وأخيرا ثلاثة من حزب الاستقلال وواحد من حزب الشورى وواحد من مسلمي طنجة ، وواحد من الطائفة اليهودية. ومن هؤلاء الأربعة عشر تتألف حكومة من تسعة أفراد .

وهذه اللائحة في الواقع تبين عن وجود قديم لنظرية التعددية المدبرة كأساس للخريطة السياسية في المغرب. وهي نظرية تقوم على منطق مرتبك. فحينما يتم تحريك الشارع (منذ 1930 حتى الكتلة الديموقراطية) يقال إن الحركة الوطنية هي المسؤولة. أما حينما يتعلق الأمر بخريطة سياسية فيقال إن الوطنيين ليسوا وحدهم في الميدان. وقد طبقت هذه النظرية من لدن إسبانيا وفرنسا معا. وكما قلت في بحث لي حول التجربة التي تمت في الشمال فإن الأمر هناك اجتاز ثلاثة أطوار. في طور أول وجدت إسبانيا أنه لامناص من التعامل مع الوطنيين ، وأنه خير أن يتحركوا وهم تحت النظر ويكون مضمونا ألا يخرجوا عن الطور . حدث هذا حتى آخر الثلاثينات. وحينما قامت حركة فرانكو ووجدت أمامها قوة منظمة ممثلة في الطريس عمدت إلى تشجيع قيام حزب مناوىء وهكذا ظهر حزب الشيخ المكي الناصري، ولما ظهر أن ضرب الحزبين الوطنيين أحدهما بالآخر لم يفد مخططات الإدارة إذ أن حزبي الوحدة والإصلاح ألفا فيما بينهما تحالفا وطنيا اتجهت الإدارة في مرحلة تالية إلى تكوين حزب إداري محض هو حزب المغرب الحر. أي أن إسبانيا هي التي ابتدعت فكرة التعددية المدبرة بقصد التحكم في الخريطة السياسية. وهي بدعة استعملها قوم آخرون من بعد ، وهذه قصة أخرى ولكن لها بعض الصلة بما كنا فيه .

حكومة البكاي الأولى
ومهمة تفعيل الاستقلال

محمد معروف الدفالي *

كانت الأعمال الفدائية للمقاومة الوطنية المسلحة، وانتقامات المقاومة المضادة التي تزعمها غلاة الاستعمار ضد مطامح الشعب المغربي، وأصوات عدد من الشخصيات الفرنسية من رجال الثقافة والسياسة والمال والأعمال، بفرنسا والمغرب، الداعية إلى تسوية الخلاف الفرنسي بصورة تضمن المحافظة على الصداقة الفرنسية المغربية، إلى جانب التصورات التي بدأت تتبلور في أفق مقاومة مسلحة واحدة ضد النفوذ الفرنسي بالشمال الإفريقي، وعدد من مشاكل فرنسا الداخلية والخارجية ... كلها عوامل فرضت على المسؤولين الفرنسيين منذ أواخر سنة 1954 نوعا من التفكير والتحرك في أفق حل ما للقضية المغربية. واتخذ هذا التحرك عدة مظاهر تراوحت بين جس نبض زعماء الحركة الوطنية السياسية التي

* - أستاذ باحث بكلية الآداب - عين الشق - الدار البيضاء.

أصبحت بكل مكوناتها تمثل تيارا معتدلا مقارنة مع حركة المقاومة المسلحة، وبين سلسلة تغيرات في منصب المقيم العام بحثا عن الرجل الصالح لمساعدة الحكومة الفرنسية على الوصول لأهدافها، وبين سلسلة من اللقاءات والمناقشات السرية والعلنية التي أفضت إلى اجتماعات "إيكس ليبان" وما تلاها.

اعتبر الفرنسيون لقاءات "إيكس لي بان" التي جمعت بين أطراف متناقضة "عملية سياسية" و"بداية حوار جاد وصادق"(1)، كما اعتبرها أحد فصائل الحركة الوطنية المشاركة، وهو حزب الاستقلال "بمثابة لقاء تمهيدي لتشييد مستقبل أفضل"(2). ويبدو من خلال المحاضر الرسمية لتلك الاجتماعات، أن الهدف منها لم يكن واضحا في البداية، بما فيه الكفاية، وأنها كانت أقرب إلى عملية جس نبض، واستئناس بمختلف الآراء للاستفادة منها فيما سيأتي من مخططات.

إن أي نقاش إيديولوجي حول مسألة قبول بعض فصائل الحركة الوطنية السياسية المشاركة في تلك اللقاءات، إلى جانب توجهات وتيارات لها رؤى مختلفة وأهداف مختلفة، يبدو مجانيا واستهلاكيا، ليس إلا، ذلك أن الأحزاب السياسية الوطنية نفسها أصبحت منذ أواخر سنة 1952 شبه عاطلة عن العمل، وبدأت تظهر شبه متجاوزة أمام ما حققته المقاومة المسلحة من قض لمضاجع الاحتلال، وأمام استقلال تلك المقاومة عن كل ما هو حزبي. وتبعا لذلك الواقع لا يمكن استبعاد أن تكون لقاءات إيكس لي بان، قد شكلت للأحزاب الوطنية فرصة، وجب الاستفادة منها لرد الاعتبار والعودة إلى الواجهة، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، قبل ضياع ما راكمته من مواقف نضالية بين سنوات 1930 – 1952 ... إن التقاء بعض مصالح فرنسا الراغبة في إيقاف حركة المقاومة المغربية المسلحة، والتخفيف من حالة العنف التي كان يعيشها المغرب، مع بعض مصالح الأحزاب الوطنية كما بينه الواقع أعلاه، لا يذهب إلى حد اتهام الأحزاب الوطنية بالتواطئ ضد حركة المقاومة المسلحة، بقدر ما يضع نصب العين مصلحة رجال السياسة، وتخوفهم من التهميش الممكن لحساب

حركة أخرى، هي المقاومة المسلحة ، التي صفقوا لنضالاتها، لكنهم ما لبثوا بين الفينة والأخرى يعتبرون تنكيل فرنسا بهم، وإيقاف الحوار والتعامل معهم أحد أسباب بروز تلك الحركة ... ومهما كان الأمر حول هذه المشاركة التي لا يمكن اعتبارها سوى طبيعية بالنظر للظروف التي أحاطت بها، نشير إلى أن جدول الأعمال الذي طغى على لقاءات "إيكس لي بان" تضمن ثلاث نقط رئيسية هي مسألة العرش، وتشكيل حكومة تمثيلية، وتحديد آفاق مستقبل العلاقات الفرنسية المغربية. وهي نقط كانت الاختلافات حولها، بين الأطراف المشاركة أفقية أحيانا، وعمودية أخرى، إلا أن النتائج المباشرة للنقاش والحوار، أفضت إلى نقل السلطان محمد بن يوسف من منفاه بمدغشقر إلى باريس أواخر أكتوبر 1955 ، وإشراكه في مشاورات نتج عنها توقيع تصريح مشترك بينه، وبين وزير خارجية فرنسا "انطوان بني Pinay" بقصر "سيل سان كلو" ، بتاريخ 6 نونبر 1955 ، كما نتجت عنها عودة السلطان إلى المغرب وإلى العرش عشرة أيام بعد ذلك، أي بتاريخ 16 نونبر.

لقد اعتبر السلطان محمد بن يوسف "تصريح لا سيل سان كلو " المشترك بمثابة اتفاق على المبادئ العليا بين المغرب وفرنسا(3) وبمثابة بث روح جديدة في العلاقة بين البلدين قوامها الحرية وحب التطور(4) واعتراف من حكومة جمهورية فرنسا للمغرب باسترجاع استقلاله(5) وبذلك صنفه أساسا للاستقلال. أما القوى الحزبية الوطنية ، فرغم تحفظ بعضها إزاء مرجعيات ذلك التصريح، وإزاء بعض مضامينه، فإنها عبرت عن ارتياحها لتوقيعه، واستقبلته تعهدا من قبل الحكومة الفرنسية لقيادة المغرب نحو نظام دولة مستقلة " في دائرة علاقات تبادل التبعية يتفاوض عليها وتحدد بكل حرية"(6).

إن الانطباع والشعور بالاستقلال، الذي خلفه تصريح "لاسيل سان كلو" وعودة السلطان إلى عرشه، لم يتجاوز مستوى المحسوس، حيث كانت معاهدة 30 مارس 1912 ما زالت متحكمة في طبيعة علاقة المغرب مع فرنسا. لهذا ومن أجل تحويل المحسوس إلى ملموس، وطبقا للاتفاقات الفرنسية المغربية تشكلت حكومة

مغربية تعددت نعوتها، كما تعددت مهامها التي كان من بينها التفاوض من أجل الاستقلال وتحويله إلى واقع.

تشكيل حكومة البكاي وبرنامجها:

عاد السلطان محمد بن يوسف من باريس إلى المغرب منوطا بعدة مهام، نصت عليها اتفاقات إيكس لي بان وانتسرابي وباريس، ولاسيل سان كلو، كان من بينها تشكيل حكومة مغربية : "تتمثل فيها جميع عناصر الرأي العام المغربي"(7) يكون من بين مهامها مفاوضة الفرنسيين حول موضوع إعادة النظر في معاهدة الحماية، وماهية علاقة الارتباط والأوفاق التي ستبنى عليها العلاقات المغربية الفرنسية الجديدة. لذلك ما لبث السلطان إثر عودته أن بدأ استشارات مع "ممثلي الرأي العام من مختلف الأوساط السياسية والنقابية"(8) وخصوصا منها الحزبين الوطنيين الرئيسيين: حزب الاستقلال، وحزب الشورى والاستقلال. ارتكز مضمون تلك الاستشارات حول الشخصية المقترحة لرآسة الحكومة، وجهاز الحكومة، والعناصر التي ينبغي أن تمثل في ذلك الجهاز، وعدد الوزارات، مع اقتراح برنامج للحكومة.

وتجدر الإشارة إلى أن الحكومة الفرنسية، كانت منذ لقاءات إيكس لي بان، متوفرة على تصور فيما يخص من يرأس الحكومة المغربية المتناقش حولها، ومن أبرز الأسماء التي كانت في تصورهم، اسم الفاطمي بن سليمان باشا فاس السابق، واسم مبارك البكاي، باشا صفرو السابق. ويبدو أن النقاش والحوار مع الفعاليات الوطنية المغربية، رجح كفة البكاي، لهذا اقترحه السلطان في استشاراته رئيسا لوزراء الحكومة المرتقبة.

لقد رأى حزب الاستقلال أن الواجب يقضي بإسناد مهمة رآسة وتشكيل الحكومة إلى أحد رجاله، كما رأى حزب الشورى والاستقلال أن المرشح الطبيعي للمهمة هو الأمين العام للحزب محمد بن الحسن الوزاني، نظرا لماضيه الوطني ودوره في تأسيس الحركة الوطنية(9). وبما إن اسم "البكاي" على ما يبدو كان متفق

عليه مسبقا، فإن الحزبان زكياه كتابة، ووعدا بتأييده ومساعدته على النجاح في مهمته. أما فيما يخص جهاز الحكومة، فمثلما كان مطمح حزب الاستقلال، رآسة الحكومة، كان مطمحه في تحمل مسؤوليتها والاستفراد بها، استنادا إلى نظرته لنفسه، وموضعة ذاته حزبا "يعبر عن إرادة الأغلبية الساحقة للشعب المغربي". وانطلاقا من هذه النظرة لم يقبل المساهمة في تشكيل حكومة ائتلافية إلا امتثالا لتصريح لاسيل سان كلو، ونداء الملك، كما اتبع "تنازله بالمطالبة لرجاله بنصف مقاعد الحكومة، ولم يقبل بتخفيض تلك النسبة إلى 45 % إلا على مضض، حيث اعتبرها نسبة دنيا لا تعبر عن الأهمية الحقيقية لمكانته في البلاد. كما يستحيل عليه المشاركة في الحكومة بفعالية في حالة تخفيضها إلى أقل منها. وعلى العكس من "ترجسية" حزب الاستقلال وتحفظاته، رأى حزب الشورى والاستقلال أن "الاتحاد الوطني هو وحده الكفيل بتنسيق الجهود بين المغاربة" مثلما أن نجاح "المفاوضات وتطورها لصالح الشعب المغربي" رهين "بالوئام وبالوحدة". ومن هذه الرؤية اقترح حكومة وطنية ائتلافية موزعة بين ثلاثة مكونات هي : حزب الشورى والاستقلال. وحزب الاستقلال، و"المستقلون الصالحون والقادرون على تحمل المسؤوليات"، بنسبة الثلث لكل منها. واعتبر الشوريون اقتراحهم نوعا من العدل التام، في انتظار تهيء الشروط لحكومة مقبلة مشكلة على أساس انتخابات حرة، هي وحدها الكفيلة بالكشف عن الأهمية الحقيقية لكل عنصر من العناصر. وإذا اختلفت رؤى الحزبين معا حول كيفية توزيع نسب المشاركة داخل الحكومة، فإنهما اتفقا في ضرورة إبعاد أعضاء المخزن المعزولون، وأعوان السلطة التنفيذية من باشوات وقواد وغيرهم عن هيكلها. وقدم كل منهما تصورا لهيكل الحكومة وعدد الوزارات بها، ومهام كل وزارة.

لقد حدد تصريح لاسيل سان كلو مهمة الحكومة المغربية المرتقبة في أن "تكون مهمتها الأولى إعداد مشروعات إصلاحية، تمهيدا لإنشاء دولة مغربية ديمقراطية، ذات نظام ملكي دستوري، وأن تتفاوض هذه الحكومة مع الحكومة

الفرنسية على رفع المغرب إلى مرتبة الدولة المستقلة، المتصلة مع فرنسا بروابط دائمة تحددها الدولتان بمطلق حريتهما"، والتزاما بهذا التصريح وزع الملك في أول خطاب للعرش بعد عودته مهام تلك الحكومة ثلاثا: مهمة تدبير شؤون البلاد، ومهمة وضع أنظمة ديمقراطية، ومهمة التفاوض مع الحكومة الفرنسية. وضمن موافقة حزب الشورى والاستقلال على مضمون خطاب العرش في 18 نونبر 1955، وافق على تلك المهام، وأضاف إليها اقتراح مهمة رابعة هي التفاوض مع الدول الأخرى، أما حزب الاستقلال فلم يعترف للحكومة المزمع تشكيلها سوى بمهمة واحدة، هي مهمة التفاوض مع فرنسا، إذ اعتبرها "المهمة الأساسية" والمهمة التي تبرر وجود تلك الحكومة. ومن هذا المنظور استمر في خطابه وأدبياته ينعتها بـ "حكومة التفاوض" أحيانا و"الحكومة الانتقالية" أحيانا أخرى، وهي نعوت لا تخفي مضمونها، وتبريرا لهذا الموقف اعتبر الاستقلاليون الحديث عن مهمة الحكومة في تسيير شؤون البلاد قبل القبض على زمام الحكم نوعا من مغالطة النفس. إلا ان انتباههم إلى أن الحكومة لا يمكن أن تبقى مكتوفة الأيدي طيلة مدة المفاوضات، التي يمكن أن تطول، وان مصالح البلاد لا يمكن أن تبقى في قاعة الانتظار، جعلهم يعترفون بحق تلك الحكومة في القيام ببعض الإصلاحات، التي ميزوا فيها بين ميدان يمكن العمل داخل نطاقه دون انتظار المفاوضات وميادين لا يمكن ولوجها إلا بعد تحرير السيادة الوطنية وكانت "المسألة الديمقراطية"، ضمن الاختلافات الواضحة في التصور والرؤى بين الحزبين، ضمن رؤيتهما لمهام الحكومة، فقد ألح الشوريون على مهمة إيجاد مؤسسات ديمقراطية، ورأوا أن تقترح الحكومة على الملك في الوقت المناسب تعيين لجنة من ثلاثين عضوا، يختارون من جهات المغرب الستة، بمعدل خمسة عن كل ناحية، تكون مهمتها تهييء مشروع دستور مغربي على أساس مبدأ الملكية الدستورية، في غضون ستة أشهر من تأليفها، كما رأوا أن يقوم النظام الجديد بالمغرب على أفكار تطمح إلى إيجاد دولة مغربية ديمقراطية وذات سيادة، وحكومة مغربية تمثيلية، قائمة على فصل السلطات

والمساواة بين جميع المواطنين بقطع النظر عن عقائدهم ، وحرية الاجتماع، وتأليف الجمعيات، والصحافة والأخبار، بينما لم يكن حزب الاستقلال متحمسا لهذه المسألة، فاستنادا إلى تصوره الخاص لمهام الحكومة ، اقترح تأجيل إقامة نظام ديمقراطي مبني على أساس الملكية الدستورية إلى ما بعد إتمام المفاوضات مع فرنسا، وتسلم جميع مظاهر السيادة. مقترحا أن يظل الملك في الفترة ما قبل نهاية المفاوضات "هو المؤتمن الوحيد على السلطة التشريعية". غير أنه في برنامجه حاول تدارك الأمر نسبيا، فاقترح تأسيس مجالس محلية منتخبة (جماعات وبلديات)، وتأسيس مجلس استشاري مؤقت، يلغى بمجرد تحرير السيادة المغربية لفائدة مجلس وطني منتخب، يكون عدد أعضائه مائة، وتكون مهمته استشارية في كل مشروع قانون يكلفه به الملك، وتزويد الحكومة، بآرائه في مشاريع الإصلاح التي تقدم له، ودراسة وتحرير مشروع دستور مغربي، يكون من حق الملك والمجلس الوطني المنتخب قبوله أو تعديله أو رفضه.

إن اختيار مبارك البكاي، لتشكيل الحكومة، ورآسة وزرائها كان وليد عدة اعتبارات خلقت شبه إجماع حوله، وسهلت مأموريته نسبيا. فاعتدال هذا الرجل، وعدم تحزبه، وخدماته السابقة في الجيش الفرنسي، وفقدانه أحد رجليه في الحرب العالمية الثانية دفاعا عن فرنسا، كلها حيثيات جعلته الرجل المناسب للمنصب من طرف الفرنسيين، ودور هذا الباشا السابق لمدينة صفرو في مناوئة سياسة المقيم العام جوان، وسياسة المقيم العام كيوم، ولخط التهامي الكلاوي، وموقفه من نفي السلطان في غشت 1953 ، المتجلي في تقديم استقالته، ودفاعه على الشرعية، إضافة إلى نشاطه منتصف الخمسينات، منذ الاتصالات الأولى بين الفرنسيين والمغاربة، جعلته الشخص المقبول في نظر الملك، كما جعلته في نظر حزب الاستقلال "رجل الساعة" وفي نظر حزب الشورى والاستقلال، الرجل الذي "أقام الدليل على إخلاصه للقضية الوطنية، وعلى تجرده واستقلاله، وابتعاده عن روح التحزب". ويبدو من خلال تتبع ظروف المرحلة وشروطها، وما أحاط بذلك، أنه لم

يكن هناك شخص يمكن أن يحصل على نفس الإجماع والموافقة التي حصل عليها البكاي، كما يبدو أن مميزات الرجل وموافقة الأطراف الرئيسية على إسناد المهمة إليه، ساهم في إزاحة معظم العراقيل من أمامه، وجعله ينتهي من مشاوراته وتشكيل الحكومة في حوالي أسبوع من الزمن.

ففي 28 نونبر 1955، كلف الملك السيد مبارك البكاي بإجراء مشاورات، وتشكيل حكومة، وفي 6 دجنبر الموالي كان الرجل قد أنهى مهمته ليقدم حكومته للملك يوم 7 دجنبر.

كانت حكومة البكاي الأولى، ائتلافية، حسبما سمحت به الظروف، أبعد عنها الحزب الشيوعي المغربي، لأسباب إيديولوجية وليست سياسة، ولم يشارك فيها حزب الإصلاح الوطني وحزب الوحدة المغربية، لأن أمر المنطقة الخليفية كان ما زال معلقا. فتوزعت حقائبها الإحدى والعشرين بين حزب الاستقلال بتسعة حقائب، وحزب الشورى والاستقلال بستة، والمستقلون أي اللامنتمون حزبيا بخمسة، وحزب الأحرار المستقلين بحقيبة واحدة لتأتي نسب هذه الأحزاب بالتتابع هي :42,8 % و28,5 % و23,8 % و4,7 %. وتوزعت المهام بين هؤلاء الوزراء بين رئيس وزراء ونائبه، وأربعة وزراء دولة، وثلاثة عشر وزيرا، وكاتبان للدولة.

وزراء حزب الاستقلال		وزراء حزب الشورى والاستقلال	
إدريس المحمدي	وزير الدولة	محمد الشرقاوي	وزير دولة
عبدالرحيم بوعبيد	وزير دولة	عبد القادر بن جلون	وزير المالية
عبد الكريم بن جلون	وزير العدل	التهامي الوزاني	وزير الإنتاج الصناعي والمعادن
المختار السوسي	وزير الأوقاف	محمد بن بوشعيب	وزير البناء والتعمير
أحمد اليزيد	وزير التجارة والصناعة	عبد الهادي بوطالب	وزير الشغل والشؤون الاجتماعية
أحمد منصور النجاعي	وزير الفلاحة	أحمد بن سودة	كاتب الدولة في الشبيبة والرياضة

محمد الدويري	وزير الأشغال العمومية		
محمد الفاسي	وزير التهذيب الوطني		
عبد الله إبراهيم	كاتب الدولة في الأنباء		

الوزراء اللامنتمون		حزب الأحرار المستقلون	
مبارك البكاي	رئيس الوزراء	أحمد رضا كديرة	وزير دولة
محمد الزغاري	نائب رئيس الوزراء		
الحسن اليوسي	وزير الداخلية		
عبد المالك فرج	وزير الصحة العمومية		
ليون بنزاكين	وزير البريد والتلغراف والتلفون		

وبتاريخ 13 دجنبر 1955، أدلت الحكومة بأول تصريح لها، تحدث فيه رئيس وزرائها عن الأهداف والخطوط العريضة في البرنامج فأكد أن حكومته هي حكومة مفاوضة وتسيير وتصرف، وأن همها الأساس في مجال التسيير والتصرف سينصب على المطامح المشروعة للمغاربة عن طريق استثمار الموارد المالية والأدبية، استثمارا يؤدي إلى ارتفاع مستوى معيشة أغلبية سكان البلاد، وتنفيذ إصلاحات تهم الإدارة والقضاء، والحريات العامة. واتخاذ تدابير عاجلة لإفراغ الدولة المغربية في قالب ديمقراطي، وقد طلب رئيس الوزراء من كل وزير برنامج عمل دقيق للمصادقة عليه من طرف الحكومة(10).

ولتحديد اختصاصات هذه الحكومة، تم اجتماع بمقر الإقامة العامة حضره عن الجانب المغربي رئيس الوزراء، ووزراء الدولة الأربعة ومستشار الحكومة المغربية "فوجير"، وعن الجانب الفرنسي: المقيم العام "دوبوا"، والوزير المفوض المعتمد للإقامة العامة "لالويط" والمستشار العدلي للحماية "مايرا"(11). انتهى إلى اتفاق بين الطرفين، أسفر عن بروتوكول وقعه مبارك البكاي وأندري دوبوا بتاريخ 11 فبراير 1956، ومذكرتين ملحقتين به. لقد استند مضمون هذا البروتوكول والمذكرتين إلى المذكرات المتبادلة بين الحكومة الفرنسية والمسؤولين المغاربة، بين 30 نونبر 1955، و5 فبراير 1956، فيما يخص نقل سلطات التسيير إلى الحكومة المغربية، ومباشرة الإقامة العامة للاختصاصات المتفق عليها في المدة الانتقالية، التي تنتهي بنهاية المفاوضات المزمع إجراؤها. واستنادا إلى البروتوكول والمذكرتين أكد الاتفاق على صدور ظهير ملكي يحدد النظام المؤقت للسلطات العامة، واختصاصات الوزراء، توضح وتفسر مواده باتفاق بين الطرفين الفرنسي والمغربي(12). أما المفاوضة مع فرنسا، التي كانت أحد مهام الحكومة، فقد أولاها التصريح الحكومي الأول أهمية كبرى، إذ اعتبرها المهمة الجوهرية للحكومة، من أجل تحديد اتفاق جديد يرمي إلى صيانة السيادة المغربية في دائرة وحدة التراب. وفي هذا السياق تم إسناد مهمة التفاوض مع فرنسا، إلى وزراء الدولة الأربعة، فبدا وكأن المهام توزعت بين رجال الحكومة الأولى وزراء الدولة لإنجاز مهمة التفاوض مع فرنسا حول مستقبل العلاقات المغربية الفرنسية، والباقون لمهمة التسيير والتدبير.

مفاوضات باريس واستقلال 2 مارس 1956:

اقترحت الحكومة الفرنسية، إثر مجلس وزاري عقدته بتاريخ 3 فبراير 1956، على ملك المغرب، تدشين المفاوضات الفرنسية المغربية، في منتصف نفس الشهر. واستنادا إلى تحديد تاريخ بدإ المفاوضات شرع الوفد المغربي في التهيء، وكان مكونا من رئيس الوزراء مبارك البكاي، وخليفته الزغاري، ووزراء الدولة

الأربعة إدريس المحمدي، وعبد الرحيم بوعبيد ومحمد الشرقاوي وأحمد رضا كديرة وقد عين الملك، هذا الأخير ناطقا رسميا باسم الوفد المغربي في المفاوضات كما تم تكليف محمد الزغاري، بمهمة الانتقال بين باريس والرباط لربط الصلة بين الوفد الحكومي المفاوض وبقية الوزراء. أما الوفد الفرنسي فكان برآسة "كريستيان بينو" وزير خارجية فرنسا، وعضوية "آلان سافري" كاتب الدولة المكلف بالشؤون المغربية والتونسية، و"روني ماسيكلي"، و"أندري دوبوا"، و"جورج لالويط". وللمشاركة في حفل تدشين المفاوضات، والوجود قريبا من الوفد المغربي، للتشاور، سافر محمد بن يوسف إلى باريس بتاريخ 13 فبراير.

إن الشعارات التي كانت تطلقها وتروج لها الحركة الوطنية والمقاومة المسلحة في فترة الكفاح الوطني، وهي الشعارات التي ربطت بين الاستقلال وشخص الملك، جعلت المغاربة – في معظمهم – يعتبرون أنفسهم منذ عودة هذا الأخير إلى العرش، شعبا مستقلا. ونفس الأمر كان بالنسبة للمسؤولين، مع فارق واحد تجلى في أن هؤلاء الأخيرين كانوا على بينة، من خلال اتفاقات ما قبل عودة السلطان، من أن الأمر موقوف على ضرورة مفاوضات حوله. ولهذا سافر الوفد المغربي المفاوض، بهدف محدد هو "التفاوض في دائرة الاستقلال"(13). والعمل على جعل استقلال المغرب حقيقة ملموسة عن طريق إلغاء معاهدة فاس لسنة 1912، وتمكين الدولة المغربية من مزاولة اختصاصات سيادتها(14) غير ان هذا الهدف، لم يكن ليلغي التزامات المغرب، بأن التفاوض سيشمل كذلك طبيعة "الترابط" في العلاقات المغربية الفرنسية، الذي سيؤطر ذلك الاستقلال(15) ومثلما حضرت النقطتان في دهن وبرنامج المفاوضين المغاربة، حضرتا بالضرورة في دهن المفاوضين الفرنسيين، لأنهما في الأساس طرحا واقتراحا فرنسيا. فقد حضر الوفد الفرنسي في المفاوضات بهدف "الوصول بالمغرب إلى وضعية دولة مستقلة مرتبطة مع فرنسا بروابط مستمدة من التكافل المقبول والمحدد بكل حرية"(16) وعلى ضوء هذه القناعة، التي أصبحت مشتركة، تم افتتاح المفاوضات بين المغرب

وفرنسا، بقصر الاليزي بباريس يوم 15 فبراير 1956 ، بحضور رئيس الجمهورية الفرنسية "روني كوتي"، ومحمد الخامس، ملك المغرب، في جلسة تدشين علنية قصيرة، لم تستغرق سوى حوالي ثلاثين دقيقة، تناول فيها الرئيس الفرنسي والملك المغربي الخطوط العريضة لهدف اللقاء، ومستقبل العلاقات الفرنسية المغربية. وبعد جلسة الافتتاح بدأت جلسات العمل، التي اعترتها بعض الخلافات، حول المسطرة، لم يقع التغلب عليها، إلا بعد حين. كان مضمون الخلاف مركزا حول استعجال الوفد المغربي للاعتراف بالاستقلال، وإلغاء عقد الحماية، من طرف الفرنسيين، ولو في تصريح أولي، إذا تعذر عقد معاهدة في الأمر منذ البداية. وهو استعجال تم تبريره بعدد من المبررات، من بينها ضرورة توفر الوفد المغربي على الكفاءة الشرعية التي تؤهله للتفاوض. فالمحجور – حسب الناطق الرسمي للوفد – لا يسوغ التعاقد معه، ولا يمكن أن يكون للاتفاقات الفرنسية المغربية قيمة قانونية إلا إذا تم الاعتراف للمغرب بالرشد(17). هذا التصور الاستعجالي، قدم الوفد الفرنسي في حقه ثلاثة اعتراضات استندت إلى أن الدستور الفرنسي لا يخول الحكومة حق البث في عقد الحماية، الذي هو من حق البرلمان، وأن عقد فاس لا يمكن أن يلغى إلا إذا أبرمت اتفاقات جديدة بين فرنسا والمغرب تقوم مقامه. كما أن إعلان أي تصريح باستقلال المغرب دون تحديد الروابط يؤدي إلى نشوء فراغ قانوني وعملي(18). كاد هذا الخلاف أن يؤثر على سير المفاوضات، وهو ما اضطر الوفد المغربي إلى تقديم عدة اقتراحات، كضمانة لتقريب وجهتي النظر. ويبدو أن الجلسة العلنية بتاريخ 22 فبراير حملت معها الانفراج، الذي جعل منها منعطفا عبد الطريق ليس نحو حل الخلاف فقط، بل نحو التسريع بنهاية المفاوضات.

كان الوفد المغربي يتوقع أن تستغرق المفاوضات مع الفرنسيين مدة تتراوح بين خمسة أو ستة أشهر(19)، إلا أنها لم تستغرق أكثر من حوالي نصف شهر، فقد تم التوصل بتاريخ 2 مارس 1956 بمقر وزارة الخارجية الفرنسية، إلى بيان فرنسي

مغربي مشترك، اعترف باستقلال المغرب، وقعه رئيسا الوفدين "كريستيان بينو" و"مبارك البكاي"، كما تم التوقيع على بروتوكول خاص بمدة الانتقال.

اعترف البيان المشترك (2 مارس 1956)، ان عقد الحماية المبرم في فاس بتاريخ 30 مارس 1912، أصبح لا يتلاءم مع مقتضيات الحياة العصرية، ولا مع مستقبل العلاقات الفرنسية المغربية، وبأن حكومة الجمهورية الفرنسية تقر للمغرب بالاستقلال، الذي يقتضي دبلوماسية وجيشا، ويقتضي احترام وحدة ترابه المضمونة بالمعاهدات الدولية. كما أشار إلى الأوفاق الجديدة التي ستبرم فرنسا والمغرب لتحديد الترابط بين البلدين في الميادين مشتركة المصالح، والتعاون في شؤون الدفاع والعلاقات الخارجية والاقتصاد والثقافة، إلى جانب ضمان حقوق الفرنسيين بالمغرب وحقوق المغاربة بفرنسا(20) وفي البروتوكول الذي ألحق بهذا التصريح المشترك، اتفق رئيس الجمهورية الفرنسية، وملك المغرب على بناء العلاقات المغربية الفرنسية الجديدة على مقتضيات ما جاء في مضمونه، ريتما يتم الاتفاق حول الأوفاق. وقد نص هذا البروتوكول على أن يمارس السلطان في المرحلة الانتقالية، السلطة التشريعية بكامل السيادة شريطة اطلاع ممثل فرنسا على الظهائر والقرارات، وحقه في إبداء ملاحظاته حولها في حالة إذا ما كانت تمس بمصالح فرنسا، والفرنسيين والأجانب. وأن يتصرف السلطان في جيش وطني، إلى جانب استمرار الجيش الفرنسي في وضعيته بالمغرب، إلى جانب حفاظ الموظفين والمستخدمين الفرنسيين في المغرب على الضمانات التي يتمتعون بها ...(21).

وفي نفس يوم توقيع التصريح المشترك، حول استقلال المغرب، تبادل مبارك البكاي، مع كريستيان بينو، عددا من الرسائل، ألحقت بالبيان المشترك، والبروتوكول الملحق به. في هذه الرسائل طالب الطرف المغربي، من الطرف الفرنسي مواصلة الإشراف على تسيير علاقات المغرب الخارجية، وتمثيل وحماية الرعايا المغاربة، ومصالحهم بالخارج في انتظار اتفاق الحكومتين على إجراءات جديدة ، كما أكد للحكومة الفرنسية موافقته على عدم إدخال تغيير على نظام النقد

والمالية، ريثما تحدد كيفية التعاون بين البلدين في هذا الميدان. واقترح البكاي، في هذه الرسائل كذلك، وتطبيقا للمادة الثالثة من بروتوكول 2 مارس على بينو تشكيل لجنة من ممثلين فرنسيين ومغاربة، تجتمع يوم 10 مارس بالرباط، لدراسة نقل سلطات التسيير المحتفظ بها من طرف الفرنسيين، باستثناء المسائل النقدية والمالية والعسكرية والدبلوماسية المؤجل البث فيها إلى حين إبرام توافقات حولها(22).

انتهت المرحلة الأولى للمفاوضات المغربية الفرنسية، بالتصريح المشترك، والبروتوكول الملحق به، والرسائل المتبادلة بين رئيسي وفدي التفاوض. وأصبح مضمون هذه الوثائق أساس العلاقات المغربية الفرنسية، إلى حين البث فيما استمر عالقا. لقد صنف المسؤولون المغاربة بلدهم، منذ هذه المرحلة، حرا من جميع القيود إزاء فرنسا، وأنه ارتقى إلى وضعية دولة مستقلة، استرجعت المقاليد الأساسية للسيادة التي تؤهله لمباشرة أموره، بما فيها بدء المفاوضات المقترحة مع باريس، وإمضاء الاتفاقيات الجديدة التي ستحدد الترابط بين المغرب وفرنسا في ميادين المصالح المشتركة(23) كما صنفوا نهايتها، نقطة تبديد للشكوك وتوضيح ما كان غامضا، وخروجا بالمغرب " من طور التساؤل والرجاء إلى مرحلة اليقين"، والاطمئنان على مصير البلاد(24).

وعلى العموم كان إمضاء بيان 2 مارس 1956، صيغة للحصول على الاستقلال بشكل رسمي، كما كان مرحلة أولى في طريق تحرير باقي تراب المغرب. فمنذ بدايات جس النبض، والحوار الأولي مع الفرنسيين نبهت الفعاليات الوطنية المغربية إلى شمولية التراب المغربي، والرغبة في التخلص من التجزيء. ومنذ عاد السلطان إلى المغرب ما فتئ يذكر من استقبلهم من الفعاليات الفرنسية، بأن السيادة المغربية، والقطر المغربي، وحدة لا تتجزأ، وأن هدف المغاربة هو الاستقلال الشامل داخل حدود البلد التاريخية(25) ، كما ذكر في كلمة افتتاح مفاوضات باريس، فرنسا والدول الموقعة على عقد الجزيرة، بأن هذه المعاهدة وغيرها من المعاهدات الدولية تشكل ضمانا صريحا لوحدة المغرب(26) واعتبر في

خطاب 7 مارس 1956 " عملا ناقصا وجهدا فاشلا" في حالة عدم توحيد المغرب، ورد الأمور إلى نصابها(27).

استرجاع المنطقة الخليفية:

كان احتلال إسبانيا لجزء من التراب المغربي في إطار الحماية، ذو وضعية خاصة لا يربط فيها المغاربة مع الإسبان، أية معاهدة أو اتفاق. حيث استحوذ الإسبانيون على ما استحوذوا عليه من تراب في إطار اتفاقهم مع الفرنسيين في 27 نونبر 1912. لهذا اعتبر الوطنيون المغاربة باستمرار وضعية إسبانيا بمنطقة نفوذها (المنطقة الخليفية) وضعية مستأجر(28) أو مكتر من الباطن(29) وبناء على هذا الفهم كانت نهاية العمل بمعاهدة فاس 1912 مع فرنسا، تعني قانونيا ومنطقيا، وبشكل آلي، نهاية الاحتلال الإسباني، الذي ارتبط أصله بها. ولعل هذا الفهم أحد الأمور التي تفسر لماذا كانت حملات الحركة الوطنية بالشمال أشد وأقوى مقارنة مع حملاتهم ضد الإسبان مستعمرهم المباشر. وعلى كل حال فقد كان هذا الوضع الخاص، حاضرا لدى كل الأطراف طيلة مدة الاحتلال وحضر بشكل أقوى منذ أن بدأت فرنسا أواسط الخمسينات تفكر في حل ما إزاء القضية المغربية.

ورغم الاضطرابات التي أصابت السياسة الإسبانية، والموقف من المتغيرات، منذ عاد السلطان محمد بن يوسف إلى المغرب، فإن الأمر الواقع -على ما يبدو – كان أقوى، من أي انحراف قد يخسر فيه الإسبان، مستقبل علاقتهم مع المغرب ومع فرنسا على السواء. لهذا وبعد أن تم رفض إشراك الإسبان في المفاوضات الفرنسية المغربية بباريس. اضطر الإسبانيون إلى التصريح في حق تلك المفاوضات بأنها لا تهم سوى المغرب وفرنسا، لأنها ستجري على أساس عقد الحماية المبرم بين البلدين بفاس سنة 1912 ، مكتفين بالتنبيه إلى ضرورة عدم المساس بالفقرة التي تضمنت حقوق الإسبان، بالفصل الأول من تلك المعاهدة، وإلى ضرورة الاتفاق بشأن ذلك بين فرنسا وإسبانيا (30) ، وكانت الطريقة التي سارت بها المفاوضات بين المغرب وفرنسا، أحد الأسباب التي جعلت الإسبان يسلكون طريق

تدارك ما يمكن أن يضيع ، والبحث عن مكان في خريطة المصالح، قبل أن يحتكر الفرنسيون كل أفق التعاون المرتقب. هكذا تم توجيه دعوة لسلطان المغرب، لزيارة إسبانيا قصد فتح مفاوضات بين الجانبين، على أساس الاستقلال والوحدة(31) كما حاول الجنرال فرانكو وضع واقع المغرب في عهد الحماية، في إطاره الحقيقي لما صرح لمراسل جريدة "هيرالد تريبيون" الأمريكية بأن تقسيم المغرب لم يكن إلا تقسيما إداريا، ومن الطبيعي إعادة توحيد هذه البلاد(32).

انتقل سلطان المغرب، ووفد وزاري برآسة البكاي للتفاوض إلى إسبانيا بتاريخ 5 أبريل 1956 على أرضية تحرير المنطقة الخليفية،، وتوحيد تراب المغرب(33) والرغبة في تحقيق التعاون مع الإسبان على أساس احترام السيادة والاستقلال(34) وكذا أرضية اقتناع الحكومة الإسبانية بحق المغرب في ممارسة سيادته ، وللأمل في فتح آفاق جديدة بين الإسبان والمغاربة(35) ، أما الوفد الإسباني فتكون من عدد من المسؤولين على رأسهم وزير الخارجية "مارتان أرطاخو". ورغم أن هذه المفاوضات التي ابتدأت يوم 5 أبريل، انتهت يوم السابع منه، فإن ذلك لم يكن ليعني أن السرعة التي انتهت بها دليل على سهولتها أو سيرها. إذ كانت تلك المفاوضات شاقة وعسيرة ومعقدة. وصفها أحد الوطنيين المغاربة بأنها كانت "أعقد من ذنب الضب". ولعل اختلاف الرؤى والمنطلقات لدى وفدي التفاوض، كان من وراء عسر تلك المفاوضات، التي استمرت جلستها الأخيرة حوالي اثنا عشرة ساعة دون انقطاع. فالوفد المغربي حضر المفاوضات بخلفية إجراء محادثات شكلية من أجل استرجاع وحدة البلاد المشروعة، والمتفق عليها دوليا. بينما الإسبان وإن كانوا لم يجادلوا في ذلك فإنهم كانوا يرون ضرورة إجراء مفاوضات لا تختلف عن تلك التي أجريت مع الفرنسيين، وكانوا يبحثون هم كذلك عن صيغة "للتكافل" تؤطر ما يتم عقده من اتفاقات مع المغرب. ولعل هذا ما خلق صعوبة في التواصل، لم تنته بانتهاء المفاوضات.

انتهت المفاوضات المغربية الإسبانية في السابع من أبريل بالتوصل إلى بيان مشترك وبروتوكول إضافي، وقعهما رئيس الحكومة المغربية ووزير الخارجية الإسبانية. وأهم ما جاء في هاتين الوثيقتين: إلغاء العمل باتفاقية مدريد المبرمة بين فرنسا وإسبانيا في 27 نونبر 1912، واعتراف الحكومة الإسبانية باستقلال المغرب وسيادته التامة ووحدة ترابه، والعمل من أجل إبرام أوفاق جديدة لتحديد علاقات جديدة بين الدولتين، وحذف التأشيرات، وجميع الإجراءات الإدارية التي كانت لازمة في تنقلات المغاربة من منطقة إلى أخرى، ونقل السلطات التي كان يمارسها الولاة الإسبانيون في المغرب إلى الحكومة المغربية. وفي أفق نقل السلطات كون الطرفان لجنة مختلطة أنيطت بها عمليات السهر على ذلك وتهييء شروطه، وانتقل السلطان إلى مدينة تطوان للاحتفال بالمناسبة، ثم إلى العرائش والقصر الكبير، وإلى منطقة الحدود بين المنطقة السلطانية، والمنطقة الخليفية حيث قطع شريطا رمزيا، إعلانا بانتهاء سنوات الفصل، وعهد الجمارك. وتعبيرا عن استعادة وحدة جزئين أساسيين من التراب المغربي.

وإتماما للمفاوضات الإسبانية المغربية، بدأ الشطر الثاني منها في يونيو من سنة 1956، انتهى إلى مجموعة من الاتفاقات والأسس التي اعتمدت في تسليم مظاهر السلطة للمغاربة بالمنطقة الشمالية، ونصب العلم المغربي وحده فوق المباني العمومية، والإعلان رسميا عن انتهاء مهمة الجنرال "كارسيا فالينو". وتمهيدا لعمليات الاندماج التام بين شطري المغرب ثم تكليف " عبد الخالق الطريس " من طرف السلطان ، بمهمة العمل بين المصالح بالمنطقة الشمالية والوزارات المختصة بالرباط.

اتفاق استرجاع مدينة طنجة:

اعتبر المسؤولون المغاربة، المفاوضات المغربية الإسبانية، من أجل المنطقة الخليفية، أول مظهر للسيادة المغربية في الخارج، إذ لأول مرة يتم اتصال مباشر مع دولة أجنبية عوض قيام فرنسا بذلك الدور باسم المغرب، كما اعتبروها

أول عمل دبلوماسي لحكومة المغرب المستقل(36). وبعد هذه الخطوة التي صنفت بداية مسار هدف استرجاع وحدة كل البلاد، اتجه عمل حكومة البكاي نحو ضرورة إنهاء وضعية مدينة طنجة التي أرادت لها القوى الامبريالية في مطلع القرن العشرين، أن تصبح منطقة دولية. ولتطمين الدول التي كان يعنيها أمر هذه المدينة، أدلى كاتب الدولة في الأنباء بتصريح بدد فيه تخوفات تلك الدول على مصالحها، أعرب عن استعداد المغرب لمنح المدينة بعد استرجاعها، نظاما يساعد على تسوية جميع المشاكل وإرضاء جميع الرغائب(37). وبعد قبول الدول المعنية لاقتراح المغرب بإنشاء نظام مؤقت للمدينة، وقبولها بتصفية مشكل المدينة، والتوصل مع المغرب إلى اتفاق بصددها، انعقد مؤتمر دولي، بمدينتي المحمدية وطنجة، امتد من 8 أكتوبر إلى 29 منه. أنهى أشغاله بتوقيع تصريح مشترك وبروتوكول ملحق به، ألغي بمقتضاهما نظام طنجة الدولي، واستعاد المغرب سلطاته عليها. غير أنه وقبل اللمسات الأخيرة للاتفاق حول استقلال طنجة، كانت حكومة البكاي الأولى قد سقطت.

استرجاع بعض رموز السيادة :

خولت معاهدة الحماية سنة 1912 للسلطات الفرنسية مهمة الدفاع عن المغرب، وجعلت من المقيم العام، بالإضافة إلى مهامه، الوسيط الوحيد بين السلطان والدبلوماسيين الأجانب، فجرد بذلك المغرب من حقه في تنظيم جيش لحماية نفسه، ومن حق التحكم في علاقاته الدبلوماسية الخارجية بنفسه، وبعد توقيع تصريحي الاستقلال، مع كل من فرنسا وإسبانيا، نص البروتوكولان الملحقان بهما على حق استرجاع هذين الرمزين من رموز السيادة، الجيش والدبلوماسية بعد فترة انتقالية يتم فيها التفاوض حول طرق تحريرهما. وبما أن الحديث عن الاستقلال الوطني، لا يستقيم في غياب السيادة على هذين المجالين. اهتمت الحكومة اهتماما كبيرا من أجل الحق في ذلك. وإثر تحرير الدبلوماسية المغربية، بانتهاء المفاوضات حول ذلك، تم تعيين أحمد بلافريج وزيرا للخارجية (26 أبريل 1956)، وكانت أول

وثيقة وقعها المغرب، بعد تحرر دبلوماسيته، هي معاهدة الصداقة المغربية الفرنسية، التي حددت طبيعة الترابط بين البلدين وقعها بتاريخ 20 ماي 1956، وزير الخارجية المغربي، ووزير الخارجية الفرنسي. واعتبرتها الحكومة المغربية، منفذا لممارسة ما تقتضيه السيادة في الميدان الدولي والدبلوماسي(38)، وبموجب بنود هذه المعاهدة أصبح المغرب عضوا في هيئة الأمم المتحدة ابتداء من يوم 16 يوليوز 1956. كما بدأ المغرب إثر تحرير دبلوماسيته، عمليات تبادل السفراء مع بلاد العالم، وهي عمليات، همت في انطلاقتها الدولتان اللتان كانتا تحتلان تراب المغرب. فرنسا التي أسندت مهمة سفير بها لعبد الرحيم بوعبيد ، وإسبانيا التي أسند هذا المنصب فيها لعبد الخالق الطريس.

موازاة مع محاولات تحرير الدبلوماسية، عملت حكومة البكاي في سبيل إعداد جيش وطني، فتم تعيين أحمد رضا كديرة في 22 مارس 1956 ، وزيرا للدفاع، وتعيين ولي العهد، رئيسا لأركان حرب القوات المسلحة الملكية، وتقلد السلطان شخصيا مهمة الرئيس الأعلى للجيش. كما بدأت مجهودات كل من رضا كديرة وولي العهد، واتصالاتهما في أفق جيش مغربي، تكونت نواته الأولى من الجنود المغاربة الذين كانوا مجندين في صفوف القوات المسلحة الفرنسية والإسبانية. ففي 13 ماي 1956، أقسم الجنود يمين الولاء، وفي 14 ماي أقيم أول استعراض عسكري، بمشاركة أربعة عشر ألف جندي، وصنفت الصحافة المغربية يوم الاستعراض، في المرتبة الثانية بعد يوم عودة السلطان(39) وفي نفس سياق بسط السيادة، تم تعيين محمد الغزاوي مديرا للأمن وانتشر جنود الأمن والدرك في مختلف الجهات والأماكن...

خاتمة :

أنجزت حكومة البكاي الأولى ،الخطوط العريضة للاستقلال، بإبرام اتفاقيات مع من يعنيهم الأمر، بدلت أوضاع الحماية، بأوضاع جديدة كانت مثقلة بالإملاءات الفرنسية، وبالنهج الإصلاحي للحركة الوطنية، المبني على مقولة "خذ

وطالب". فأوفاق إيكس لي بان ، وما بعدها أهدرت محاولات التخلص منها في عهد الحكومات الموالية الكثير من الجهد، ولكن "الأمر الواقع"، – على ما يبدو – كان فوق كل اعتبار. ومهما كان الأمر فالحكومة حققت ظاهريا ما كان مطلوبا منها في هذا الباب، إلا أن المهام الأخرى، وخصوصا مهمة تدشين الفعل الديمقراطي، استمرت مؤجلة، بسبب ثقل مهمة المفاوضة من جهة، وبسبب المشاكل التي أثيرت في أوساط الحكومة نفسها فحزب الاستقلال الذي أشرنا إلى مشاركته في هذه الحكومة على مضض، لم يكن راضيا بنصيبه رغم أنه كان الأكبر. ومن خلال رغبته في تشكيل حكومة يرأسها ويحتكر أغلب مقاعدها، ما فتئ يندد بالحكومة رغبة في إسقاطها، فهاجم مسؤولوه إنجازاتها واتهموها بالتقصير، وتبادلوا هجوما بالتصريحات مع رئيس وزرائها، وطالبوا بحكومة منسجمة. وإذا كان السلطان قد رفض تغيير الحكومة للأسباب التي رددها الاستقلاليون فإن حادثة اختطاف طائرة زعماء جبهة التحرير الوطني الجزائري وما ترتب عن الحادث مباشرة من اضطرابات، كان بمثابة عامل مباشر اضطر الحكومة إلى " الاستعفاء " من مهامها، حيث قدم البكاي استقالة حكومته بتاريخ 26 أكتوبر 1956، فسقطت الحكومة، وكلف الملك نفس الشخصية بتشكيل حكومة جديدة، وتكونت حكومة البكاي الثانية، التي كان نصيب حزب الاستقلال فيها 50 % من المناصب، إلى جانب غير المنتمين حزبيا وحزب الأحرار المستقلين، بينما كان الغائب الأكبر فيها هو حزب الشورى والاستقلال الذي رفض المشاركة، احتجاجا على ما منح له من مناصب اعتبرها إجحافا في حقه، والذي تبنى مهمة المعارضة، ليكون بذلك أول حزب معارضة في عهد الاستقلال.

الهوامش :

1 – كما عبر عن ذلك أعضاء الوفد الفرنسي في الاجتماعات، هو إيريسو YRISSOU.
أنظر المحاضر الرسمية لمفاوضات إيكس لي بان – جلسة الاستشارة مع ممثلي حزب الاستقلال – الملفات المغربية الكبرى – عدد 1 – أبريل 1996 ص. 13.

2 – أنظر مذكرة هذا الحزب إلى حكومة الجمهورية الفرنسية 24 غشت 1955 ، نفس المرجع أعلاه ، ص. 10 – 11.

3 – من أول خطاب للعرش بعد العودة، 18 نونبر 1955.
أنظر نصه ب: وزارة الأنباء والسياحة: منجزات وأهداف – الرباط – مطابع فرنسية مغربية – د ت – ص: 10 – 14.

4 – من كلمته في حفل تدشين مفاوضات الاستقلال مع فرنسا فبراير 1956 أنظر المرجع نفسه ، ص. 29 – 31.

5 – نفس المصدر.

6 – من التقرير السياسي للمؤتمر الاستثنائي لحزب الاستقلال، أنظر نصه ب محمد العربي الخطابي: المغرب في طريق الاستقلال – الدار البيضاء – دار الكتاب 1955 ، ص.127 – 147.

7 – من تصريح لاسيل سان كلو. أنظر نصه بنفس الكتاب، ص.119 – 120.

8 – من كلمة الملك بمناسبة تشكيل حكومة البكاي الأولى، منجزات ص. 17 – 19.

9 – استندنا في رد الحزبين معا على الاستشارة الملكية على التقرير السياسي للمؤتمر الاستثنافي لحزب الاستقلال. أنظره بكتاب لمؤتمر حزب الاستقلال م س. ومذكرة حزب الشورى والاستقلال المرفوعة إلى الملك. أنظرها بكتاب العربي الخطابي ، ص. 149 – 158.

10 – من أول تصريح للحكومة انظرنص ب : المغرب في طريق الاستقلال م س ص ص 159–167

11 – جريدة السعادة عدد 5 يناير 1956.

12 – أنظر نص الاتفاق بكتاب:

13 – من تصريح للناطق الرسمي باسم الوفد لجريدة العلم أنظره بالمرجع نفسه ص ص 32–35

14 – من كلمة الملك في حفل تدشين المفاوضات الفرنسية المغربية بباريس 15 فبراير 1956

أنظر المرجع ص ص 29-31

15 ـ المصدر نفسه.

16 ـ من كلمة رئيس الجمهورية الفرنسية في حفل تدشين المفاوضات أنظرن م - ص ص 26-28.

17 ـ من تصريح الناطق الرسمي للوفد المغربي م س

18 ـ نفسه.

19 ـ من تصريح عبد الرحيم بوعبيد لجريدة العلم عدد 7 يناير 1956.

20 ـ أنظر التصريح بمنجزات م س ص 36-37

21 ـ أنظر نص البروتوكول بالمرجع نفسه ص 37-38

22 ـ أنظر نصوص هذه الرسائل بنفس المرجع ص ص 38-42

23 ـ أنظر تصريح الناطق الرسمي باسم الوفد المغربي في مفاوضات باريس...نفسه ص ص 42-45

24 ـ من خطاب الملك بتاريخ 7 مارس 1956. أنظر نصه بنفس المرجع ص ص 42-45

25 ـ أنظر على سبيل المثال ما جاء في جريدة العلم عدد 11 يناير 1956.

26 ـ أنظر كلمته في افتتاح المفاوضات.

27 ـ أنظر نص الخطاب.

28 ـ الوزاني محمد حسن: لا استقلال مع التبعية، الرأي العام عدد 583 24 / 8 / 1957.

29 ـ بنونة المهدي، المغرب ... السنوات الحرجة. ص. 386

30 ـ أنظر جريدة العلم – عدد 6 يناير 1956.

31 ـ أنظر جريدة العلم – عدد 1 أبريل 1956.

32 ـ العلم عدد 3 أبريل 1956.

33 ـ من خطاب الملك بتاريخ 4 أبريل وهو في اتجاهه إلى إسبانيا.منجزات : ص 52-53

34 ـ من خطاب الملك أمام فرانكو في افتتاح المفاوضات المغربية الإسبانية.منجزات : ص ص 53-55

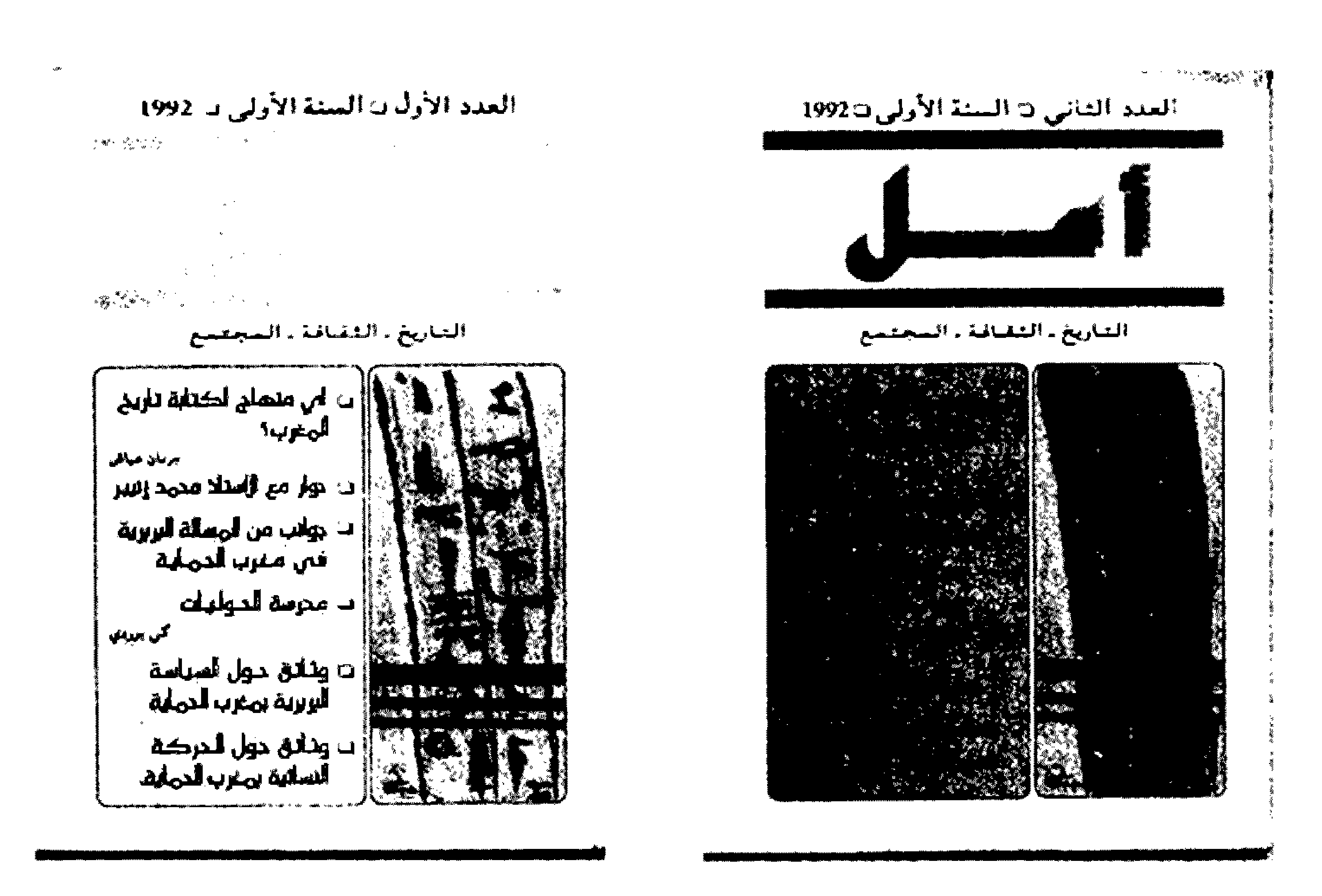
35 ـ من خطاب فرانكو في افتتاح المفاوضات الإسبانية المغربية.منجزات : ص ص 55-58

36 ـ من تصريح لعبد الرحيم بوعبيد بعد انتهاء المفاوضات الإسبانية المغربية أنظر العلم عدد 12 أبريل 1956.

37 ـ أنظر العلم عدد 29 ماي 1956.

38 — من تصريح لأحمد بلا فريج انظر منجزات : ص 80

39 – انظر العلم عدد 15 ماي 1956







رحم الله الأستاذ المهدي الودغيري

بلغنا - والمجلة بالمطبعة - نعي الأستاذ الصحفي الباحث ، المـــهدي الودغــيري . وبهذه المناسبة الأليمة يتقدم طاقم مجلة أمل بأحر التعازي لأسرة الفقيد ، وذويـــه ، وسائر أصدقائه ويدعو لهم بالصبر والسلوان ، كما يدعو للفقيد بالرحمة والمغفرة .

لقد ساهم معنا المرحوم المهدي الودغيري ، في أعمال هذه الندوة التي يتضمنها هـذا العدد ، فلم تسعفه الأقدار للإطلاع على بحثه منشورا ، كما لم تسعف أستاذا باحثـــا آخر، هو المرحوم بوشتى بوعسرية الذي كان معنا مشاركا في نفس الندوة فإلى روح وذكرى الفقيدين ، نقدم هذا العدد .

وإنا لله وإنا إليه راجعون

